بصائر نفسية إسلامية
(١)

سكينة الإيمان

تأملات نفسية إسلامية

في العقيدة - والأخلاق - والعبادات

المؤلف

الدكتور محمد كمال الشريف

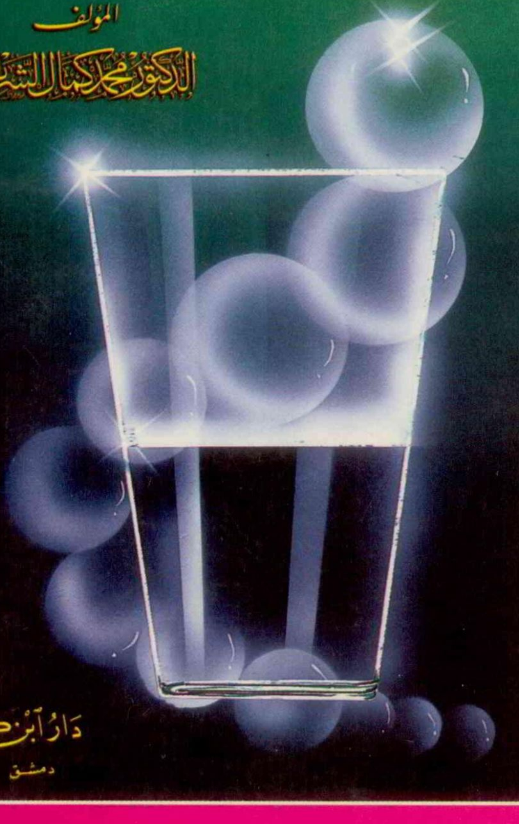

دار ابن كثير

دمشق بيروت

بصائر نفسيّة إسلاميّة

(١)

سكينة الإيمان

تأمُّلاتٌ نفسيَّةٌ إسلاميَّةٌ

في العقيدة - والأخلاق - والعبادات

تأليف الطّبيب النّفسي

الدكتور محمد كمال الشريف

دار ابن كثير

دمشق - بيروت

بسم الله الرحمن الرحيم

سكينة الإيمان

تأملات نفسية إسلامية

في العقيدة - والأخلاق - والعبادات

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى
١٤١٧هـ - ١٩٩٦م

دار ابن كثير

دمشق - حلبوني - جادة ابن سينا - بناء الجابي
ص.ب: ٣١١ - تلفون: ٢٢٢٥٨٧٧ - ٢٢٤٣٥٠٢

بيروت - برج أبي حيدر - خلف دبوس الأصلي
ص.ب: ١١٣/٦٣١٨ تلفون: ٨١٧٨٥٧ - ٢٠٤٤٥٩ - ٠٢

تقديم

بقلم الدكتور عبد الرحيم حسين هويدي[(١)]

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على محمد عبد الله ومصطفاه. . .

علم النفس علم إنساني هام، يعرّف بأنه «الدراسة العلمية للسلوك والعمليات العقلية». تاريخه طويل، يرجع إلى القرن الرابع قبل الميلاد والعلماء الإغريق، وفي الوقت ذاته فهو علم حديث من الناحية التطبيقية، حيث إنه لم يشهد انتشاراً واسعاً إلا مع بداية القرن العشرين. وازدهر خصيصاً بعد الحرب العالمية الثانية.

عرف الباحثون أهميته، واعترفوا بالحاجة الماسّة للتعمق في

---

(١) المعالج النفسي في مستشفى الطب النفسي في «أبو ظبي» والحائز على الدكتوراه في علم النفس الإكلينيكي من جامعة Wright State University في أوهايو، في الولايات المتحدة الأمريكية.

دراسة السلوك، والعوامل التي تؤثر فيه، فنتج عن ذلك كمّ هائل من المادة العلمية في هذا المجال، وبات تخصّصاً أساسياً تكاد لا تخلو جامعة من توفيره لطلاب العلم.

ومع زيادة انتشاره، وما نتج عنه من اكتشافات، تشعّب هذا المجال إلى عشرات التخصصات أثّرت في جوانب عديدة وأساسية من حياتنا العصرية، وأثرتها. فبالإضافة إلى قيامه كعلم مستقل بفروعه المختلفة، فقد أثرى علم النفس: العلوم الطبية، والاجتماعية، والقانون، والتعليم، والسياسة، والعلوم الإدارية، والنهضة الصناعية.

ولعلّ أهم مَن تأثر بعلم النفس هو الإنسان العادي، فقد أصبح هذا العلم مرجعاً له في كثير من جوانب حياته، يرجع إليه الإنسان في محاولته لفهم نفسه، وتفهّم سلوكه ومشاعره، ويرجع إليه في محاولته لتحسين علاقته ومعاملته مع الآخرين. يرجع إليه الزوج ليعينه على التعامل مع زوجه، ويلجأ إليه الوالدان ليعينهما على فهم سلوك أطفالهما وتربيتهم. يرجع إليه صاحب العمل ليحسّن أداء موظفيه، ويزيد من إنتاجهم، ويرجع إليه القائد والمسؤول ليستعينوا به على قيادة مرؤوسيهم، ويأوي إليه من يعاني مِن اضطرابات وأمراض نفسية، ليستفيد منه في استرجاع بصيرته، وتغيير سلوكه.

ولعلَّ من أهم خصائص علم النفس أنه مجال جذّاب،

حيث إنه يثير فضول طلابه وقارئيه، وينال احترام الكثيرين الذين وجدوا فيه مصداقية، وفائدة، وميزة أخرى لعلم النفس، وما هي بأقل أهمية، وهي أنه ليس موجّهاً أو مصمّماً لطائفة محددة من طلاب المعرفة أو المتخصصين، بل إن كل إنسان يجد فيه شيئاً مشبعاً لحاجة ما.

ولكن ونقولها بمرارة فإن هذا العلم المهم والشيق احتُكر من قبل المجتمعات المتقدمة، والغربية منها خصوصاً، مثلما تمّ احتكار كثير من العلوم والتكنولوجيات المتقدمة الأخرى. هذا الاحتكار حقيقة سواء من حيث تطوير هذا العلم، أو من حيث استهلاكه، والاستفادة منه، فالغالبية العظمى مما كتب في علم النفس في وطننا العربي، هو عبارة عن تعريب، لا أكثر، أو ترجمة حرفية لما اكتشفه الغربيون، أو لنظرياتهم عن طبيعة الإنسان وسلوكه. من هنا تأتي مشاعر المرارة، حيث إن كثيراً من النظريات التي يرتكز عليها علم النفس الغربي مرتبطة ومتأثرة بحضارات وأفكار غريبة عن الإنسان المسلم، وغير صالحة له. كما إن كثيراً من توجيهات علماء النفس الغربيين، والقيم التي يجتهدون في ترسيخها لا تصلح للإنسان المسلم.

ولعل الكثير من القراء الكرام يستشعرون إحساسي بالمرارة لترك الباحثين المسلمين ـ ولا أستثني نفسي ـ وتجاهلهم للمنبع

الهائل واللا محدود المتمثل في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة؛ بما فيهما من حقائق راسخة، ونظريات سامية عن التشكيك، وتوجيهات متطابقة مع خلق الإنسان وطبيعته.

وهذا المنبع المتوفر بين أيدينا، والمتميز بكماله، لو استغلّيناه، لاستطعنا تكوين علم نفس إسلامي صالح لكل زمان ومكان، ولكل إنسان.

علم النفس ليس علماً محدداً، أو موضوعياً مثل العلوم الطبيعية الأخرى، فهو بطبيعته يستوعب، ويسمح بالتأثر بالأفكار، والقيم المختلفة، والأديان، والحضارات. وليس أمامنا من خيار إلا أن نثري هذا العلم بديننا، وتراثنا، وحضارتنا، أو أن نغفل بينما يصممه آخرون، وتشرب الأجيال المسلمة ما يسقيهم غيرهم. وإنه لمن المحزن حقاً أن نرى البوذيين، والملحدين، وغيرهم من غير المسلمين قد سبقونا إلى بذر أفكارهم، ومغالطاتهم في علم النفس.

من هنا غمرني الشعور بالبهجة والأمل عندما استشارني أخي وزميلي الطبيب النفسي الدكتور محمد كمال الشريف عن رأيي في تجميعه بعض المواضيع؛ التي كتبها عن وجهة النظر الإسلامية في بعض الأمور النفسية في كتاب، وتقديمه للقراء المسلمين، وزادت سعادتي بأنه شرّفني بكتابة هذا التقديم.

هذا الكتاب يُمثّل محاولةً جادة وكريمة من الدكتور محمد

كمال الشريف؛ الذي عرفته بشغفه الشديد للتعمّق في الفكر الإسلامي وعلم النفس، وقد وصل إلى مستوى متميز في كلا المجالين.

لقد قَبِل الدكتور الشريف، شأنه شأن قلّة نادرة من علماء النفس المسلمين، مسؤولية استنباط نظريات تبيّن وتفسّر السلوك البشري من القرآن الكريم والسنة النبوية العطرة، وتقدم علم النفس داخل إطار إسلامي.

وأرغب هنا أن أقترح ثلاثة أغراض يخدمها هذا الكتاب، وذلك على سبيل العد وليس الحصر:

أولاً: يعرّف هذا الكتاب قرّاءه الكرام بوجهة النظر الإسلامية في كثير من الأمور النفسية والسلوكية في عصرنا هذا، ويهديهم إلى النهج الإيماني في التعامل مع تلك الأمور.

ثانياً: تمثّل وجهة النظر الإسلامية المقدّمة في هذا الكتاب مصفاةً، إن صحّ التعبير، لعلم النفس الحديث؛ ليستفيد أبناء الأمة الإسلامية مما صلح من هذا العلم، ويتبينوا ما هو ضار ليجتنبوه.

أما ثالثاً: فإن هذا الكتاب يمثل حافزاً ومصدراً للباحثين، وطلاب العلم المسلمين ليستمروا في استكشاف، وتطوير المنظور الإسلامي للسلوك، والعمليات العقلية.

أخيراً أودُّ أن أُنوِّه إلى أهمية هذا العمل من الناحية الزمنية؛ فإن عالمنا العربي والإسلامي في وجهة نظري، يتخبّط في أزمة هوية، فلم تعد حياتنا بسيطة، وواضحة المعالم مثلما كانت في قرون مضت؛ إذ أصبح عالمنا مسرحاً تتداعى عليه أفكار، ووجهات نظر غريبة، بعضها صالح، وأغلبها مدمر. وقد وجدت هذه الأفكار أرضاً خصبة في ظل الفراغ الحضاري، والفكري السائد في مجتمعاتنا الإسلامية، وأيضاً في ظلّ الوضع الاستهلاكي السلبي (أي: المفتقر إلى الفعالية) في مجتمعاتنا، وعليه فإن هذا الكتاب خطوة إيجابية من أجل سدّ الفراغ، وترسيخ هويتنا الإسلامية.

أيها القراء الكرام! إليكم الدكتور محمد كمال الشريف وسكينة الإيمان.

الدكتور

عبد الرحيم حسين هويدي

مقدمة المؤلف

الحمد لله رب العالمين. . . والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

هذه تأملات طبيب نفسي، وقارىء لعلم النفس مسلم، في أمور تهمّ المسلم المعاصر، جمعتُ فيها بين المنظور الديني والنفسي العلمي بالقدر الذي فتح به عليّ ربي.

وأكثر هذه الفصول القصيرة نُشرت في رمضان الماضي (١٤١٥هـ) على صفحات الملحق الديني لصحيفة «الإتحاد» الصادرة في «أبو ظبي»، ثم أعدتُ كتابتها موسّعة قليلاً، وقرأتها على الأخوة المستمعين من إذاعة الإمارات العربية المتحدة من «أبو ظبي» خلال شهري أغسطس (آب) وسبتمبر (أيلول) سنة (١٩٩٥م) من خلال برنامج «أنوار الإيمان».

ومن هذه الفصول ما سبق نشره على صفحات مجلة «منار الإسلام» التي تصدرها وزارة الأوقاف بدولة الإمارات العربية المتحدة، وقليل آخر ينشر في هذا الكتاب لأول مرة.

وقد كانت نيتي أن أقوم بالتوسّع في هذه التأملات؛ بحيث تكون بمثابة دراسة وافية مشبعة في موضوعاتها، ولكنني أنشرها اليوم لعلمي أنه قد تمرُّ عدَّة سنوات قبل أن أتمكن من إنجاز التوسع الذي أرجوه فيها، وللتشجيع الذي لقيته ممن قرأها وهي مقالات على صفحات جريدة «الإتحاد»، أو مجلة «منار الإسلام»، أو استمع إليها من إذاعة «أبو ظبي».

وكان الثناء والتشجيع صادرين من أهل علم وخبرة، كالأستاذ واصف باقي، والشيخ أحمد الموسى، والشيخ حمد رقيط.. أما الأستاذ إسماعيل الفخراني مسؤول الملحق الديني بجريدة الإتحاد، فكان أول من أشار عليَّ بجمع هذه المقالات في كتاب، ثم كان بعدها بأيام أن حثّتني الأخت الكريمة، والزميلة الدكتورة إيمان محمود القماح، المختصة في علم النفس الإكلينيكي (أي: التشخيصي والعلاجي) على نشرها في كتاب، وكان رأيها أن المقالات مفيدة بوضعها الحالي وتسدُّ ثغرةً قائمة، ولابأس من توسيعها عندما يمكن ذلك.. فاستشرتُ صديقي وزميلي الدكتور عبد الرحيم حسين هويدي، فكان جوابه على الفور مؤيداً للفكرة، ومبدياً رغبته في تقديم الكتاب إلى الأخوة القراء، وذلك فضلٌ من الله عليَّ أن يتحمّس لكتاباتي رجل في خبرة الدكتور هويدي، ومعرفته الواسعة في العلوم النفسية، وبخاصة علم النفس الإكلينيكي.

فاستخرت الله سبع مرات، ووجدت انشراحاً في صدري لإصدارها في كتاب قبل توسيعها كما كنت أحبّ. ولعل في بقائها فصولاً صغيرة ما يجعل قراءتها أسهل وأمتع في عصر الانشغال والاستعجال الذي نعيش فيه، إذ يمكن للقارىء الكريم أن يقرأ فصلاً خلال بضعة دقائق، ويترك الكتاب إن شاء ليعود إلى فصل مستقل إلى حدّ ما في مناسبة أخرى؛ إلى أن يتمّ الكتاب كله.

وأحب أن أقصَّ عليكم كيف أنني أبديتُ رغبتي في الاستزادة من علم النفس والتخصص فيه إن أمكن لصديق لي، وذلك عندما كنت طالباً في كلية الطب البشري، فكانت نصيحته لي أن أبتعد عن علم النفس؛ لأنه بظنّه قد يقود إلى الكفر، لكنني بعد هذه السنين الطويلة من القراءة في علم النفس، والعمل في الطب النفسي، أقول لكم: إنني كلما ازددتُ من علم النفس المعاصر، ازددتُ إيماناً بما نزل على محمد ﷺ.

ولعلَّ فصول هذا الكتاب ـ على ما فيها من اختصار ـ تبيّن لكم مدى التناغم والانسجام بين الثابت من علم النفس المعاصر وبين الفهم السليم لنصوص القرآن والسنة.

إنها آيات الله في الأنفس تشهد بعظمة الخالق، كما تفعل

آياته في الآفاق. . . فالحمد لله الذي هدانا لهذا، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

أبو ظبي في ١٠/ جمادى الآخرة/ ١٤١٦هـ

الموافق لـ ٣/ نوفمبر (تشرين الثاني) / ١٩٩٥م.

د. محمد كمال محمود الشريف

☆ ☆ ☆

القسم الأول
أثر العقيدة في المشاعر

أ ـ القلق

ب ـ الاكتئاب

(أ) القلق

الفصل الأول: حكمة الخالق في القلق النفسي

الفصل الثاني: شفاء لما في الصدور

الفصل الثالث: حسبي الله ونعم الوكيل

الفصل الرابع: آجال مكتوبة

الفصل الخامس: نعمة الوجود

الفصل السادس: قلق الموت

الفصل السابع: فلنحيينه حياة طيبة

الفصل الثامن: قدر لا مصادفة

الفصل التاسع: مكانة عند الله لا عند الناس

الفصل العاشر: لا إحباط مع الإخلاص

الفصل الحادي عشر: لا قلق مع التوحيد الخالص

الفصل الثاني عشر: لا قلق مع الاستغفار والتوبة

الفصل الثالث عشر: لم يبق من النبوة إلاالمبشرات

الفصل الرابع عشر: أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك

الفصل الأول

حكمة الخالق في القلق النفسي

ما أكثر ما نسمع أنّ القلق النفسيّ مرض العصر! وما أكثر ما نسمع الشكوى من هذا الإحساس الكريه إلى النفوس: القلق!

ومن منّا لا يحلم بحياة لا قلق فيها، حياة تملؤها الطمأنينة، والسكينة، والسلام النفسيّ؟!

إن حياةً كهذه ستكون بالتأكيد نعمةً كبرى، ونعيماً رائعاً، تعيش النفس فيه متمتعةً بوجودٍ مريح لذيذٍ.

والقلق النفسيُّ الذي يسميه القرآن الكريم «الحَزَن» سيريحنا الله منه في الجنة.. يقول تعالى: ﴿ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ﴿٣٣﴾ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٞ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِيٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلۡمُقَامَةِ مِن فَضۡلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٞ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٞ﴾ [فاطر: ٣٣ ـ ٣٥].

وقد يثور في النفس سؤالٌ: ما الحكمة التي من أجلها خلق الله فينا القابلية للحَزَن، أي: القلق النفسيّ بمصطلح هذا

العصر؟ أَمِنْ أجل أن يجعل حياتنا في الدنيا صعبة، فنتشوق إلى الجنة حيث لا قلق، ولا معاناة نفسية؟ أم لِحكمة أخرى فيها خيرنا ونفعنا؟

وحتى نتبيّن بعض الحكمة في خلق الله للقلق النفسيّ في هذه الدنيا، لابدَّ لنا من التفكُّر في حالة مقابلة، وهي الألم الجسديّ، ذلك الشعور البغيض المزعج الذي لا نصبر عليه إلا إن عجزنا عن إزالته بأية وسيلة، والذي نتمنى دائماً ألا نعاني منه أبداً ما حيينا.

ففي حالات نادرة جداً يولد أطفال طبيعيون في كلِّ شيء، إلا أنَّهم لا يعرفون الألم الجسدي على الإطلاق، ولا يحسون به أبداً. . وللوهلة الأولى قد يغبطهم المرء وبخاصّة الذي جرَّب الآلام المُبرِّحة، وقد يظنهم في نعيم. . لكن الحقيقة غير ذلك. . فالألم الجسدي لا تستقيم الحياة من دونه، إذ الألم رسالة تصل من أجزاء جسمنا إلى الدماغ، حيث الوعي، والإدراك، واتخاذ القرار.
تصل هذه الرسالة لتقول: إنَّ هنالك خطراً ما يتهدد عضواً، أو جزءاً من الجسد.

وهي رسالة مُلحَّة يصعب تجاهلها، والتغافل عنها، وبطبيعتها المزعجة للنفس تدفع الإنسان إلى حماية نفسه، وعلاج ما أصابه من أضرار بدنية.

أمَّا الأطفال الفاقدون للألم فإنَّهم في خطر دائم، إذ قد يحترق جزء من جسمهم وهم غافلون لا يشعرون، وقد ينكسر عظم من عظامهم فلا ينتبهون له فيعالجوه. . وغير ذلك كثيرٌ مما يرينا أنَّ في الألم الجسدي نعمة، وأنَّه لولا الألم الجسدي ما تمتّع الإنسان بالصحة والعافية.

لكنَّ الألم الجسدي لا يؤدي دوره إلا بعد أن تحدث الإصابة، أما القلق النفسي وما يتضمّنه من إحساس بالخطر وتوقّع له، فيدفع الإنسان ليحتاط للأمور قبل حدوثها، إنه يلحُّ، ويحثُّ النفس على أن تعمل، وتسعى، وتبذل الجهد من أجل تأمين المستقبل، وحماية النفس من أية أخطار محتملة. . فالإنسان يفعل الكثير في حياته حتى يستشعر الأمان، مثلما يعمل حتى يتخلّص من آلامه الجسدية، ويستعيد عافيته.

فالقلق النفسي لابدَّ منه كي يستشعر الإنسان مخاطر المستقبل بما فيها المخاطر المعنويّة، والمخاطر على أولاده، والمخاطر على مصيره في الدنيا والآخرة.

ولابدَّ من القلق كي يحثّ الإنسان على العمل، وبذل الجهد، والتخطيط للمستقبل دنيا وآخرة، من أجل نفسه ومن أجل من يحب.

وإذا ما قام الإنسان بالقضاء على هذا القلق بأن يخدّر نفسه

بالخمر، أو المخدرات، ماتت لديه الهمّة، والدافعية كي يقوم بما ينفعه في المستقبل هو، ومن يحبهم في هذه الحياة. . كما كانت المبالغة في الزهد، وترك معترك الحياة، كما يفعل زهّاد الهنود الذين يُسَمَّوْن «الفقراء»، فيعتزلون الدنيا، ويعيشون في غابة يكتفون بالقليل من الطعام والكساء، وذلك لِيَتَخَلَّصوا من قلقهم النفسي.

هذه المبالغة تقضي على الإنسان كخليفة في الأرض له دور يقوم به، وهي تفقد المجتمع بعض أفراده تماماً كما تفعل المخدرات، وإن كانت المخدرات أشدَّ ضرراً، فالفقير الهندي الذي اعتزل الدنيا لا يؤذي غيره، أما مُدمن المخدرات فكثيراً ما يرتكب الجرائم كي يستطيع الاستمرار في إدمانه.

فسبحان الذي خلق الألم الجسديّ، وخلق القلق النفسيّ من أجل أن تكون حياتنا أفضل في هذه الدنيا، ولنتمكن من القيام بالدور العظيم الذي خلقنا من أجله كخلائف في الأرض.

* * *

الفصل الثاني
شفاء لما في الصدور

يقصّ الله علينا ما قاله لآدم عليه السلام عندما أخرجه من الجنة بمعصيته وأهبطه إلى الأرض فيقول جل من قائل: ﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًاۢ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾ [طه: ١٢٣ ـ ١٢٤] فبهداية رب العالمين لا يضلُّ المرء ولا يشقى، لكن إن رفض تلك الهداية صارت حياته ضنكاً، كلُّها ضلال وشقاء. وأهمُّ أشكال الضنك في معيشة المتمرد الرافض لهداية الله أنه يعيش في قلق وإحباط، ويقع فريسة الاكتئاب بسهولة، ذلك أنَّ القلق الذي خلق الله في الإنسان القابلية له كي يكون حافزاً له على العمل والتخطيط للمستقبل لحماية نفسه من أخطار الدنيا والآخرة، وحماية من يحبُّهم أيضاً، هذا القلق ومثله الاكتئاب ينشآن من إدراك الإنسان للمخاطر المحتملة، أو الخسائر الواقعة له، أي ينشأان من رؤيته للأمور وتقديراته لاحتمالات المستقبل، فإن هو أخطأ في تقديراته، أو

كان منظوره لأمور هذه الحياة منظوراً خاطئاً فَقَدْ فَقَدَ الأمان والطمأنينة، وأحسَّ بالخسران، فغمره القلق والاكتئاب، وكانت معيشته ضنكاً كلُّها معاناة، وتحوّل القلق لديه من سبب من أسباب السعادة إلى عذاب ومصدر للمعاناة؛ التي لا تثمر إلا حلولاً متخبّطة طالما أنه رافض لهداية خالقه.

فالإنسان مخلوق، والمخلوق مهما أوتي من قدرات يبقى محكوماً للذي خلقه، ويبقى خاضعاً للنظام الذي أراده الخالق سبحانه وتعالى.. وما إن يتفكَّر الإنسان في وجوده في هذه الحياة حتى يقف وجهاً لوجه أمام تحديات كبرى لا قبل له بمواجهتها والتّغلب على القلق الذي تثيره في نفسه إلا بهداية ربِّ العالمين. ولعلَّ أهمّ أنواع هذا القلق قلقٌ ينشأ عن إدراك الإنسان أنّ حياته على هذه الأرض مؤقتة لابدَّ للموت من أن ينهيها يوماً ما، وإدراكه أنّه قد خُلِق فرداً وحيداً، وسيموت فرداً وحيداً، فهو كائنٌ مستقل عن هذا الكون وعن كلٍّ من حوله، إنّه مخلوق له ذاتيته وفرديته، وبالتالي فإنَّه وحده يحمل تبعات وجوده ونتائجه، وبسبب إدراكه لضعفه ومحدوديته كبشر يغمره إحساس بالوحدة والعزلة يملأ نفسه رعباً وقلقاً، ثم هنالك إحساسه بأنّه مخلوق حرٌّ مريد، ومع بحثه الدائم عن معنى لوجوده يغدو الضلال وفَقْدُ الهداية من أكبر مصادر القلق في النفس البشرية، إذ يحار من لم تصله الهداية ويحار

من وصلته ولم يتَّبعها، يحار ماذا يفعل في هذا الوجود وهو المخلوق الحر المريد، ويحار في معنى وجوده وغايته، فيرى الحياة عَبَثاً لا طائل وراءه، وتفقد الحياة كلَّ طعم لها، وتكون المعيشة الضنْك.

وبالإضافة إلى هذه الأسباب الوجودية الكبرى للقلق الإنساني التي لا شفاء للقلق الذي تثيره إلا بالإيمان، فإنَّه هنالك مصادر كثيرة للقلق في الحياة اليومية، كالخوف من الإخفاق، والخوف من المصائب، والخوف من اتخاذ قرار خاطىء في أمر هام جدّاً، أو غير ذلك من دواعي القلق.. وللنفس البشرية أساليب وحيلٌ للتغلب على قلقها والتّهرب منه، لكن مهما كانت مهارتها في ذلك كبيرة فإنها دون الإيمان ما أكثر ما تُخفق! فتقع فريسة القلق والاكتئاب والإحباط والمعاناة النفسية.. ويتحدث عالم النفس الشهير «كارل يونغ» عن تجربته فيقول: «... وعالجت مئات كثيرة من المرضى فلم أجد مريضاً واحداً من مرضاي الذين كانوا في النصف الثاني من عمرهم، أي جاوزوا سنَّ الخامسة والثلاثين لم تكن مشكلته في أساسها إلا افتقاره إلى وجهة نظر دينية في الحياة... وإنه لم يتم شفاء أحد منهم حقيقةً إلا بعد أن استعاد نظرته الدينية في الحياة». والمؤمن يصاب بالقلق والاكتئاب والإحباط بقدر ما يغفل عنه أو يجهله من حقائق الإيمان،

ويكون في القرآن الكريم الذي يجمع تلك الحقائق الشافية كلّها، يكون شفاؤه وطمأنينته وسكينته.. قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧].

اللهمَّ اجعل القرآن الكريم ربيع قلوبنا، ونور أبصارنا، وشفاء صدورنا، وجلاء همِّنا وحُزننا وغمِّنا.

* * *

الفصل الثالث

حسبي الله ونعم الوكيل

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

ما أسعد المؤمن بنورِ الهداية، والإيمان باللطيف الخبير!

الأصل في حياة المؤمنِ أنَّها حياة طمأنينةٍ، وأمنٍ نفسيٍّ، وسكينة.

وقد يقعُ المؤمنُ في القلقِ النفسيِّ إذا غابت عنهُ بعضُ أنوارِ الإيمان غفلةً منهُ، أو جهلاً بها.

ومنِ أسباب القلقِ في حياة الإنسان عُموماً الخوفُ من الإخفاق. هذا النوعُ من القلقِ النفسيِّ يعرِفُهُ الطالب الذي يخشى الامتحان خوفاً من الرسوب فيه، ويعرفهُ كل من يقدمُ على مشروع، أو تجارةٍ، أو أيِّ عملٍ يحرص حرصاً شديداً على إنجازه بنجاح.

وحتى لا يقع المؤمنُ في مثلِ هذا القلقِ علّمنا رسولنا ﷺ أنْ نأخذ بأسباب النجاح ما استطعنا، فنخطط لما نريد القيام به، ونبذل الجهد، ونثابر، ولا نعجز فنستسلم للأحلام دون أن نعدّ للأمر عدته، ودون أن نسعى في سبيل ما نريد السعي اللازم؛ فقد سمى النبي ﷺ هذه الحالة من عدم السعي، ومن الاكتفاء بالتمني سماها «عجزاً»، ويقابلها: «الكيس» حيثُ السعي والأخذ بالأسباب بفطنة المؤمن، واجتهاده، وإتقانه.

قال النبي ﷺ لأحد أصحابه: «إنَّ الله يلومُ على العجز، ولكنْ عليكَ بالكيسِ، فإذا أحزنك أمرٌ فقل: حسبي الله ونعم الوكيل» (أخرجه أبو داود في سننه).

وأحزنك، أي: أقلقك، فخشيت الإخفاق فيه، إذ مهما احتاط الإنسان للأمر، وأعد له عدته، يبقى احتمالُ حدوث ما يُعطِّل، ويمنع النجاح قائماً.

فمهما استعدَّ الطالب لامتحانه، فإنَّه لا يضمنُ ألا يصابَ بمرضٍ مُفاجىء يمنعهُ من حُضور الامتحان والأداء فيه كما يجب.

ومهما احتاط التاجرُ فإنه لا يضمن ألا تقع كارثة طبيعية، أو تنشب حرب غير متوقعة.

إذاً دائماً هنالك ما يدعو إلى الخوف من الإخفاق،

ولا علاج لذلك إلا بالتوكل على الله؛ لذا قال النبي ﷺ: «فإذا أحزنك أمر» أي: سبّب لك القلق «فقل حسبي الله ونعم الوكيل».

وقال أيضاً: «لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصاً، وتروح بطاناً» (رواه الترمذي).

وقال ﷺ: «كان آخر قول إبراهيم ﷺ حين ألقي في النّار؛ حسبي الله ونعم الوكيل» (رواه البخاري).

وقد يأتي القلقُ نتيجةً لضعف الثقة بالنفس من حيثُ القدرة على القيام بعملٍ، أو مهمةٍ أوكلتْ إلى الإنسان.

وقدْ عالجَ النبيُّ ﷺ حالةَ قلقٍ نفسيٍّ أصابتْ أحدَ أصحابه حين خشي الإخفاق في مهمةٍ تطوّعَ للقيام بها، وتكفل للنبيِّ ﷺ بتنفيذها.

فقد ورد في سيرة ابن هشام أنهُ: بعد غزوة بدرٍ، ذَهَبَ كعبُ بن الأشرف وهو من شعراء اليهود إلى مكة يحرّضُ المشركين على قتال المسلمين، ثمَّ عادَ إلى المدينة، فشبَّبَ بنساءِ المسلمين حتى آذاهم، فقال رسولُ الله ﷺ: «من لي بابن الأشرف؟» (أي: من يقتله؟).

فقال له محمد بن مسلمةَ: أنا لك به يارسول الله! أنا أقتله.

قال: «فافعل إن قدرت على ذلك».

فرجع محمد بن مسلمة، فمكث ثلاثاً لا يأكل ولا يشربُ إلا ما يعلقُ به نفسه، فذكرَ ذلك لرسول الله ﷺ فدعاه، فقال له: «لم تركت الطعام والشراب؟».

فقال: يا رسول الله! قلتُ لكَ قولاً لا أدري هل أَفِيَنَّ لك به أم لا؟

فقال النبي ﷺ: «إنما عليك الجهد».

لقد علَّمنَا النبيُّ ﷺ أنَّ الجهد يجب أن يقدَّر، وألا يقتصر تقديرنا على النجاح والإنجاز، كما هي الحال في الحضارة الغربية المعاصرة، حيثُ لا يقدَّرُ ولا يكافىءُ إلا الناجحون والمتفوقون.

إنَّ هذه النظرة الإيمانية إلى الأمور تريح النفس البشرية من القلق الناتج عن خشية الإخفاق، إذْ لا لوم على المرء طالما أنَّهُ بذل ما بوسعه بإخلاصٍ، بل هو مأجور على جهده الذي بذله.

قال ﷺ: «إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد ثمَّ أخطأ فله أجر». (البخاري رقم ٦٩١٩).

* * *

الفصل الرابع
آجال مكتوبة

يشكّل الموتُ مصدر قلقٍ نفسيٍّ شديدٍ للإنسان. . إنَّهُ يقضُّ مضجع النفس البشرية، ويهزُّها هزّاً، فليس هنالك عاقلٌ على وجهِ الأرض يشكُّ في أنهُ سيموتُ يوماً ما.

هذا على المستوى العقليِّ، لكنْ على مستوى المشاعرِ، فإنَّ الإنسان عادة يتغافلُ عن هذه الحقيقة، ويتناساها، فيعيشُ وكأنَّهُ لن يموت، فهو في حالة إنكارِ نفسيٍّ لحقيقة أنَّهُ سيموتُ، وكأنَّ الموتَ حقٌّ، ولكنَّ حالتَهُ هو حالةٌ خاصةٌ.

والإنكارُ النفسيُّ، أو الغفلةُ أسلوبٌ من أساليب النفسِ البشرية للتخلصِ من القلق الذي تسببهُ مواجهةُ بعض الحقائق التي لا يمكنُها تغييرُها، ولا تستطيعُ لها دفعاً.

إنه دفنٌ للرؤوس في الرمالِ، إن لم يُفلح في التخلص من الأعداء، فإنَّهُ يفلحُ في إبعادهم عن الحواسِّ والوعي ريثما يقعُ القضاءُ.

ولحكمةٍ عظيمة أخفى الله عن كلِّ نفس أجلها، إذْ لو علم كلُّ إنسانٍ أجلهُ لقصر أملهُ، وداخلهُ اليأس، فالإنسانُ السويُّ

مهما بلغ من العمر يبقى لديه أملٌ في أنّ يعيش أكثر، وتراه يخطّطُ ويبذلُ الجهدَ من أجل المستقبل.

قال النبي ﷺ: «لا يزال قلب الكبير شاباً في اثنتين: في حبِّ الدنيا، وطول الأملِ» (البخاري ٦٠٥٧).

وقال أيضاً: «يكبرُ ابنُ آدم ويكبرُ معهُ اثنتان: حبُّ المالِ، وطول العمر» (البخاري ٦٠٥٨).

ولو علم كلٌّ منّا أجلهُ لتقاعس أكثرنا عن فعل الخير، ولاتَّبع أكثرُ الناس أهواءهم، مؤجلين التوبة إلى السنة الأخيرة من حياتهم، أو حتى إلى الشهر الأخير.

ومن جهة أخرى فإنَّ غيرَ المؤمن يظنُّ أنَّ الإنسانَ يموتُ بحسب المصادفات، ومعَ ظنِّه أنَّ العافية البدنية تضمنُ استمرار الحياة، فإنَّهُ يبقى في رعب وقلقٍ، إذْ قدْ يكون مصاباً بداءٍ خفيٍّ يقرِّبُهُ من الموت كلَّ يوم خطواتٍ، وقد يموتُ في حادثة غير متوقعة، فلا العافيةُ، ولا الشبابُ يضمنان البقاء، إذْ ما أكثر ما يموتُ الشبابُ، بلْ وحتى الأطفالُ!

وبهذا يحيا غيرُ المؤمنِ في قلق دائمٍ من الموت طالما أنَّهُ لم يؤمنْ أنّها آجالٌ محددةٌ من الخالق.

وقد عبر الشاعرُ العربيُّ الجاهليُّ عن اعتقاده أنَّ الموت أمرٌ عشوائيٌّ يصيبُ سيّىء الحظ، فقال:

رأيتُ المنايا خَبْطَ عشواءَ مَنْ تُصبْ
تُمِتْـهُ ومَـنْ تُخطـىءِ يُعمَـرّ فَيَهْـرَمِ

لكنّ المؤمنَ يعرفُ أَنّ الأمرَ ليسَ كذلكَ، إنّما هيَ آجالٌ يكتبُها الله والإنسانُ جنينٌ في بطن أُمِّه، ويضمنُ الله القديرُ أنْ يعيشَ كلٌّ منّا إلى أنْ يبلغَ أجَلَهُ. قال تعالى: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٤].

وقال: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الزمر: ٤٢].

إذاً هو أجل قد سمّاه الله؛ إذْ حدَّدَ لكلٍّ منا عمراً يعيشهُ، ولن تستطيع قوةٌ في الكون أن تميت إنساناً إلا إذا جاء أجَلُهُ. قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ﴾ [آل عمران: ١٤٥].

ومن أجل ذلك، وكلَ الله بكل إنسانٍ ملائكةً تحفظهُ من الموت حتى يحين أجلهُ قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴾ [الأنعام: ٦١].

وقال أيضاً: ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ ﴾ [الرعد: ١١].

وقال: ﴿ وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ﴿٢﴾ ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ ﴿٣﴾ إِن كُلُّ نَفۡسٖ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٞ ﴾

[الطارق: ١ ـ ٤].

إنَّ لمعرفة هذا كلهِ أثرهُ البالغ في بثِّ السكينة، والطمأنينة في النفس المؤمنة.. وهي خيرٌ من الإنكار النفسيِّ والتغافل، فشتّان ما بين الطمأنينة التي تأتي من الغفلة، والطمأنينة التي تأتي من إدراك أنّ كلَّ شيءٍ في هذا الكونِ بقدرٍ من الله القاهرِ فوقَ عباده، المسيطر على كلِّ شي في الوجود.

فالإنكارُ والتغافل لا يصمدان أمام الأحداث اليومية التي تذكّرنا بالموتِ، وبخاصة إذا ما وقع الموتُ قريباً منا: في صديقٍ، أو قريبٍ. عندها تكونُ المواجهةُ مع الحقيقة، ولا يُريحُنا من القلق الناتج عنها إلا الإيمانُ الصحيحُ.

* * *

الفصل الخامس

نعمة الوجود

في عصرنا هذا، وبعيداً عن هداية الله، بحثَ الفلاسفة والأدباء الوجوديون في أسباب القلق النفسي الإنساني، فوصلوا إلى أن القلقَ والمعاناة النفسية أمران ملازمان للوجود الإنساني، مجرد الوجود في هذه الحياة، إذ طالما أن الإنسان وُجِدِ فلا بُدَّ له من مواجهة القلق والمعاناة.

ولكن مع الإيمان وهداية رب العالمين، يصبح الوجود، مجرد الوجود، نعمة ما بعدها نعمة، فالذي يسّر الله له سبيل الهداية، وأعانَهُ على التقوى، وبشَّرَهُ النبيُّ ﷺ أنّ جنة الخلدِ في انتظاره، حيثُ الخلدُ، وحيثُ السلامُ النفسيُّ والمتعُ بأنواعها كافة، حيثُ أعَدَّ اللهُ للمؤمنينَ ما لا عينٌ رأتْ، ولا أُذُنٌ سمعتْ، ولا خطر على قلبِ بشر.

المؤمنُ الذي عرفَ هذا، لم يكنْ ليسَرَّهُ لو أنَّ الله لم يُخرجهُ إلى هذا الوجود، مَعَ أنّ هذا الوجود، وفي المرحلة الدنيوية فيه الكبدُ، والكدحُ، والمشقةُ، وفيه الابتلاءُ، والامتحانُ، وفيه خطورةُ الوقوع فيما يؤدي إلى العذاب في نار جهنم؛ لكنَّ

المؤمنَ الذي استعان بالله على الهداية والثبات على الحقِّ، ويتوقع أنْ يُدخلهُ الله الجنة وهو مطمئنٌ إلى أنّ الله لنْ يظلم أحداً.

هذا المؤمنُ يصبحُ وجودُهُ نعمةً كبيرةً، تهونُ أمامها أيةُ صورةٍ من صور الحرمان التي تزعجُ الآخرينَ، فالحرمانُ مؤقتٌ، وهنالك الجائزةُ العظيمةُ، فأيةُ فرحةٍ للمؤمنِ أن أتاح الله لهُ دخولَ هذا الامتحان، وأعانهُ على الهداية، ووعدهُ أنْ يهديهُ سبُلَهُ ما دامَ يجاهدُ في الله؛ كيْ تكونَ الجنةُ محطتهُ الأخيرة، ودارَ مُقامته السرمديّة.

وهذا الوجودُ الذي رآه الوجوديون المتشائمون ملازماً للقلق والمعاناةِ، هذا الوجودُ تحرصُ عليه النفسُ حرصاً ما بعدهُ حرصٌ؛ لذا كان أهمَّ أسباب القلق الإنسانيِّ: خوفُهُ على هذا الوجود، ورعبُهُ من العدم، ومن دون الإيمان بالله واليوم الآخر يصبحُ الموتُ في نظر الإنسان عودةً إلى العدم المرعب، ويعيشُ هذا الإنسان في خوفٍ دائم من الموت، ولربما أدتْ به نظرتُهُ إلى الموت على أنهُ نهايةُ الوجود إلى الحرص على استغلال كلِّ لحظةٍ من حياتِهِ في المُتَعِ الحسية، ولا يهمُّ عندها أنْ تكون المتعُ من حلالٍ أو حرامٍ، فيقعُ في الخمر، والمخدِّرات، والعلاقات المحرمة، ولا يتورعُ عن السَّرقَةِ أو غير ذلك من جرائم من أجل الحصول على المتعة؛

ليملأ بها حياتَهُ القصيرة التي يرى العدم نهايةً لها.

لكنَّ المؤمن يتمتعُ بالوجود نفسه؛ لأنَّهُ يعلمُ أنَّ الإنسان خُلِقَ ليبقى، وأنّ الله قَدْ ضَمِنَ لَهُ الخلود، ويعلمُ أنَّ الموتَ ليس عودةً إلى العدم واللاوجودِ، بل الموتُ حالةٌ من حالات الوجود، بينهُ وبين النوم شبهٌ كبيرٌ.

وقدْ سألَ الصحابةُ رسول الله ﷺ: أينامُ أهلُ الجنَّةِ؟ فقال: «لا، النومُ أخو الموتِ، وأهلُ الجنةِ لا يموتونَ ولا ينامونَ» (رواه البزار والطبراني والبيهقي بإسناد صحيح عن جابر كما قال العجلوني رحمه الله).

وكانَ ﷺ إذا استيقظَ مِنْ نومِهِ يقولُ: «الحمد لله الذي أحيانا بعدَ ما أماتنا، وإليه النشورُ» (البخاري).

ويتشابهُ الموتُ والنومُ في أمرٍ هامٍّ، وهو انعدامُ الشعور بالزمن.. فالنائمُ إذا قامَ من نومه لا يمكنُهُ أنْ يعرفَ كم أمضى من الوقت نائماً إلاّ أنْ ينظرَ في الساعة، أو أنْ يبحثَ في الطبيعة حولَهُ عما يُعينُهُ على ذلك، كأنْ يرى الشمس قدْ أشرقتْ، أو غير ذلكَ من الدلائل التي يستنتج منها في أيِّ وقتٍ هو.

وهكذا الحالُ مع الموتُ. فمهما طالتِ السِّنونُ منذُ موتِ الإنسانِ، وإلى أنْ يُبعثَ يوم القيامة، فإنّهُ لا يشعرُ بمرورها

إلا كما يُحسُّ النائمُ إذا أفاقَ.

يقول تعالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾

[طه: ١٠٢ ـ ١٠٤].

ويقول أيضاً: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٥٥ ـ ٥٦].

ويوم القيامة يجسدُ الله الموتَ كبشاً يُذبَح أمام الجميع، فإذا ماتَ الموتُ نفسُهُ بقيَ الخلودُ المضمونُ من الله تعالى.

والمؤمنُ الذي يعلمُ أنه حتى موتُهُ لنْ يكونَ إلا مثلَ ليلةٍ يُمضيها في نوم عميقٍ، ثمَّ بعدها حياةٌ لا يغيبُ فيها عن الوجود ولا حتى بالنومِ، هذا المؤمن ترتاحُ نفسهِ من الرعب من العدم، وتطمئنُّ إلى استمرار نعمة الوجود، ولها أنْ تتمتع بالسكينةِ والراحةِ التي تُثمرُها هذه المعرفةُ لحقيقةِ الخلودِ الإنساني الذي أرادهُ الله، ولها أنْ تتمتعَ بالوجودِ ذاته، وتحمد الله عليهِ، ثمَّ تجتهد فيه لتحقِّقَ درجة عالية في جنةِ الخُلْدِ.

* * *

الفصل السادس

قلق الموت

عندما يختارُ الإنسانُ سبيل الشاكرين، فيكون أولَ شكره إيمانهُ بالله تعالى، إيماناً لا يلابسهُ شركٌ، ويكون ثاني شكره إيمانه باليوم الآخر، وثالث شُكرهِ أنْ يعملَ صالحاً، فإنَّهُ لا يضلُّ ولا يشقى، وكيف يضلُّ وأنوار الإيمان تنير سبيلهُ، وتضيء قَلْبَهُ؟ وكيف يشقى وعندهُ هدايةُ الخالق العظيم؟

والذي يتوقَّعُه العقلُ أنَّ هذا العبدَ الشاكر لن يخشى الموت، ولن يكون الموتُ مصدراً للقلق النفسي لديه، وهذا صحيحٌ، وإنْ كانتِ الفطرة تجعله يكرهُ الموت؛ لأنه حُبِّبَتْ إليه الحياةُ، لكنَّهُ قَدْ تكونُ لديهِ أحياناً بعضُ الأسباب التي تجعلُهُ يخشى الموت، ويُحسُّ بالقلق بسببه.

فالبعضُ قد يتصوّرُ أنَّ الموتَ نفسه عمليةٌ مؤلمةٌ إلى أبعد الحدود؛ لذا فهو يخشى ألم الموتِ، ويصابُ بالقلق خشية مواجهة معاناةٍ يرى أنها تفوق التصوّرَ والاحتمال.

لكنَّ هذا الظنَّ يجبُ تصحيحهُ، فمع أنَّهُ للموتِ سكراتٌ، كما كان يُردِّدُ النبيُّ ﷺ قبيلَ وفاتِهِ (البخاري، الحديث

رقم٦١٤٥) فإنَّ الموتَ سيكونُ بداية العذابِ للكافرين المعاندين لهداية ربِّ العالمين، قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[الأنفال: ٥٠ـ٥١].

لكن هنالك صورةٌ مقابلةٌ لهذه الصورة، وعلى النقيض منها، صورةُ وفاة المؤمنينَ المتقينَ.. قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ۙ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢].

إنَّ هذه الآية الكريمة مطمئنةٌ إلى أبعد الحُدود لكلِّ مؤمنٍ تقيٍّ؛ أنَّ وفاتهُ ستكون طيبةً يشملها السلام والبُشرى بجنَّةِ الخلدِ، والنعيم المقيمِ.

ثمَّ إنَّ البشر جميعهم، مؤمنهمْ وكافرهمْ يخشون الموتَ؛ لأنَّهُ يخرجُهُمْ مما هُم فيه من نِعَمٍ، ومتاع، وزينةٍ، ويُفرِّقُهُمْ عن المال، والبنين، والجاهِ، وغيرِ ذلكَ مما يحبون.

أما المؤمنُ التقيُّ فيعلمُ أنَّ جَنَّةً عرضُها السمواتُ والأرضُ بانتظارهِ، وأنَّهُ له فيها أزواجٌ مطهرةٌ، ومُتَعٌ لم تخطُرْ له على بالٍ ينالُها بعدَ الموتِ جزاءً، وفضلاً، ورحمةً مِن الله تعالى.

فالمومنُ التقيُّ يجبُ ألا يخشىٰ فراقَ ما يحب في الدنيا؛ لأنَّهُ

صائرٌ إلى ما هو خيرٌ منْهُ، كما أنَّ الله سَيُلحقُ به من صلَحَ من آبائه وذريتهِ وأزواجِهِ فَلَنْ يكونَ الموتُ سبباً للخسارة، بلْ هو الرِّبحُ الكبيرُ، والفوزُ بالكثير جزاءً على عمله القليل.

وقد يخشى مؤمنٌ الموت أنْ ينزلَ به في أيَّة لحظةٍ، لأنَّهُ لا يرىٰ نفسه جاهزاً للقدوم على ربِّه، فذنوبه كثيرةٌ، وهو يخشى الله، ويخشى أن يعذِّبَهُ بها.

ولا علاجَ لهذا القلق لدىٰ المؤمن إلا بتجديد التوبة، فالتائب من الذنب كمن لا ذنب له، وإلا باجتناب الكبائر، والاطمئنان إلى أنَّ الصلوات الخمس، وغيرها من الصالحات تمحو ما يقعُ المؤمنُ فيه من الصّغائرِ واللّمم.

وهذا ليس من قبيل أمْنِ مكر الله، إنّما هو ما بشَّرتنا به آيات القرآن الكريم، أما الذي يتبعُ نفسه هواها على أمل أنْ يتوب قبل أن يموت، فإنَّه قد وقع في أمن مكْر الله، ونسي أنَّ الله قدْ يُباغته بالموت قبل أن يتوب، وأن الله إذا غضب من العبد من كثرة كبائره قدْ يحولُ بينهُ وبين قلبه، فلا يميلُ قلبُهُ إلى التوبة، ويموت دون أنْ يتوب، فيكون مستحقاً للعذاب الشديدِ.

ويبقى لدى المؤمن سببٌ آخر لخشية الموت، فالذي لهُ أطفالٌ صغارٌ قد يخشى الموت؛ لأنَّهُ يخافُ على صغاره مرارة اليُتْم، والفاقة.

وهذا المؤمنُ مَدْعوٌّ أولاً إلى أنْ يدّخر ما يمكنه ادّخاره من دخله، فلا يبسط يده كل البسط إن كان في رزقه سعةٌ، أما إنْ كان ممَّنْ قُدر عليهم رزقهم فقلَّ دخلُهُم، فيبقى لهُ التوكُّلُ على الله، والدعاءُ لأولاده، والتقوى والصلاح، ثمَّ لينم بعدها مطمئناً على أولاده، فإنَّ الله لنْ يضيِّعَهُم.

أما كلَّفَ الله الخضر ـ عليه السلامُ ـ ليقيم جداراً في قرية اللئام، وذلك حفظاً وحمايةً لكنزٍ ادخره الله تحت ذلك الجدار ليتيمين في المدينة؟! وما ذلك إلا لأنَّ أباهما كان صالحاً.

﴿ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ [الكهف: ٨٢].

* * *

الفصل السابع

فلنحيينّه حياة طيبة

إنَّ النفسَ الخاليةَ من الإيمان وأنواره، نفسٌ مظلمةٌ يُعشِّشُ فيها الخوفُ، والقلقُ، والاضطرابُ، ومنْ دونِ الإيمان بالله، والتوكل عليه تغدو النفسُ البشريةُ ألعوبةً بيد الشيطانِ، يبثُّ فيها الحَزَنَ، والقَلَقَ؛ كيْ تستجيب لدُعائه لها إلى الفحشاءِ، والمنكر.

أمّا النفسُ المؤمنةُ المتوكلةُ، فإنَّها عصيّةٌ على الشيطان، حصينةٌ في وجه وساوسه، قال تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴾

[النحل: ٩٨ ـ ١٠٠].

والخوف من الفقر سببٌ هامٌّ للقلقِ النفسيِّ، فالإنسانُ يخشى الفقر؛ لأنَّ الفقر يحرمُهُ من كثير من الأشياء التي يُحبُّها، ولأنَّ الفقر إذا اشتدَّ قد يحرمه من الأساسيات.

ثمَّ إنَّ الإنسانَ يخشى الفقر لأنَّه حتى لو لم يحرمهُ من

الأساسيات، فإنَّهُ ينزلهُ من المكانة الاجتماعية التي يحتلُّها إلى مكانةٍ دونها، فاحترامُ الناسِ وتقديرهم لهُ قدْ ينقُصُ إنْ رأوا فقره، واحتياجهُ.

وقد وجد علماء النفس أنَّ الأمن والرزق هما أهمُّ حاجتين إنسانيتين، والإنسان عادةً لا يُفكِّر بغيرهما من الحاجات كالحاجة إلى الحبِّ، والتقدير، وتحقيق الذات إلا بعدَ أنْ يحصل على الحدِّ الأدنى من الأمن والرزق.

ولقد منَّ ربُّ العالمين على قريش بما أعطاهم منهما، قال تعالى: ﴿ لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴾ [سورة قريش].

والنبي ﷺ بيَّن أنَّ العافية مع الأمن والرزق، ثلاثة أشياء هي الأساسيات للإنسان، قال ﷺ: «من أصبح منكم آمناً في سربِهِ، معافى في جسده، عنده قوتُ يومهِ، فكأنما حيزتْ له الدنيا» (رواه الترمذي، وابن ماجه).

ولقد طمأن ربُّ العالمين المؤمنين على أرزاقهم حتى لا يفقدهم الخوفُ من الفقر سكينة نفوسِهِمُ المطمئنة، فأكَّدَ لهم أنَّ الرزق كالأجل يكتب، والإنسان جنينٌ في بطن أُمِّه، فالرزقُ بيده تعالى يحددُهُ بنفسه، ولا يمكن لأحدٍ أن يحرم أحداً رزقاً قد كتبه الله له.. قال تعالى: ﴿ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا

تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴾ [الذاريات: ٢٢-٢٣].

وقد ربط المولى بين المغفرة، والفضل، والرزق.

قال تعالى: ﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٦٨].

ولارتباط المغفرة بالفضل كان الاستغفار مدعاةً للفرج، والمخرج منَ الهمِّ والضّيق، ورزق الله يأتي من حيثُ لم يحتسبِ المؤمنُ.

قال النبيُّ ﷺ: «مَنْ لَزم الاستغفار جعل الله لهُ من كلِّ ضيق مخرجاً، ومنْ كلِّ همٍّ فَرجاً، وَرزَقَه من حيثُ لا يحتسبُ» (رواه أبو داود، وابن ماجه، والبيهقي).

وللتقوى جائزةٌ مماثلةٌ. قال تعالىٰ: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾

[الطلاق: ٢ ـ ٣].

وكما تستدعي التقوى الرزق والفضل، فإنَّ الذنوب قد تستدعي الحرمان من الرزق. قال ﷺ: «لا يزيدُ في العمر إلا البرُّ، ولا يردُّ القَدَرَ إلاّ الدُّعاءُ، وإنَّ الرَّجُلَ ليُحرمُ الرِّزْقَ بخَطيئةٍ يعملُها» (ابن ماجه، حديث رقم ٩٠).

فالعملُ الصالحُ مع الإيمان خيرُ ضمانٍ لحياةٍ طيبةٍ، بكلِّ ما تعنيه الطِّيبَةُ في الحياة منْ معنىً.. إنّها الحياةُ الطيبةُ في الدنيا، ثمَّ الجزاء والمكافأة في الآخرة.. قال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٧].

إنَّهُ مع نُورِ الإيمان والطاعة لا يبقى للقلقِ خشية الفقر مكانٌ في النفسِ المؤمنةِ، وقد قال العلماء الذين فقهوا كلام الله تعالى وأقوال رسوله ﷺ، قالوا: ما افتَقَرَ تقيٌّ، إذْ كيفَ يفتقرُ والرزاقُ يرزقهُ من حيثُ لا يحتسبُ؟!

* * *

الفصل الثامن
قدر لا مصادفة

قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ١ ـ ٢].

إنَّ من الأسبابِ الهامَّةِ للقلق النفسيِّ عند الإنسانِ ظنُّهُ أنَّ المصائبَ تقع عليه بشكلٍ عشوائيٍّ، وأنَّهُ لا يحميهِ منها إلا حذرُهُ، واحتياطهُ... وهو مع ذلك يبقى قلقاً؛ لأنَّهُ مهما احتاط فإنَّهُ لا يعرف من أينَ تأتيهِ المصائبُ أحياناً. كما أنَّهُ لا غنىً للإنسان عن الكثير من الأعمالِ اليومية التي تنطوي على شيءٍ من الخطورةِ حتى لو كان قليلاً.. أمّا المؤمنُ فيحميه إيمانُهُ بقضاءِ الله وقدرِهِ من هذا النَّوعِ من القلقِ، إذْ لا يصحُّ الإيمان ما لم تكتملْ أركانه كلُّها، ومنها الإيمان بالقدر خيره وشرّه من الله تعالى. فكلُّ ما يجري في الكون، ويبدو للناظر أنَّهُ ناتجٌ عنْ فعل القوانين الطبيعية المتفاعلة مع الصُّدفة، أو عن فعل كائناتٍ لها بعضُ الحرية، وتساهم في إحداث ما يحدثُ في هذا الكونِ، إنَّ ذلك كله يجري بقدر الله تعالى؛

الذي خلَقَ القوانين الطبيعية، والذي منحَ الحرية، والإرادة، والقدرة لبعض مخلوقاته، فالله يعلمُ كلَّ شيءٍ، ويعلمُ ما يمكنُ أنْ يحدُثَ في المستقبل، وهو إمّا أن يأذن بحدوثه أو يتدخَّل فيمنع حدوثه، أو يجعل الأحداث تجري لتؤدّي إلى أمرٍ يريدهُ.

وهذا الإذنُ الذي تحدثُ ضمنهُ الأحداث، وتلك الإرادة الفاعلة التي تُسيِّر بعض الأحداث بأمرٍ مُباشَرٍ منهُ سُبحانهُ وتعالى، هذا الإذنُ وتلكَ الإرادة الفاعلة، كلاهُما وجهانِ لمشيئة الله، يجعلانِ مِنْ كلِّ حدثٍ يحدثُ في الوجود قدراً من أقدار الله، علم أنَّهُ سيحدثُ فأذنَ بحدوثه، أو أراد حدوثه بقضاءٍ منهُ، فتدخَّلَ بما يُؤدِّي إلى حدوثِهِ.

يقول تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ [القمر: ٤٩ ـ ٥٠].

إنّ الإيمان بالقضاء والقدر يقودُ إلى سكينة النفس وطُمأنينتها، بعكس الإيمان بالمصادفة، والعشوائيّة.

يُروى أنَّهُ في أحد الأيام مرَّ إبراهيم بن أَدْهَمَ على رجلٍ ينطقُ وجهُهُ بالحزنِ والهمِّ، فقال له: أيُّها الرَّجلُ! إني سائلك عن ثلاث فأجبني.

قال الرجلُ: نعم.

قال إبراهيم: أَيَجْري في هذا الكونِ شيءٌ لا يريدُهُ الله؟.

قال الرجل المهمومُ: كلا.

قال إبراهيم: أينقصُ من رِزْقكَ شيء قدَّرهُ الله؟.

قال الرجل: كلا.

قال إبراهيم: أينقص من أجلك لحظةٌ كتبها الله؟.

قال الرَّجلُ: كلا.

فقال إبراهيم: فعلام الهمُّ والحزن إذاً؟!

إنَّ الإيمانَ بالقضاء والقدرِ لا يعني إلغاء فعل القوانين الطبيعية، وفعل الإنسان الحرّ، وغير ذلك من العوامل المؤثّرة، لكنَّ الجميع يعملُ ضمنَ مشيئة الله، فالمصائبُ لا تقعُ على أحدٍ بشكلٍ عشوائيٍّ وإنْ بدتْ كذلك، إنّما هي مُقدَّرةٌ من الله تعالى.

وعلى الإنسان ألا يجلبَ المصائبَ لنفسهِ، وألا يُقصِّر في الاحتياط ضِدَّ حُدوثها ما استطاع، فاحتياطهُ منْ قَدَر الله أيضاً، ودعاؤُهُ قدرٌ من الله تعالى، يردُّ الله به قدراً آخر.

قال ﷺ: «ولا يردُّ القدر إلا الدعاءُ» (ابن ماجه حديث رقم ٩٠).

وبعد الاحتياط والدُّعاء، إنْ أصابتِ المؤمن مصيبةٌ

تَلَقّاها بالصَّبر، فهو يعلمُ أنّها إنّما وقَعَتْ بمشيئة الله، فهي قضاءٌ منهُ وقدرٌ.

قال تعالى: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ (٢٢) لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ [الحديد: ٢٢ ـ ٢٣].

والفرحُ الذي كرههُ الله في هذه الآية ليس هو السرور والبهجةُ بالنعمة، إنّما هو الاختيالُ والتكبُّر، وما يصاحبُهُ من فخرٍ، وتباهٍ، وظنٍّ أنَّ النعمة أتتْهُ بعلمِهِ وقدرتِهِ الذاتية، ناسياً أنَّ مهاراته وعلمه لن تأتيه بشيءٍ ما لم يقدِّرِ الله لهُ الظروفَ المناسبة كيْ يكون لعلمه، وفنِّه، وجهدهِ تلكَ النتائجُ والثمرات.

وقد تكونُ النعمة مصدرَ قلق نفسيٍّ للإنسان الذي يخافُ فقدها، وتحوُّلَها، إنَّهُ مسرورٌ بالنعمة، خائفٌ من أن يخسرها في المستقبل، لكنَّ الله أكَّدَ لنا أنَّ المؤمن الذي يشكُرُ الله على نعمهِ له أن يتوقَّع المزيد، لا أنْ يخشى فقدها.

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم: ٧].

فالشُّكرُ لله هو وسيلةُ المؤمنِ للتّأمين ضدَّ زوالِ النِّعم، والشُّكرُ على النعمة يكونُ بالإقرار أنّها من الله، وفضل منه، وبالامتناع عن التكبُّر، والاختيال بها على الناس، وبابتغاء الدار الآخرة بهذه النعمة، دونَ نسيانِ نصيبنا من مُتعِ الحياةِ الدنيا الحلالِ، ثُمَّ أنْ نحسن إلى الناس كما أحسن اللهَ إلينا، وأنْ نمتنعَ عن الظُّلْم والبغي في الأرض اغتراراً بنعم الله علينا، فمن فعل هذا فقد شكر.

* * *

الفصل التاسع

مكانة عند الله لا عند الناس

خلق الله الناس متفاوتين في قدراتهم البدنيّة والذّكائيّة، ومتفاوتين في فضل الله عليهم من مالٍ، أو جاه، أو فرصٍ مواتيةٍ للعلم، أو غير ذلك من عوامل مؤثّرة في وضع كلٍّ منهم في دوره في المجتمع.

والله لم يفضِّل أحداً بزيادة على الآخرين إكراماً له، ولم يضيِّق على أحدٍ إهانةً له، إنّما هي حكمته كي تتنوَّع الأدوار في المجتمع، ويقوم كلٌّ منّا بخدمة الآخرين من موقعه وفي مجاله، فتتكامل هذه الأدوار، ولا يبقى في المجتمع حاجة يترفَّع أحدٌ عن القيام بها...

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٣١ ـ ٣٢].

إذاً التفاوت مقصودٌ كي يسخِّر بعضنا بعضاً، فيخدم كلٌّ منا الآخرين، ويؤدّي كلٌّ منّا دوره في المجتمع.

لكنَّ الناس إذا غفلوا عن هداية الله اعتبروا دوراً اجتماعياً أعلى قدراً وأكرم من دور آخر، فنظروا إلى مهنٍ على أنَّها راقيةٌ وإلى أخرى على أنَّها قليلة القدر والقيمة، وبالتالي رأوا أنَّ من يؤدي بعض الأدوار أعلى قدراً وكرامةً من الآخرين، وأعطوه الحقَّ ليستعلي على الآخرين، فجعلوا للغنيّ قدراً وكرامةً أكبر مما للفقير، وجعلوا لصاحب الجاه أو السلطان كرامةً أكبر من الآخرين، واعتبروا صاحب المهنة التي تدرُّ المال الوفير أو الجاه العريض أكرم من أصحاب المهن الأخرى. . . والحقُّ غير ذلك، فبين الحين والآخر تحدث إضراباتٌ عماليةٌ في مدن كبرى حديثة، يضرب العمال في مهنةٍ معينةٍ ليذكِّروا المجتمع أنَّ دورهم هامٌّ، وعليه أن ينصفهم في أجورهم، فعندما يضرب عمال النظافة في مدينة كبرى مثل لندن أو باريس، يتذكَّر الناس قيمة عامل النظافة وقدره، إذ تغرق مدينتهم الجميلة في قاذوراتها. . . فتزاد أجور العاملين.

ولكن دون الإيمان يبقى التعالي في النفوس، فيرى الطبيب، أو المهندس، أو المدير نفسه فوق عامل النظافة. . . إنَّ هذا الواقع الذي تعيشه أغلب المجتمعات يجعل الإنسان يسعى دائماً إلى رفع مكانته في المجتمع من خلال مهنته، وثرائه، وسلطته، أو غير ذلك، فترى الذي لم يحصل على ما يعتبر نفسه أهلاً له وحقاً له من المكانة يسيطر عليه الإحباط،

والشعور بالسخط، والتَّذمُّر، والحرمان. . .

أما الذين وصلوا إلى مكانة في المجتمع ترضيهم، فإنَّهم يعانون من القلق؛ لأنَّهم يخشون أيَّة مصيبةٍ في الصحة، أو المال، أو المنصب تنزلهم من رتبة إلى رتبةٍ دونها، ولا يطمئنُّ أحدٌ إلى دوام نعمة الله عليه إلا الشاكرون.

إنّ الإيمان يريحنا من هذا القلق الناجم عن خشية فقد المكانة في المجتمع؛ لأنَّه يقرِّر أنَّ كرامة الإنسان ومكانته لا علاقة لهما بغناه أو فقره، ولا علاقة لهما بمنصبه، أو مهنته، ولا بنوع سيارته، وفخامة منزله، إنّما الأمر كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

فالمؤمن، ومن البداية لا يجعل المكانة في المجتمع غايته وهدفه؛ لأنَّ السَّعي وراء المكانة والإحساس أنَّه فوق الآخرين هو نوعٌ من العلوِّ في الأرض الذي قال تعالى عنه: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣].

المؤمن لا يدخل السباق على المكانة مع الآخرين، فالناس في هذه الحياة يشبهون ركباً في سفرٍ، فالذين يتنافسون على المكانات يجعلون سفرهم سباقاً بينهم، فيضيفون تعباً إلى تعبهم، أما المؤمن فإنَّه لا يدخل هذا السباق، إنّما يسير في

طريقٍ يسابق الزَّمن، ولا يسابق الناس، إنَّه يريد مكانةً عند الله لا عند الناس.

قال النبي ﷺ: «إنَّ من عباد الله من لو أقسم على الله لأبرَّه» (البخاري ٢٦٥١).

وقال أيضاً: «ألا أخبركم بأهل الجنَّة؟! كلّ ضعيف متضعِّف لو أقسم على الله لأبرَّه، ألا أخبركم بأهل النار: كلُّ عتلٍّ جوّاظٍ متكبِّرٍ» (البخاري ٥٧٢٣ والترمذي ٢٧٣٢).

إنَّ المؤمن الذي يسعى إلى المكانة عند الله يكون في راحةٍ من مشقَّة السِّباق القائم بين الناس، مع أنَّه لا يقف في مكانه؛ إذ السَّعي وراء المكانة عند الله لا يجلب القلق، أو الإحباط إلى النَّفس، إنَّما يملؤها سكينةً، وطمأنينةً، ورضاً.

* * *

الفصل العاشر

لا إحباط مع الإخلاص

عندما يتعرّض الإنسان لما يعوقه، ويصدّه، ويحول بينه وبين تحقيق أهدافه، أو إشباع الدوافع النفسية؛ التي فطره الله عليها، فإنه يكون معرّضاً للشعور بالإحباط النفسي frustration الناجم عن هذه الإعاقة والصدّ.

وكثير من علماء النفس يرون الإحباط سبباً هاماً من أسباب اضطراب النفس، وقلقها، وفقدانها لسكينتها واطمئنانها.

والإنسان الغربيّ يعاني من الإحباط النفسي بسبب عجزه عن تحقيق ذاته في حضارة تدفع الإنسان فيها إلى السعي إلى العلو، والظهور، والتفوّق.

لكن الإسلام أراح المسلم من الإحباط عندما جعله يتعلّق بثواب الله، ويسعى في كل صغيرة وكبيرة إلى رضا الله لا إلى إعجاب الناس به، أو إلى الظهور بينهم، واعتلاء مكانة في المجتمع.

إنما يسعى المؤمن إلى مكانة حميدة عند الله تعالى، والسعي

إلى ثـواب الله والمكـانـة عنـده لا يمكـن أن يتعـرض إلى الإحباط. . . فالوسائل إلى بلوغ تلك المكانة عديدة، ولا تعتمد دائماً عى الصحة، أو المال، أو غير ذلك.

فالمؤمن الذي يصلي، إن مرض صلّى قاعداً، وإن عجز عن القعود صلّى على جنبه. . . والمؤمن الغني يؤدي الشكر لله لترتفع مكانته عنده، أما المؤمن الفقير فإنه يبلغ المكانة ذاتها بصبره، ورضاه عن الله.

وقد جعل الله كلّ عمل نعمله من شؤون دنيانا عبادة شريطة أن تخلص نوايانا من أيّة رغبة في العلو في الأرض، أو الفساد فيها.

قال تعالى: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [سورة القصص: ٨٣].

فالذي لا يريد العلو في الأرض، ولا الفساد فيها، وهو مؤمن بالله واليوم الآخر تصفو نيته، وتخلص لله في كلّ شيء، ويكون عمله عبادةً، وسعيه من أجل الرزق الحلال عبادة، والمال الذي ينفقه على زوجته وأطفاله صدقة عظيمة الأجر.

ولنتأمل ما رواه أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ إذ قال: قال رسول الله ﷺ: «دينار أنفقته في سبيل الله، ودينار أنفقته في

رقبة، ودينار تصدقت به على مسكين، ودينار أنفقته على أهلك، أعظمها أجراً الذي أنفقته على أهلك» (رواه مسلم).

إذاً الرجل المؤمن المخلص لله، الذي يعمل، وينفق على زوجته وأطفاله أجره أعظم ممن يتصدق، أو يعتق الرقاب، أو حتى ينفق في سبيل الله، وذلك ما بقي إنفاقه على عياله فيما أحلّ الله، ودون إسراف، أو تبذير، أو تباهٍ، وتفاخر.

وقد سألتْ أمُّ سلمة ـ رضي الله عنها ـ رسول الله ﷺ عن نفقتها على أولادها الذين مات أبوهم، وليست بتاركتهم على أيّ حال، هل لها فيها أجر؟ فقال لها ﷺ: «نعم، لك أجر ما أنفقت عليهم» (متفق عليه).

وقال ﷺ: «وإنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أجرت بها حتى ما تجعل في في امرأتك» (متفق عليه).

وقال أيضاً: «إذا أنفق الرجل على أهله نفقة يحتسبها فهي له صدقة» (متفق عليه).

وبالإخلاص أيضاً يصير عمل المرأة في بيتها، وتربيتها لأطفالها عبادة كالجهاد في سبيل الله، لأنَّ النبيَّ ﷺ أجاب المرأة؛ التي شكت إليه أن الرجال يجاهدون في سبيل الله، وينالون الأجر العظيم على ذلك، بينما على النساء البقاء،

ورعاية الأطفال، أجابها قائلاً: «حسن تبعُّل إحداكن يعدل ذلك» (أو كما قال ﷺ).

وحتى الشهوة إن أتاها المؤمن بالحلال مجتنباً الحرام، كان له فيها أجر تقواه التي تجلّت خلال إتيانه لها، فعن أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ أنّ ناساً من أصحاب رسول الله ﷺ قالوا للنبي ﷺ: يا رسول الله! ذهب أهل الدّثور بالأجور، يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون بفضول أموالهم.

قال: «أو ليس قد جعل الله لكم ما تصَّدَّقون؛ إنّ لكم بكل تسبيحة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وكل تحميدة صدقة، وكل تهليلة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهي عن منكر صدقة، وفي بضع أحدكم صدقة».

قالوا: يا رسول الله! أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟

قال: «أرأيتم لو وضعها في حرام، أكان عليه وزر؟! فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر» (رواه مسلم).

وحتى الأكل والشرب يكون للمؤمن فيهما أجر، ويرفعان مكانته عند الله.

قال النبي ﷺ: «إنّ الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة

فيحمده عليها، أو يشرب الشُّربة فيحمده عليها» (رواه مسلم).

وحتى إن كفّ الإنسان شره عن الناس يكون له بذلك أجر، قال أبو ذر ـ رضي الله عنه ـ قلت: يا رسول الله! أي الأعمال أفضل؟.

قال: «الإيمان بالله والجهاد في سبيله».

قلت: أيّ الرقاب أفضل؟.

قال: «أنفسها عند أهلها، وأكثرها ثمناً».

قلت: فإن لم أفعل؟

قال: «تعين صانعاً، أو تصنع لأخرق».

قلت: يا رسول الله! أرأيت إن ضعفت عن بعض العمل؟

قال: «تكفُّ شرَّك عن الناس؛ فإنَّها صدقةٌ منك على نفسك» (متفق عليه).

وحتّى العاهات الشديدة كالعمى، والشلل لا تحبط المؤمن، ولا تعوقه عن بلوغ مكانة عند الله تعالى.

قال النبي ﷺ عمّن يبتليه الله بحبيبتيه، أي: بعينيه فيصيبه بالعمى: «إن الله عز وجل قال: إذا ابتليت عبدي بحبيبتيه عوّضته منهما الجنة» (رواه البخاري) وهذا لمن صبر، أما من

سخط فله السخط والغضب من الله فوق مصيبته .

فالمكانة عند الله مستقلة عن القوة البدنية، أو الغنى، أو الجاه، وأي فقر أو حرمان من الصحة، أو المال، أو الجاه، أو غير ذلك لن يمنع المؤمن من بلوغ المنزلة الكريمة عند رب العالمين؟!

قال النبي ﷺ: «إنّ من عباد الله من لو أقسم على الله لأبرَّه» (رواه البخاري).

وقال أيضاً: «ألا أخبركم بأهل الجنة: كلّ ضعيف متضعِّفٍ لو أقسم على الله لأبره، ألا أخبركم بأهل النار: كلُّ عتلٍّ جوَّاظٍ متكبر» (رواه البخاري والترمذي).

ومما ورد عنه ﷺ قوله: «رُبَّ أشعث أغبر لو أقسم على الله لأبرَّه».

* * *

الفصل الحادي عشر

لا قلق مع التوحيد الخالص

إنَّ للقلق الإنساني أسباباً متنوِّعةً، ومن هذه الأسباب اعتقاد المرء أنَّ أحداً من النَّاس يملك له نفعاً أو ضرّاً.

فإنّك إن ظننت أنَّ إنساناً ما بيده أن ينفعك، أو أن يضرَّك بغضِّ النَّظر عن إرادة الله، فإنَّك عندها تصبح فريسة القلق النفسيِّ؛ لأنَّ ابن آدم متقلِّب بطبعه، وأنت لا تعرف متى ينقم عليك فيحرمك النَّفع الذي يأتيك عن طريقه، أو يوقع بك الضُّرَّ الذي تخشاه.

لكنَّ الإسلام بعقيدة التوحيد الخالص يعلِّمنا أنَّ الله هو النّافع، وأنَّ الله هو الضّارُّ، وأنَّ الناس لن ينفعونا إلا بشيءٍ قد كتبه الله لنا، ولن يضرُّونا إلا بشيءٍ قد كتبه الله علينا.

وهذا اعتقادٌ أساسٌ لصحّة عقيدة المسلم؛ إذ الظنُّ أنَّ أحداً من النّاس يملك لنا نفعاً أو ضرّاً هو نوعٌ من الشِّرك الخفيّ، الذي يفقد النَّفس أمنها، واطمئنانها، وسكينتها.

قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ

﴿ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

وقال أيضاً: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

وقال ابن عباسٍ ـ رضي الله عنهما ـ: كنت خلف النبيِّ ﷺ يوماً فقال: «يا غلام! إني أعلِّمك كلماتٍ: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك. إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أنَّ الأمَّة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيءٍ لم ينفعوك إلا بشيءٍ قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيءٍ قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفَّت الصُّحف» (الترمذي: ٢٥١٦، وقال: حسن صحيح).

لذا فإن تعرَّض المؤمن لتهديدٍ من النّاس فإنّه يأخذ حذره، ويعدُّ عدَّته لحماية نفسه، وهو في الوقت نفسه متوكِّلٌ على الله الذي قال في كتابه الكريم: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٣].

وعندما وصلت الأنباء إلى المسلمين بعد مصيبتهم في أحدٍ أنَّ المشركين قد جمعوا لهم، قالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل... ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٧٣ ـ ١٧٤].

أمّا الخير فيطلبه المؤمن من الله وليس من العباد، فما هم إلا وسائل يقدّر الله الخير من خلالها. ﴿فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ١٧] ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦].

ثمّ إنّنا لو حلّلنا القلق النفسيَّ إلى المشاعر المكوّنة له، لوجدناه يتضمَّن الخوف من أن يأتي المستقبل بما لا يسرُّ مع الإحساس بالعجز، وانعدام الحيلة تجاه ذلك.

فلو خاف الإنسان من وقوع أمرٍ لا يحبُّه، لكنَّه أحسَّ بالثقة أنَّه يستطيع أن يفعل شيئاً ليمنع وقوعه، وليتلافاه، فإنَّه لن يشعر بالقلق، ذلك أنَّ الإحساس بالعجز تجاه الخطر المتوقَّع، والإحساس أنَّه ليس باليد حيلةٌ هو السَّبب الرئيس وراء القلق.

لكنَّ المؤمن يجب ألا يشعر بالعجز أبداً، فهو بعد أن يبذل وسعه وما يقدر عليه، ويتوكَّل على الله، يبقى لديه الدُّعاء، والدُّعاء ليس وسيلة الضعيف العاجز، بل هو سببٌ من الأسباب يجب أن نبدأ به، ونضيفه إلى كلِّ جهدٍ نبذله.

ومع التّوكُّل والدُّعاء يجب على المؤمن أيضاً ألا يحرص على

شيءٍ بعينه حرصاً شديداً، فيتصوَّر عدم الحصول عليه خسارةً ما بعدها خسارةٌ، فلعلَّ فيه الشَّرّ له وهو لا يعلم.

قال تعالى: ﴿... وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

* * *

الفصل الثاني عشر
لا قلق مع الاستغفار والتوبة

قال تعالى عن المتّقين: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

وقد بيّنت الدراسات النفسية الحديثة: أنَّ الشعور بالذنب سببٌ هامٌ من أسباب القلق والاكتئاب النفسيين. فالذي يشعر بالذنب لأنّه أساء إلى إنسان ما دون حقّ، ويشعر أنّه قد ظلمه، واعتدى عليه، وأنّ ذلك يسخط الله منه، هذا المذنب معرَّضٌ لمشاعر القلق النفسيِّ والاكتئاب.

والقلق يأتي في هذه الحالة من نواحٍ مختلفةٍ، لعلَّ أهمَّها أنّنا نحسُّ في أعماقنا أنّه «كما تدين تدان»، وأنَّ الله قد يعاقبنا على إساءاتنا إلى غيرنا، وينتقم لهم منّا، وبذلك يكون المسيء إلى غيره مهدَّداً بانتقام الله منه، فيصبح قلقاً لا يدري هل سيكون انتقام الله في نفسه، أم في ماله، أم في عياله.

أما الذي يذنب في حقِّ الله، ويرتكب المعاصي، فيكون في أعماقه خوفٌ من أن يأتيه الموت قبل أن يتوب إلى الله.

وقد يموت لأحدنا عزيزٌ، فيشعر أنَّه قصَّر في حقِّه، ويظنُّ أنّه لو أعان في علاجه لما مات، فيعتبر نفسه مذنباً، ومسؤولاً بشكلٍ من الأشكال عن موت هذا العزيز... ويخشى العقوبة من الله فتمتلىء نفسه بالقلق. وقد ينتج الشعور بالذنب عن فعلٍ قام به لا يعرف هل هو حرامٌ أم حلالٌ، وتشتبه الأمور عليه، إلى غير ذلك من أسباب الشعور بالذنب...

والشعور بالذنب، ولوم النفس المرافق له مظهران لقدرة النفس البشرية على إدراك أخطائها، ومحاسبة ذاتها، وهذا جعله الله فيها ليكون لها حافزاً على التوبة، وإصلاح ما أفسدت، وتعويض الآخرين عن إساءتها إليهم...

ولوم النَّفس يدلُّ على الخير في هذه النفس التي تعترف بخطيئتها، وتحاسب ذاتها، أمّا النفس الظالمة المكابرة المتَّبعة لهواها، فقلّما تلوم نفسها، إنّما هي دائماً تتعامى عن أخطائها، وعيوبها، وتضع اللَّوم على الآخرين، وتحمِّلهم مسؤولية ما أصابها وأصابهم على يدها... فعندما عصى آدم ربَّه قال: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [القصص: ١٦].

وعندما عصى إبليس ربَّه اتَّهم الله أنَّه أغواه، ورفض أن يرى خطيئته، وأنكر مسؤوليته عمّا فعل، فقال: ﴿رَبِّ بِمَآ

أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر: ٣٩ ـ ٤٠].

وقال: ﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٦ ـ ١٧].

ولأنَّ النَّفس اللوامة تصدر عن موقف إيمانيٍّ لا يبطر الحقَّ، ولا يغمط النّاس، ولا يستعلي على ربِّ العالمين، موقف من طبعه الإقرار بالحقِّ لا الكذب على النفس وعلى الغير؛ لأنَّ النفس اللوامة تصدر عن مثل هذا الموقف، فقد أظهر المولى تقديره لها عندما أقسم بها فقال: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿١﴾ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة: ١ ـ ٢].

لكنَّ لوم النَّفس إذا كان لا يتناسب مع الموقف الذي أدّى إليه، أو إذا رافقه نوعٌ من اليأس من مغفرة الله تحوَّل إلى مرض نفسيٍّ يشلُّ الإنسان، ويثبِّطه، ويصبغ حياته بالكآبة والحزن.

وهذا ما لا يريده الله لنا على الرغم من أنَّه أقسم بالنَّفس اللوّامة تقديراً لها؛ لذا جعل الله التّائب من الذَّنب كمن لا ذنب له، وفتح باب المغفرة والتَّوبة للعبد حتى يغرغر عند وفاته.

قال النبيُّ ﷺ: «يقول الله تعالى: يا بن آدم! إنَّك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي.

يا بن آدم! لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثمَّ استغفرتني غفرت لك.

يا بن آدم! إنَّك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثمَّ لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرةً» (حسن صحيح رواه الترمذي).

وقال ﷺ: «والذي نفسي بيده! لو لم تذنبوا لذهب الله تعالى بكم ولجاء بقومٍ يذنبون، فيستغفرون الله تعالى، فيغفر لهم» (رواه مسلم).

أما ربّ العالمين فيقول: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

وكلُّنا يعلم أنَّ من حجَّ فلم يرفث، ولم يفسق رجع بلا خطايا كيوم ولدته أمُّه، وأنَّ من صام رمضان إيماناً واحتساباً، غفر له ما تقدَّم من ذنبه.

أبواب كثيرةٌ مفتوحةٌ للمؤمن كي يتطهَّر من ذنوبه، وتغمر أنوار الإيمان قلبه تبثُّ فيه السكينة، والطمأنينة.

* * *

الفصل الثالث عشر

لم يبق من النبوة إلا المبشرات

على الرَّغم من كلِّ جوانب القوَّة في الكائن البشريِّ، إلا أنَّ جهله بالغيب يشكِّل واحداً من أهمِّ عناصر ضعفه. . . ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

وجهل الإنسان بالغيب، وخشيته من أن يأتي المستقبل المغيَّب بما يسوءه، جعلاه يتعلَّق بأيِّ شيءٍ قد يكون فيه كشفٌ لبعض حجب الغيب والمستقبل، من أجل أن يخفِّف قلقه ومخاوفه.

لذا عقد البشر الكثير من الآمال على الأحلام والمنامات. ذلك أنَّ بعض الرؤى كان فيها بالتأكيد إشارةٌ إلى أمورٍ وقعت بعدها بزمانٍ، طال أحياناً أو قصر.

لكنَّ الغالبية العظمى من أحلام البشر؛ التي لا تعدُّ ولا تحصى لا يتحقق منها شيءٌ، ومع ذلك قد يرى أحدنا

مناماً تقع فيه أحداثٌ خطيرة لو صدَّقها الواقع لكانت مصائب عظمى.

وقد تكون مثل هذه الأحلام المخيفة مصدر قلق نفسيٍّ شديد للإنسان؛ الذي يخشى أن تصدق هذه الأحلام، وأن يقع في الواقع ما رآه فيها.

وعلماء النفس الغربيون الذين يرفضون الإيمان بالغيب، يصرُّون على أنَّ أحلام الإنسان كلّها تخيّلاتٍ، تحدث أثناء النَّوم، تعكس مخاوفه وأمانيه.

فإنَّه قد يرى بعضاً مما يخاف حدوثه، يقع في المنام، أو أنَّه يحصل في أحلامه على ما يشتهيه، ولكنَّه عاجزٌ عن أن يحصل عليه في الواقع.

أمّا الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ فقد فهموا أنَّ أحلام الإنسان ثلاثة أقسامٍ:

الأول: ويمثّل غالبية الأحلام، وهو عبارة عن حديث نفسٍ كالتفكير، والتَّخيُّل المتواصل الذي يشغل فكر الإنسان عندما يكون خالياً عما يشغله، إلا أنَّ حديث النفس هذا يقع أثناء النَّوم، فيختلط الأمر على الإنسان، ويحسب الخيال حقيقةً واقعةً. وهذا القسم هو الذي يتحدَّث عنه علماء النَّفس.

أما القسم الثاني: فتخويفٌ من الشيطان، وهي الأحلام المخيفة المزعجة.

والقسم الثالث: الرؤى الصالحة التي تحمل البشارة من الله لهذا الإنسان بخيرٍ قادم إليه.

روى البخاري في صحيحه أنَّ أبا هريرة قال: وكان يقال: الرُّؤيا ثلاثٌ: حديث النَّفس، وتخويف الشَّيطان، وبشرى من الله، فمن رأى شيئاً يكرهه فلا يقصُّه على أحدٍ وليقم فليصلِّ. (الحديث ٦٦١٤).

إذاً فإنَّ الأحلام المخوِّفة المحزنة إنّما هي من الشَّيطان لا تدلُّ على المستقبل، بعكس المبشِّرات، وهي الرُّؤى الواضحة السّارّة فإنها تدلُّ على المستقبل، وتبشِّر بالخير.

قال النبيُّ ﷺ: «الرُّؤيا الحسنة من الرَّجل الصَّالح جزءٌ من ستَّةٍ وأربعين جزءاً من النُّبوَّة» (البخاري ٦٥٨٢).

وقال أيضاً: «لم يبق من النُّبوَّة إلا المبشرات».

قالوا: وما المبشِّرات؟

قال: «الرُّؤيا الصالحة» (البخاري ٦٥٨٩).

وقالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: أوَّل ما بدىء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة في النَّوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصُّبح... (البخاري ٦٥٨١).

وقال النبيُّ ﷺ: «إذا رأى أحدكم رؤيا يحبُّها فإنَّما هي من الله، فليحمد الله عليها، وليحدّث بها، وإذا رأى غير ذلك ممّا يكره فإنَّما هي من الشَّيطان، فليستعذ من شرِّها ولا يذكرها لأحدٍ فإنّها لا تضرُّه» (البخاري ٦٥٨٤).

وقال ﷺ: «الرُّؤيا الصالحة من الله، والحلم من الشَّيطان، فإذا حلم فليتعوَّذ منه، وليبصق عن شماله فإنَّها لا تضرُّه» (البخاري ٦٥٨٥).

إنَّ معرفة أنَّ الأحلام المزعجة من الشيطان وأنها لا تضرُّ؛ لمّا يريح النفس المؤمنة من أيِّ قلقٍ يمكن لهذه الأحلام أن تتسبَّب فيه.

والملاحظ أنَّ القلق النفسيّ والاكتئاب النفسيّ يهيئان لمثل هذه الأحلام المزعجة، فالقلق كثيراً ما يرى نفسه أو أحداً ممَّن يحبُّ في خطر في أحلامه، أمّا المكتئب فإنَّ موضوع الموت يتكرَّر في أحلامه، كأن يرى جنازةً، أو عزيزاً يموت، أو أن يرى من مات من أهله يأتيه في أحلامه بشكل متكرِّر.

فالقلق والاكتئاب يمكنان الشيطان من إثارة مثل هذه الأحلام؛ التي لا دلالة لها على المستقبل أبداً.

* * *

الفصل الرابع عشر

أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك

إنَّ القلق النفسيَّ متعلّقٌ دائماً بالمستقبل، فالإنسان لا يقلق على ما فات، بل قد يحزن ويكتئب... إنَّما قلقه يكون دائماً على ما سيأتي.

وكثيراً ما يعتزم الإنسان فعل أمرٍ هامٍّ، ويكون أمامه الخيار أن يفعله أو ألا يفعله، أو يكون أمامه الخيار أن يفعل أحد أمرين، أو واحداً من أمور كثيرةٍ، في كلِّ أمرٍ منها إيجابياتٌ وسلبيات، فإن فعل أحدها فاته ما في الآخر من خير، أو إن فعل أمراً معيناً تحققت له المنفعة، وبالمقابل تعرَّض لخسارة شيءٍ يحبُّه، عندها يحتار أيَّ الأمرين يختار، فهو يخاف أن يختار لنفسه الشيء الذي لا خير فيه، وأن يفوّت باختياره هذا على نفسه خيراً كثيراً، فيقع في صراع نفسيٍّ وحيرةٍ، يسميه علماء النفس: صراع الإقدام والإحجام، أي: الإقدام على فعلٍ معيّنٍ أو الإحجام عنه، وهذا الصراع النفسيُّ يولِّد في نفس الإنسان قلقاً نفسيّاً، يشتدُّ كلَّما اشتد الصراع، وتعاظمت الحيرة.

وهذا القلق من النَّوع المزعج للنَّفس، يجعل الإنسان في همٍّ دائمٍ وفكرٍ مستمرٍّ، ويحرمه النَّوم والاستقرار.

وحتى لا نقع في مثل هذا القلق النفسيِّ، أو حتى نعالجه إن وقعنا فيه علَّمنا رسولنا ﷺ أن نستخير الله في أمورنا، أي: أن نسأله الخير فيها، وأن يختار لنا ما فيه خيرنا دنيا وآخرة، وتتمُّ استخارة ربِّ العالمين بأن نصلي ركعتين لله تعالى، وبعد الانتهاء منهما والتسليم ندعو بدعاء الاستخارة.

وقد شجَّعنا النبي ﷺ على أن نكرر هذه الاستخارة سبع مراتٍ، وقد لا يستغرق ذلك أكثر من نصف ساعةٍ من الصلاة والدعاء، ثمَّ ننظر إلى إحساسنا القلبيّ بخصوص ما كنّا نهمُّ أن نفعله، فإما أن نرتاح إلى همِّنا هذا، وينشرح صدرنا لفعله، فنعزم عليه، ونتوكل على الله، أو أن نفقد حماستنا له، وتقلَّ رغبتنا فيه، أو حتى نشعر بالنُّفور من فعله... وليس جواب الاستخارة رؤيةً أو مناماً، إنَّما هو هذا الإحساس القلبيُّ الذي يأتي بعدها...

قال النبيُّ ﷺ: «إذا هممت بأمرٍ فاستخر ربَّك فيه سبع مراتٍ، ثمَّ انظر إلى الذي يسبق إلى قلبك فإنَّ الخير فيه» (رواه الترمذي، وابن ماجه، والحاكم).

أما عن دعاء الاستخارة فقد قال ﷺ: «إذا همَّ أحدكم

بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة ثمَّ ليقل: اللهمَّ إني أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم، فإنَّك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علاَّم الغيوب. اللهمَّ فإن كنت تعلم هذا الأمر (وتسمّيه باسمه) خيراً لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري، فاقدره ويسِّره لي، ثمَّ بارك لي فيه، اللهمَّ وإن كنت تعلمه شرّاً لي في ديني، ومعاشي، وعاقبة أمري فاصرفني عنه، واصرفه عنّي، واقدر لي الخير حيث كان، ثمَّ رضِّني به، ولا حول ولا قوَّة إلا بالله» (رواه أحمد والبخاري وأبو داود والترمذي).

إنَّ هذا القلق النفسيَّ المتولِّد عن صراع الإقدام، أو الإحجام عن فعلٍ يبدو للإنسان في فعله فوائد ومضارّ، وفي تركه فوائد ومضارّ، ويعجز الإنسان عن ترجيح إحدى الكفَّتين؛ لأنَّه يجهل الغيب كما هو حال البشر جميعاً.

هذا القلق المزعج، كثيراً ما يكون صعب العلاج بالطُّرق العلاجية المعروفة في الطبِّ النفسيّ، فحرص الإنسان على الخير وخوفه من اتخاذ قرارٍ خاطىءٍ يتسبَّب في ضرره أو حرمانه من الخير.

هذا الحرص وهذا الخوف أمران طبيعيان تماماً، والجهل بالغيب شيءٌ لا يستطيع المعالج النفسيُّ أن يتغلب عليه؛ لذا كان من الخطأ أن يقوم المعالج بترجيح إحدى الكفَّتين،

وبتوجيه الإنسان القلق إلى قرارٍ معين قد يتبين خطؤه فيما بعد، فيكون المعالج مستحقّاً للّوم.

كما أنَّ قيام المعالج بالاختيار نيابةً عن المريض يتنافى مع هدف العلاج النَّفسيِّ الأكبر، وهو مساعدة المريض على مزيدٍ من النُّضج، وتحمُّل المسؤولية. لذا لم يكن هنالك خيرٌ من إحالة الإنسان القلق إلى علاّم الغيوب يستخيره، ويلتمس الهداية والتَّسديد لديه، فيستنير بنور الإيمان حتى في أمور دنياه.

* * *

(ب) الاكتئاب

الفصل الأول: فراق لا انتهاء.

الفصل الثاني: إن الإنسان خلق

هلوعاً. . . . إلا المصلين.

الفصل الثالث: وبشّر الصابرين.

الفصل الأول

فراق لا انتهاء

عندما يخشى الإنسان أن يفقد شيئاً مهمّاً فإنَّه يحسُّ بالقلق النفسيِّ، أما إن فقده، ويئس من استرجاعه، فإنَّه معرَّضٌ لأن يعاني من الاكتئاب النفسي، حيث تسودُّ الدنيا في عينيه، ويغلبه التشاؤم، وتهبط معنوياته، ويغمره الحزن، ويفقد الرغبة في متع الحياة من طعامٍ، أو شراب، أو تسليةٍ، أو غير ذلك من المتع؛ التي أحلَّها الله للإنسان.

وقد يسيطر عليه التفكير في الموت فيتمنّاه، ويراه خيراً من حياةٍ خاليةٍ من السعادة، وربما فكر في الانتحار تفكيراً جدياً، وقد يقتل نفسه بيده.

وتضعف ثقة المكتئب بنفسه فيصير متردداً، لا يجرؤ على اتخاذ القرارات خشية أن يقع في الخطأ، ويغمره إحساسٌ بالذنب، ولومٌ لنفسه لا تستحقه، ويبكي لأبسط الأمور، وتضعف قواه البدنية، كما يضعف تركيزه الذهنيُّ، وذاكرته، ويصبح نومه قليلاً مضطرباً.. إنَّه باختصارٍ إنسانٌ بائسٌ، حزينٌ يائسٌ.

ومن بديع صنع الله تعالى: أن الإنسان يحسُّ بالسرور أو الحزن نتيجة تفاعلات كيميائيةٍ، ونشاطات كهربيةٍ، وغير ذلك مما يقع من أحداثٍ فيزيولوجية في دماغه.

صحيحٌ أنَّ أحداث الحياة وما تدعو إليه من سرورٍ أو حزنٍ هي التي تثير تلك النشاطات في دماغ الإنسان لتجعله يحسُّ بالمشاعر المفرحة أو المحزنة، لكنَّه في بعض الحالات يمكن للإنسان أن يعاني من مشاعر الحزن، واليأس، وجميع أعراض الاكتئاب النفسيِّ دون أن يكون في حياته ما يدعو إلى ذلك، ودون أن يخسر غالياً لا مادياً ولا معنوياً، إنما يكون اكتئابه مرضاً مثل باقي الأمراض التي تصيب الإنسان، إنما الخلل والاضطراب في هذه الحالة واقعٌ في عمل الدماغ ـ آلة الفكر والشعور ـ وعندها تكون الأدوية النفسية، ونوبات الصرع المحرّضة بالكهرباء خير علاجٍ، ويكون فيها الشفاء بإذن الله.

لكن الاكتئاب النفسيَّ يكون في أكثر الأحيان ردَّ فعل على خسارة ماديةٍ أو معنويةٍ تعرّض لها الإنسان، كمن يكتئب بعد خسارة ماليةٍ، أو بعد فقد عزيز بالموت أو السفر أو بانفصام العلاقة معه، أو بعد فقد عضو من أعضاء البدن، أو بعد فقد القدر والمكانة نتيجة مصائب الحياة.

وفي هذا النوع من الاكتئاب النفسيِّ الذي يسميه الأطباء

النفسيون «الاكتئاب التفاعليّ» تعظم أهمية المنظور؛ الذي ينظر الإنسان من خلاله إلى الحياة وما فيها، ويبرز دور العقيدة التي يؤمن بها.

فالدين وطريقة التفكير يؤثران في نظرة الإنسان إلى الأمور، وفي رؤيته لها، فحيث يمكن أن يرى إنسانٌ ما في مصيبةٍ وقعت له نهاية العالم يراها إنسانٌ آخر من منظوره المختلف مجرد مصيبةٍ بسيطةٍ، يمكنه أن يتكيّف معها بسهولةٍ، ويمرّ فيها بأقلِّ قدر من المعاناة.

ومن أهمِّ أسباب الاكتئاب التفاعليِّ الناتج عن أحداث الحياة: فقد عزيز بالوفاة.

فالموت خسارة تبدو للوهلة الأولى نهائية، لكنَّ المؤمن لا يرى في الموت إلا فراقاً يكون بعده اللقاء، وإن كان اللقاء سيتمُّ يوم القيامة، فذلك لا يعني أنَّ الفراق سيطول آماداً بعيدة، إذ لا يفصل أحدنا عن يوم القيامة إلا أن يموت، وعندها لا يشعر بمرور آلاف السنين أو ملايينها إلا كما تمرُّ الساعة على نائم ما لبث أن أفاق.

لذا عندما توفي ابن النبيِّ ﷺ، وفاضت عيناه بالدموع قال: «وإنّا على فراقك يا إبراهيم لمحزونون».

فالمؤمن يؤلمه الفراق، وهذا أمرٌ طبيعيٌّ، لكنَّ إدراكه

لاستمرارية الوجود الإنسانيِّ، وحتمية اللقاء بمن مات، يخفِّف من إحساسه بالخسارة، ويحميه من وساوس الشيطان الذي يجدها فرصةً مواتيةً ليبثَّ في نفس الإنسان وساوسه، كي يجعله يحسُّ أنه مخلوقٌ تافهٌ لا قيمة له، وأنَّ جهده لا جدوى منه، ويبرِّر الشيطان ذلك بأنَّ الإنسان الذي تمتلىء نفسه بالأحلام والمشاريع، والذي تمتلىء حياته بالسعي والعمل والأهداف الكبيرة، تأتي يد الموت لتخطفه من هذا كلّه، غير مباليةٍ بآماله وطموحاته ولا بجهوده وأعماله، ويقول الشيطان للإنسان: لماذا العمل؟ ولماذا الطموح؟ ما أنت إلا مخلوقٌ ضعيفٌ سيؤول كلُّ جهدك إلى الزوال، وما لم تكن النفس الإنسانية قد أشرقت بأنوار الإيمان، فإنَّ الشيطان ينجح في جعلها تحسُّ بأنَّها لا قيمة لها مع أنَّ الله كرَّمها، وضمن لها الخلود، واستخلفها في الأرض، وسخر لها ما في السموات والأرض.

وينجح الشيطان في جعل النفس التي تغفل عن حقائق الإيمان المشرقة، ينجح في جعلها تحسُّ باللا جدوى في هذه الحياة فتفقد الرغبة في أن تفعل شيئاً، طالما أنَّه لا جدوى من فعل شيءٍ، وطالما أنه إلى زوالٍ، لكنَّ المؤمن يعلم كما علَّمنا رسول الله ﷺ أنَّه لو كانت بيده فسيلة، وكادت القيامة أن تقوم، فليغرسها فإنَّ له بها أجراً، مع أنَّ زوالها سيكون بعد

لحظاتٍ، فلا يهمُّ المؤمن أن تفنى ثمار عمله الدنيويِّ طالما أنَّ مالك الدنيا والآخرة سيعطيه الأجر الكبير على كلّ عملٍ صالحٍ قام به.

* * *

الفصل الثاني

إن الإنسان خلق هلوعاً.... إلا المصلين

إنّ الإنسان المحروم من نعمة الإيمان إذا ما أصابته مصيبة جزع، واسودت الدنيا في نظره، وسيطر عليه اليأس والقنوط، وكان الاكتئاب النفسيُّ لديه شديداً إلى درجة أن يقتل نفسه أحياناً، أو أن يفكر في ذلك بجديةٍ.

والمصائب أمر ملازمٌ للحياة البشرية سواء في ذلك المؤمنون والكافرون، لكنَّ الإيمان الصحيح يجعل المؤمن قوياً في وجه المصائب، فقد جعل الله للمؤمن في المصيبة باب خير، وهذا مما يجعل وقعها عليه أخفَّ وأهون.

فالمؤمن لا يرى أنَّ النعمة دليل حبٍّ من الله، ولا يرى المصيبة دليل كراهيةٍ... إنما الحياة الدنيا كلُّها اختبارٌ للإنسان يتعرض فيه إلى سؤالين كبيرين:

الأول: كيف يكون ردُّه على النعمة، هل يشكر الله عليها أم يجحد، وينكر الفضل فيكفر بالله وأنعمه؟ وأعلى درجات الشكر الإيمان بالله تعالى بلا شريك، ومعرفة أنَّ النعمة فضلٌ منه، قال تعالى: ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ

﴿سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٢ ـ ٣].

والسؤال الكبير الثاني في الامتحان الذي يعيش فيه الإنسان طيلة حياته الدنيا هو: كيف يكون ردُّه على المصيبة والحرمان؟ هل يرضى بقضاء الله وقدره فلا يغضب من ربِّ العالمين، بل يبقى راضياً عن الله على الرغم مما قدَّره عليه من مصيبةٍ أو حرمانٍ فيكون بذلك من الصابرين، وممَّن رضي الله عنهم ورضوا عنه، أم يغضب ويسخط على الله، وينسى أنَّه لله، وأنه إلى الله راجعٌ، فيقلُّ أدبه مع خالقه، وتميل نفسه إلى المعصية والتمرد على الخالق العظيم، ردّاً عى ما قضى عليه، وقدَّر من مصيبةٍ وحرمانٍ؟

قال تعالى: ﴿۞إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ۝٢١ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ۝٢٢ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾ [المعارج: ١٩ ـ ٢٣].

والفائز في هذا الامتحان الكبير، امتحان الحياة الدنيا، هو الذي يجيب على النعمة بالشكر، ويجيب على المصيبة والحرمان بالصبر.

والخاسر الخائب من يجيب بالكفر، والجحود على النعمة، وبالسُّخط والتَّذمُّر على المصيبة والحرمان.

ولا بدَّ للمؤمن من أن يفهم ذلك كلَّه حتى تبقى نفسه متمتعةً بسكينتها في وجه مصائب الحياة.

قال تعالى مصحّحاً المفاهيم الخاطئة حول النعمة والحرمان: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر: ١٥ ـ ٢٠].

إذاً ليست النعمة دليل حبٍّ وتكريم من الله، وليس الحرمان دليل إهانةٍ وكراهية منه، إنَّما كلاهما ابتلاءٌ، أي: اختبارٌ وامتحانٌ وفتنةٌ.

قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

والمصائب تلازم الحياة البشرية؛ لأنَّها من طبيعة الحياة الدنيا، وقد جعلها الله للمؤمن الصابر؛ الذي يتلقَّاها دون أن يغضب من الله أو يسخط، جعلها كفارةً له تغسل عنه ذنوبه، وتطهّره منها، بحيث لا يعاقَب عليها في الآخرة.

وبهذا تصبح المصائب الواقعة على المؤمن الصابر دليل حبٍّ من الله؛ لأنَّه أراد بها أن يطهِّره من ذنوبه ليرفعه درجاتٍ في

الجنة، ما كان له أن يبلغها مع بقاء ذنوبه.

قال النبي ﷺ: «ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة، في نفسه وولده وماله، حتى يلقى الله تعالى وما عليه خطيئة» (رواه الترمذي وقال: حسن صحيح).

وقال أيضاً: «إنّ عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإنَّ الله تعالى إذا أحبَّ قوماً ابتلاهم، فمن رضي فله الرِّضا، ومن سخط فله السُّخط» (رواه الترمذي وقال: حسن).

وقال ﷺ: «من يرد الله به خيراً يصب منه» (البخاري).

إنَّ ثبات المؤمن في وجه المصائب، وحفاظه على سكينته لا يأتيان من فراغٍ، إنّما هو المنظور الإيمانيُّ للحياة وما فيها من نعمة، أو مصيبة.

* * *

الفصل الثالث
وبشر الصابرين

إنَّ من أحدث العلاجات النفسية للاكتئاب علاجاً يدعى «العلاج المعرفيّ»، وهو علاجٌ يهدف إلى تغيير الطريقة التي يفكر بها المكتئب، وتغيير النظرة التي ينظر بها إلى الأمور التي سببت له الاكتئاب، وجعلت الدنيا تسودُّ في عينيه.

والإيمان يزوّد المؤمن بنظرةٍ إلى مصائب الحياة وإلى الحرمان فيها تهوّن عليه تلك المصائب وذلك الحرمان، بحيث يكون أقلَّ الناس تعرضاً للاكتئاب بفعل المصائب أو الحرمان. وإذا ما أصابه الاكتئاب، ثمَّ ذكر ما نسي من حقائق إيمانيةٍ كان شفاؤه أسرع وأكمل.

ومن هذه الحقائق حقيقة أنَّ المصائب تكفِّر الذنوب عن المؤمن الصابر، وحتى ما يقع على المؤمن من عقوبة من قبل الحاكم جزاءً على معصيةٍ ارتكبها، فإنَّ له في تلك العقوبة كفارةً وطهوراً.

قال النبي ﷺ وهو يبايع أصحابه على الامتناع عن المعاصي: «. . . ومن أصاب من ذلك شيئاً فأخذ به في الدنيا

فهو كفارةٌ له وطهورٌ، ومن ستره الله فذلك إلى الله، إن شاء عذَّبه، وإن شاء غفر له» (البخاري ٦٤١٦).

وكان النبي ﷺ إذا دخل على مريضٍ يعوده قال: «لا بأس، طهورٌ إن شاء الله» (البخاري ٣٤٢٠).

وحتى المعاناة النفسية من قلق واكتئاب وغيرهما، فإنَّ فيها كفارةً للمؤمن.

قال النبي ﷺ: «ما يصيب المسلم من نصبٍ ولا وصبٍ، ولا همٍّ ولا حزنٍ ولا أذىً، ولا غمٍّ، حتى الشوكة يشاكها إلا كفَّر الله بها من خطاياه» (متفق عليه).

ومن جهةٍ أخرى، فإنَّ الله وعد الصابرين على قضائه وقدره الأجر العظيم في الآخرة، والتعويض عما أخذ منهم في الدنيا.

قال تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٥ ـ ١٥٧].

وقال النبيُّ ﷺ: «ما من مسلم تصيبه مصيبة فيقول ما أمره الله به: إنّا لله وإنّا إليه راجعون، اللهمَّ أجرني في

مصيبتي وأخلف لي خيراً منها إلا آجره الله في مصيبته، وأخلف الله له خيراً منها» (رواه مسلم).

وقد حفظت الصحابية أمُّ سلمة ما يقوله المؤمن إذا أصابته مصيبةٌ، وما لبثت حتى مرض زوجها، ومات، وكان لها خير ما يكون زوجٌ لزوجته، فلما مات قالت: إنّا لله وإنّا إليه راجعون، اللهم أجرني في مصيبتي، وأخلف لي خيراً منها. . . ثمَّ تساءلت: ومن أين لي بخير من أبي سلمة؟ فما انقضت عدَّتها حتى أتاها النبي ﷺ خاطباً، وتزوجها، وبذلك أخلف الله لها خيراً مما فقدت، وعوَّضها عن أبي سلمة زوجاً خيراً منه.

والصبر الحقيقيُّ يكون منذ أن يتلقى الإنسان خبر المصيبة، لا أن يتلقّاها بالجزع والنياحة والتشكّي من قضاء الله وقدره، حتى إذا مضت الأيام، ويئس مما فاته، وسلته نفسه، قال: أصبر وأحتسب، فالصبر كما قال النبي ﷺ يكون عند الصَّدمة الأولى؛ لذا كان على المؤمن أن يحفظ تلك العبارة الرائعة التي عليه أن يقولها عندما تقع عليه مصيبةٌ، أو عندما يتذكَّر مصيبةً وقعت عليه. . . «إنّا لله، وإنّا إليه راجعون. . . اللهمَّ أجرني في مصيبتي، وأخلف لي خيراً منها».

والصبر في الإسلام لا يعني الامتناع عن محاولة تغيير ما نزل بالإنسان من مصيبةٍ، ولا يعني التَّلذُّذ بالمصائب،

وإنّما على المؤمن أن يبذل كلَّ جهده في محاولة تغيير ما يقع عليه من مصائب، ولكن بنفسٍ راضية عن الله تعالى، فلا يتذمر، ويتشكّى، ويقول: ماذا فعلت لله حتى يفعل بي هذا؟.

وكذلك دون أن يتذمر من الجهد والعناء اللّذين عليه أن يبذلهما وهو يسعى إلى تغيير ما يمكنه تغييره من المصيبة، ودون أن يلجأ إلى ما حرَّم الله من أجل أن يغيِّر المصيبة أو الحرمان اللذين قدَّرهما الله عليه.

فالفقير الصابر يسعى إلى الربح وزيادة الدخل، لكن دون أن يسرق أو أن يغشَّ، والمريض يتداوى، ولكن لا يتداوى بحرام كالخمر مثلاً، وإن كانت الخمر في رأي علماء الدواء والعلاج المعاصرين ليس بدواءٍ على الإطلاق.

الصبر في حقيقته رضاً عن الله، ورضاً بالموقع الجديد الذي يضعنا الله فيه نتيجة المصيبة التي قدَّرها علينا، فالتي يموت زوجها، ويترك لها أيتاماً تربّيهم، وتصبح بذلك أرملةً مسؤولة عن صغارها، ترضى بهذا الدور الجديد في الحياة، وتبذل جهدها في أدائه على أكمل وجهٍ.

والذي يفقد بصره نهائياً، ويصبح أعمىً يرضى بهذا الدور الجديد في الحياة، ويبذل ما يستطيع لتبقى حياته منتجةً في مجالي الدنيا والآخرة، وهكذا. . .

إنَّ الصبر هو جوهر التكيُّف النفسي مع واقع الحياة؛ الذي يراه علماء النفس دلالةً على النضج، والصحة النفسية، والسبيل إليهما.

* * *

القسم الثاني

أثر العقيدة في الأخلاق

أ - الغيظ والغضب

ب - الحياء والخجل والرياء

ج - الموقف من الآخرين

(أ) الغيظ والغضب

الفصل الأول : الغيظ انفعال، والغضب فعل إرادي

الفصل الثاني : الغضب ثورة تضر ولا تنفع

الفصل الثالث: اغفر وادفع بالتي هي أحسن

الفصل الرابع : الذي يملك نفسه عند الغضب

الفصل الخامس: فلنحذر سوء الظن

الفصل السادس: حسن الخلق والتحكم في الانفعالات

الفصل السابع: الرضا بالقدر والتحذير من «لو»

الفصل الأول

الغيظ انفعال، والغضب فعل إرادي

عندما يتعرَّض الإنسان إلى إساءةٍ أو عدوانٍ يثور في نفسه شعورٌ عدائيٌّ انتقاميٌّ تجاه من اعتدى عليه، واسم هذا الشعور «الغيظ» وهو شعورٌ يستنفر الجسم من أجل الهجوم على المعتدي والانتقام منه، فتزداد ضربات القلب، ويرتفع ضغط الدم، وتتوسع الحدقتان، وتكون العضلات مشدودة يتدفق إليها الدم غزيراً؛ لتكون قادرةً على الأداء بقوة.

ويضغط الغيظ على النفس، يريد أن ينفذ ويخرج من عالم الشعور المخبوء بين جوانح النفس إلى عالم السلوك الظاهر.

وبحسبةٍ سريعةٍ جداً يقدِّر الإنسان ما إذا كان الموقف يسمح لهذا الغيظ أن يتحول إلى سلوكٍ قوليٍّ أو فعليٍّ.

فإن كان الموقف يسمح ظهر الغضب في الملامح ونبرة الصوت، واشتدَّ استنفار الجسم استعداداً لهجومٍ وشيكٍ.

وإذا كانت العواقب المتوقعة ضمن حدود المقبول، وكان الإنسان مستعداً لتحمُّلها، فإنَّه يطلق لغضبه العنان، فيرتفع صوته بالصُّراخ، والتوبيخ، والشتائم، وقد يصل الأمر إلى

العنف الجسديّ، فيكون الضرب، والإيذاء، وغير ذلك من أساليب العدوان، والانتقام.

أما إن كان في تقدير الإنسان الذي شعر بالغيظ أنَّ الموقف لا يسمح له بإظهار الغضب، وأنَّ العواقب ستكون وخيمةً، وفوق احتماله، فإنَّه يكظم غيظه، ولا يظهره أبداً.

والغيظ انفعال يقوم في النفس كردٍّ فعل تلقائيٍّ لا إراديٍّ على أذيَّةٍ، أو إهانةٍ يتصوَّر الإنسان أنَّها وقعت عليه.

إذاً فإدراك الإنسان للموقف ونظرته إليه هي التي تقرِّر قيام الغيظ في نفسه، أو عدم قيامه.

وطالما كان الغيظ انفعالاً نفسياً، فإنَّ رؤية الإنسان للأمور هي التي تحدِّد مدى تأثُّره به.

أما الغضب فهو سلوكٌ تعبيري، وعدوانٌ بالقول أو الفعل، وبما أنَّه سلوكٌ فإنَّه يخضع لإرادة الإنسان؛ لذا فإنَّه عندما أتى رجلٌ إلى النبي ﷺ، وقال له: أوصني، قال له النبيُّ ﷺ: «لا تغضب»، فردَّد الرجل مراراً، وكان جواب النبيِّ ﷺ يتكرَّر: «لا تغضب» (رواه البخاري).

ولم يقل له «لا تغتظ»، لأنَّه ﷺ عندما قال له: «لا تغضب» كان يدرك بوضوح أنَّ الغضب فعلٌ إراديٌّ، يستطيع الإنسان أن يقوم به، أو أن يمنع نفسه منه، أما الغيظ

فانفعال لا إراديٌّ، والرسول ﷺ دعانا إلى كظمه حين قال: «من كظم غيظاً وهو قادرٌ على أن ينفذه دعاه الله سبحانه وتعالى على رؤوس الخلائق يوم القيامة، حتى يخيِّره من الحور العين ما شاء» (رواه أبو داود والترمذي وقال: حديث حسن).

الغيظ يكظم كظماً، أمّا ضبط النفس والتحكم فيها فيكون عند الغضب، فالضبط والتَّحكُّم مطلوبان في السلوك، قال ﷺ: «ليس الشديد بالصُّرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب» (متفق عليه).

وقد نسب الله إلى نفسه الغضب ولم ينسب الغيظ إليه؛ لأنَّ الغيظ انفعال يثور في النفس شاء الإنسان أو أبى، لكنَّ الغضب سلوكٌ إراديٌّ، والإراديُّ يليق بالله، بينما اللاإراديُّ لا يليق بجلاله وكماله سبحانه وتعالى.

عندما يكظم المؤمن غيظه فإنه يحافظ على هدوء نفسه وسكينتها، ولا يظهر للآخرين حتى لو كانوا مسيئين إليه، لا يظهر لهم أيَّ نوع من العداء والرغبة في الانتقام، وبهذا يبقى السلام، والمودة، والرحمة هي المشاعر السائدة في المجتمع المؤمن.

فالذي يغضب قد يقول ما يجرح مشاعر الآخرين جرحاً يطول الزمن ولا يندمل، والذي يغضب قد يردُّ الإساءة بإساءة أشدَّ منها، فيظلم إخوانه، ويتحوَّل من مظلوم إلى

ظالم، وبعدها يندم حين لا ينفع الندم، أما الذي يكظم غيظه فإنَّه ملك نفسه، ممسكٌ بزمامها، متحكّمٌ بها، ولن يكون لديه ما يندم عليه، بل سيغمره الرِّضا والسرور؛ لأنَّه نجح في أن يسمو بنفسه، وفي أن يكون حليماً ورحيماً، وهذا ما يليق بالمؤمن الذي يهتدي بأنوار الإيمان.

* * *

الفصل الثاني

الغضب ثورة تضر ولا تنفع

هنالك اعتقادٌ خاطئٌ وبخاصة عند بعض الغربيين أنَّ على الإنسان أن يغضب إذا أحسَّ بالغيظ حتى لا يتراكم غيظه، ويتسبب في اضطراب نفسه.

وهذا الاعتقاد الخاطئ ربما كان فهماً خاطئاً للنصيحة المتكررة التي يقدِّمها المعالجون النفسيون لمرضاهم بأن يعبِّروا عن مشاعر الغيظ التي تقوم في نفوسهم تجاه من يرتبطون معهم بعلاقةٍ، ولكن شريطة أن يتمَّ التعبير دون التورُّط في أيِّ عنفٍ أو عدوانٍ؛ إذ الهدف من هذا التعبير عن الغيظ هو إيصال الأمر إلى الذي تسبب بالغيظ من أجل ألا يتكرر منه الخطأ، أو من أجل أن يقوم بتصحيح خطئه.

وهذا التعبير عن الغيظ دون عدوان أو عنفٍ لا يتنافى مع كظم الغيظ؛ الذي دعانا إليه ربُّ العالمين والرسول الكريم ﷺ.

فكظم الغيظ يعني ألا نتجاوب مع انفعالنا بسلوك غاضبٍ نلجأ فيه إلى العنف في كلامنا أو أفعالنا، ، وتفوح العداوة من

كلماتنا وتعبيرات وجوهنا، فكظم الغيظ امتناعٌ عن الغضب، وليس امتناعاً عن أن يذكر الإنسان لمن أغاظه أنَّه قد تضايق من فعله أو قوله، وأنَّه اغتاظ منه، وتأثَّر من سلوكه نحوه.

إنَّ مثل هذا التعبير عن الغيظ هامٌّ في التواصل الناجح بين اثنين من أجل المحافظة على العلاقة بينهما في أحسن حالٍ.

لكنَّ كظم الغيظ لا يضرُّ بالنَّفس أبداً، وكيف يضرُّ والرسول ﷺ يقول: «من كظم غيظاً وهو قادرٌ على أن ينفذه ملأه الله أمناً وإيماناً» (رواه أبو داود ٤٧٧٨).

إنَّما الحقيقة أنَّ إنفاذ الغيظ، وتحويله إلى غضب ظاهرٍ في تعبيرات الوجه، وفي الأقوال والأفعال هو الضارُّ بالنفس والبدن، فقد أظهرت الدراسات الطبية الحديثة أنَّ كظم الغيظ أفضل لصحَّة القلب عند الإنسان، فقد تبيَّن أنَّ الأشخاص الغضوبين، العدائيين، العجولين، يصابون باحتشاء العضلة القلبية، أي: الجلطة القلبية أكثر من غيرهم بكثير.

وقد تمَّ تقديم العلاج النفسيِّ، والمشورة النفسية للكثيرين ممن أصيبوا بالجلطة القلبية، وفيهم هذه الطباع، وذلك من أجل تدريبهم على كظم غيظهم، والإقلال من غضبهم المتكرر، وعدائيتهم تجاه الآخرين، وكذلك الحدّ من استعجالهم في الحياة اليومية، وذلك لوقايتهم من نوبات قلبيةٍ أخرى.

ولعلَّ الرجل الذي أكَّد عليه الرسول ﷺ وهو يوصيه بألا يغضب، لعلَّ هذا الصحابيَّ كان من النوع الغضوب الذي ينفجر غاضباً عند كلِّ صغيرةٍ أو كبيرةٍ، ووصيَّة الرسول ﷺ هذه هي من نوع العلاج النفسيِّ السلوكي.

ذلك أنَّ بعض الناس ينفجر غاضباً عندما لا يحصل على ما يريد، وعندما يريد التحكم بمن حوله كزملائه في العمل، أو أفراد أسرته ليجعلهم يفعلون له ما يريد، أو ليجعلهم يسكتون عن أخطائه، وإذا ما أذعنوا له، وأعطوه ما يريد تجنُّباً لغضبه وسورته، كان له في ذلك مكافأةً على سلوكه السيّىء، فيتكرر منه الغضب، لأنَّ غضبه حقَّق له النتائج التي يرجوها.

أمّا إن رفض الناس من حوله أن يذعنوا لغضبه، وأن يستسلموا له دون حقٍّ، وعاقبوا سلوكه السيّىء هذا ولو بمجرَّد الإهمال، وعدم الاهتمام، فإنَّه بتكرار المواقف يتبين له أنَّ غضبه دون حقٍّ لا يأتيه بنتيجةٍ، فيقلِّل منه، أو حتى يقلع عنه.

فالغضب والعدوان عموماً ليس غريزةً في الإنسان ترتاح نفسه، ويخفُّ توترها إذا أشبعت، وأعطيت وفق هواها... إنما هو سلوكٌ يزداد إن كوفىء، ويخفُّ إن عوقب.

والغضب ثورةٌ تهزُّ استقرار النفس والبدن، فلا عجب إن

تسبب الغضب المتكرر بالجلطة القلبية، أو ارتفاع ضغط الدم أو بنزيفٍ في الدماغ، فجسم الإنسان: قوته، وعافيته في توازنه واستقراره، وإن تحمَّل في شبابه نوبات الغضب، فلن يتحمَّلها عندما يتقدَّم سنُّه، ويدبُّ الضعف في بنيان جسمه.

فما أجمل أن يتعوّد المؤمن على كظم الغيظ! فيكون من عباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا: سلاماً.

* * *

الفصل الثالث
اغفر وادفع بالتي هي أحسن

ليس العدوان غريزةً في الإنسان، ولكنَّ الميل إلى الانتقام فطرةٌ في البشر، فإذا ما أحسَّ الإنسان برغبة في الانتقام ممَّن أساء إليه، فذلك لا يعني أنَّه إنسان سيّىءٌ شريرٌ.

إنَّما الرغبة في الانتقام أمرٌ طبيعيٌّ ومتوقَّعٌ عندما يتعرّض أحدنا لعدوانٍ، أو إساءةٍ، أو ظلم.

والمنتقم من أسماء الله الحسنى، لكنَّ الله عادلٌ، وقد حرَّم الظلم على نفسه، وجعله بيننا محرماً؛ لذا فإنَّ الله تعالى عندما أذن للمؤمن بالانتقام ممن اعتدى عليه أكَّد على ألا يسرف المؤمن في الانتقام، وأوجب عليه العدل في انتقامه، ومع إباحته للانتقام كان الحضُّ المتكرر، والترغيب للمؤمن بالصبر على الأذى والعفو عن المسيئين إليه.

ومع أنَّ الإسلام يعلي كثيراً من قيمة العفو والصفح، فإنَّه في الوقت نفسه دين الفطرة يراعيها بواقعية رائعةٍ، ويراعي رغبة المظلوم في الانتقام لنفسه ممن ظلمه، واعتدى عليه دون حقٍّ.

قال تعالى: ﴿ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ

عَلَيْكُمْۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٤] تذكيرٌ بالتقوى، وترغيبٌ بها بأن جعل الله من نفسه نصيراً للمتقين يقف إلى جانبهم، وإذا ما أدرك المؤمن أنَّ الله معه خفَّت رغبته في الانتقام حتى لو أحسَّ بالظلم، فما عليه إلا أن يلزم صفَّ المتقين، وعندها يكون الله معه، ويكون منصوراً حتى لو عفا، وصفح، ولم ينتقم.

قال تعالى مؤكداً على العدل في الانتقام، ومرغِّباً بالصبر: ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴾ [النحل: ١٢٦].

ولنتدبَّر سويَّة هذه الآيات الكريمة:

قال تعالى: ﴿ فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَاۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّۚ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ [الشورى: ٣٦ ـ ٤٣].

فبعد كلِّ شيءٍ يبقى الصبر والمغفرة من عزم الأمور، وليس للانتقام هذه المكانة.

إنّها ثلاثة أساليب للتّعامل مع الغيظ والرغبة في الانتقام المتولدة منه عندما يتعرض المؤمن للإساءة:

الأول: وهو الأقرب إلى الطبع البشريِّ هو الانتقام والعقوبة لكن بعدل المؤمن التقيِّ.

والثاني: وهو الأرقى، ويتمثل في الصبر والمغفرة.

والثالث: والذي تتجلى فيه قوة شخصية المؤمن، وقدرته على التحكم بغيره في أروع تجلّياتها، وفيه يرتفع سلوك المؤمن عن أن يكون مجرَّد ردٍّ فعل لسلوك الآخرين.

وهذا الأسلوب الثالث للتعامل مع الإساءة هو الدفع بالتي هي أحسن، أي: الردُّ على الإساءة بحسنةٍ... وإذا ماتمَّ ذلك بإخلاصٍ، وكان من القلب، ولم يقم به المؤمن ليقول لمن أساء إليه وذلك بطريقة غير مباشرةٍ؛ ليقول له: «أنا خير منك، فها أنا ذا أردُّ على إساءتك بحسنةٍ»، إنّما يردُّ بالحسنة ويدفع بالتي هي أحسن بصدقٍ دون أن يهدف إلى الانتقام عن طريق التّعالي الخلقيّ... إنّه بذلك الصدق والإخلاص في الدفع بالتي هي أحسن ينجح في التأثير بمن أساء إليه، وفي تحويل عداوته إلى مودةٍ وولاءٍ.

قال تعالى: ﴿ وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [فصلت: ٣٤ ـ ٣٥].

الانتقام يشفي النفس من الغيظ، ومن ما يمكن أن يسببه تراكم الغيظ من مشاعر مزعجةٍ، والعفو، والصَّفح، والمغفرة تقوم بالشيء ذاته.

إنَّها تطهِّر القلب، وتشفيه من الغيظ، ولا تدعه يتراكم ليصبح غلاً وحقداً.

قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحشر: ١٠].

وإنَّ الثواب العظيم الذي يتوقعه المؤمن من الله تعالى على مغفرته لمن أساء إليه مؤمناً كان المسيء أو كافراً... هذا الثواب فيه خير تعويضٍ عن المعاناة التي تسببت بها إساءة المسيء، بل هو الربح الكبير، ولن يخسر من يتاجر مع ربِّ العالمين أبداً.

* * *

الفصل الرابع
الذي يملك نفسه عند الغضب

الغيظ شعورٌ يقومُ بالنفس كرد فعل على ظلمٍ وقع عليها، وكظمُ الغيظ وحدهُ لا يكفي ليذهبَ الغيظ، وينمحي من النفس، إذْ لا بدَّ للتخلص من الغيظ من الانتقام والعقوبة، أو العفو والمغفرةِ، فبهما يكونُ شفاءُ الصدورِ من الغيظ المتراكم فيها؛ لذا فإن الله عندما حثَّ المؤمنين على قتال الكفارِ الذين يحاربون الإسلام، قال: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ١٤ ـ ١٥].

والإنسان يغتاظُ عندما يُعتدىٰ عليه، ويثورُ غاضباً في وجه المعتدي ليحمي نفسهُ من المزيد من الظُّلْم والعدوان، أو لينتقمَ لنفسه، لكنَّه قدْ يثور، ويغضبُ لأمر ثالث، وهو الحفاظ على قدره وصورته في عيون الآخرين، وأوَّلهم المعتدي نفسه، إذ يظنُّ الإنسان أنَّهُ إنْ لم يردَّ على الإساءة بإساءةٍ مثلها فإنَّهُ سيبدو أمام الناس ضعيفاً، وجباناً، وذليلاً؛ لذا يشعرُ الإنسان أنَّهُ في موقف يضطرُّهُ إلى أنْ يغضبَ، ويثور ويردَّ على الشتيمة

بمثلها، ويردَّ على الضرب بضربٍ أشدَّ منهُ.

وقد عالج النبيُّ ﷺ هذا الدافع للعنف والغضب بأنْ غيَّر المعيار الذي كان يقاسُ به الموقف، ونبَّهَ إلى المعيار الصحيح، وهو أنَّ الذي يملكُ نفسهُ عند الغضب فلا يلجأ إلى العنف، ولا يردُّ على الإساءة بمثلها، هو الإنسان القويُّ الشديدُ الصُّرعة.

فليس الشديدُ هو المصارعُ الذي يصرعُ الرجال، ولا يصرعُهُ الرجال، إنما هو ذلك الجبلُ الشامخُ الذي يُدركُ أنَّ قدرهُ وكرامتهُ لا يجرحُها سفاهةُ سفيهٍ، ولا إساءةُ مُسيءٍ.

سأل النبي ﷺ أصحابه يوماً فقال: «فما تعدّونَ الصُّرعةَ فيكم؟» قال راوي الحديث: قُلنا: الذي لا يصرعُهُ الرجالُ. قال النبي ﷺ: «ليس بذلك، ولكنَّهُ الذي يملكُ نفسهُ عند الغضب» (رواه مسلم).

وقال أيضاً: «ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديدُ الذي يَملكُ نفسهُ عند الغضب» (رواه مسلم والبخاري).

وقد أكَّدَ على أنَّ العفو عمن أساءَ إلينا لا يزيدُنا إلا عِزّاً، فقال: «ما نقصتْ صدقةٌ من مالٍ، وما زاد الله عبداً بعفوٍ إلا عزاً، وما تواضعَ أحدٌ لله إلا رفعهُ الله» (رواه مسلم).

وأعطى ﷺ منْ نفسه المَثَلَ، إذْ لم يَكُنْ ينتقمُ لنفسه أبداً،

قالت عائشة رضي الله عنها: ما ضَربَ رسولُ الله ﷺ شيئاً قطُّ بيده، ولا امرأةً ولا خادماً، إلا أنْ يجاهدْ في سبيل الله، وما نيلَ منهُ شيءٌ قطُّ فينتقم من صاحِبِه إلا أنْ يُنْتَهكَ شيءٌ منْ محارم الله تعالى، فينتقم لله تعالى (رواه مسلم).

ونيْل منهُ، أي: أُوذيَ.

وحتى لو بدا في صبر المؤمن على إيذاء أخيه لهُ شيءٌ منَ الذِّلَّة، فإنَّ الله بيَّن أنَّ المؤمنَ عزيزٌ على الكافرين وشديدٌ عليهم، لكنَّهُ رحيمٌ بالمؤمنين، وذليلٌ لهمْ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [المائدة: ٥٤].

فليست ذلّتهم على المؤمنين من ضعفٍ إذْ هم المجاهدون الذين لا يخافون لومة لائم، إنما هي الذلّة النابعة من الرحمة.

قال تعالى وهو يوصينا بآبائنا وأمهاتنا إذا بلغوا عندنا الكبر والشيخوخة: ﴿ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾ [الإسراء: ٢٤].

والمؤمنون كما وصفهم المولىٰ تعالى أشداء على الكفار في مواقف الجهاد، رحماء بينهم، وهكذا فلنكن.

* * *

الفصل الخامس

فلنحذر سوء الظن

إن مما يدعو إلى الغيظ أن يشعر الإنسان أن أحداً ما يحاول خداعه والكذب عليه، فيقول في نفسه: لو أنه احترمني، ووقّرني، ولم يعتبرني غبياً يسهل خداعي، لما حاول أن يخدعني، ولما كذب علي.

وهذا صحيح، إذ من الصعب على الإنسان أن يغش ويخدع، ويكذب على من يكنّ له الاحترام والتوقير، ولابد له من أن يحتقره ويستخف به حتى تطاوعه نفسه على خداعه والكذب عليه.

لكن هذا لا ينطبق على الأطفال.. فالطفل دون الثانية عشرة من عمره لا يدرك معنى الاحترام أو الاحتقار بالشكل الذي يدركه الكبار، إذ ما زالت أمثال هذه المفاهيم فوق قدرته على الإدراك، ولهذا فإن الطفل عندما يكذب على الكبير، ويحاول خداعه لا يفعل ذلك، لأنه يحتقره ويستخف به، إنما هو قد تعلّم حيلة وطريقة ينجي بها نفسه من عقوبة متوقعة، أو يحصل بها على ما يريد، فتراه عندما تنجح حيلته، أو تنطلي

علينا كذبته يشعر بالسرور والرضا عن نفسه، لأنه استطاع أن يخدعنا، وهذا يعطيه إحساساً بالاقتدار، وذلك مما يسعده.

لكن الكبير الذي يتعرض إلى خداع الطفل له أو كذبه عليه إن لم يكن مدركاً لحقيقة أن الطفل ما زال دون مستوى إدراك معاني التبجيل أو الاحتقار، يظن أن طفله يستخف به ويزدريه عندما يجرؤ على خداعه، فيغتاظ ويغضب ويعاقب الطفل بقسوة انتقاماً لكرامته التي يتصور أنها أهينت، وقد يبرّر قسوته على الطفل بأن الطفل الذي كذب قد ارتكب حراماً، ويكون غافلاً عن رغبته هو في الثأر للإهانة التي تصوّر أنّ الطفل قد ألحقها به.

إن الظن أن الذي يحاول خداعنا دائماً يفعل ذلك استخفافاً بنا ظن مقبول إن كان المخادع بالغاً راشداً، ومع ذلك علينا ألا نحكم بالشك والظن، إنما نأخذ حذرنا منه، ولا نتعامل معه وكأننا متأكدون من أنه يريد خداعنا، وأنه يستخف بنا، فالمؤمن لا يمشي وراء الظن.

قال النبي ﷺ: «إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث» (البخاري: ٤٨٤٩).

وإن تبين لنا أن شخصاً ما حاول خداعنا فنحن مدعوون إلى أن نكظم غيظنا، ونعفو عنه، ونحمد الله أنه لم يمكنه من

خداعنا، بدل أن نغضب ونثور.

ولكن نبقى على حذر من هذا المخادع، فقد قال النبي ﷺ: «لا يلدغْ المؤمن من جحر واحد مرتين» (مسلم).

ومن الحالات المشابهة التي يتولد فيها الغيظ دفاعاً عن الكرامة ضد إهانة متصورة، هي الغيظ الذي يولّده الشك في قلب الزوجة إن شكت بعدم إخلاص زوجها لها، فتراها مغتاظة لإحساسها أنها مخدوعة، ولخوفها على مكانتها في نظر الآخرين، ولتفكيرها فيما تقوله المرأة الأخرى عنها وهي تنظر إليها على أنها غبية مخدوعة، وكذلك مشاعر الغيظ التي تتولد عند زوج زائد الغيرة يشك في زوجته.

لكن المؤمن إن تأكد من أن الزوج أو الزوجة واقع في الحرام، يغيظه وقوع من يحب في الحرام والمعصية بالدرجة الأولى، ثم إنه لا يتبع وساوس الشيطان فيشك دون مبرر قوي، فقد قال النبي ﷺ: «إن من الغيرة ما يحبها الله، ومنها ما يبغضه الله، فالتي يبغضها الله الغيرة في غير ريبة». (ذكره ابن القيم في الجواب الكافي).

إن المسلم يحسن الظن بإخوانه دائماً، مع أن في حسن الظن هذا مخاطرة بأن يخدع أحياناً، لكن تعرضه للخداع أحياناً قليلة أرحم وأطهر لقلبه من أن ينظر بالشك والريبة دائماً، ويعتبر

الآخرين جميعهم موضع اتهامه، وبالتالي لا يطمئن إليهم، ولا يثق بهم، ولا تتعمق مودته لأحد منهم، وكيف تحب من تخشى غدره وأنت منه دائماً على حذر؟!

* * *

الفصل السادس

حسن الخلق والتحكم في الانفعالات

قال تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

إننا عندما نقرأ هذه الآية الكريمة نكاد نرى السكينة التي تملأ نفوس المؤمنين بأم أعيننا.

إنَّ الإيمان يغيِّر في الشَّخصيّة الإنسانية، ويجعلُها هيِّنةً ليِّنةً سهلةً، لا تميلُ إلى العنف والشِّدَّةِ إلا في مواقف الجهاد في سبيل الله ضدَّ الكفّار الذين يحاربون دين الله.

وقدْ وعد الرسولُ ﷺ المؤمنَ الهيِّن اللَّيِّن أن يحرِّمَ الله عليهِ النّار، قال ﷺ: «ألا أُخبركم بمنْ يحرمُ على النّار ـ أو بمن تحرُمُ عليه النّارُ؟ ـ تَحرُمُ عَلى كلِّ قريبٍ هيِّنٍ ليِّنٍ سهلٍ» (رواه الترمذي وقال: حديث حسن).

ويقول النبي ﷺ لأحد أصحابه: «إنّ فيكَ خصلتين يُحبُّهما اللهُ: الحلمُ والأناةُ» (رواه مسلم).

إنَّ النَّفسَ المؤمنةَ نفسٌ تتمتعُ بالسكينةِ والاستقرارِ، فلا

تهتاجُ إلا للأمرِ العظيم، وهي مطمئنَّةٌ عل قَدْرِها ومكانتها عند الله، فلا تشعُرُ بالتهديد لهذا القدرِ لأتفهِ الأسباب، كما يحدثُ لمن يستمدُّ قيمته من نظرة النَّاس إليه لا من رضا الله عليه.

قال أنس ـ رضي الله عنه ـ: كنتُ أمشي مع رسول الله ﷺ، وعليه بردٌ نجراني غليظُ الحاشية، فأدركه أعرابيٌّ فجبذهُ بردائه جبذةً شديدةً، فنظرتُ إلى صفحةِ عاتقِ النبيِّ ﷺ، وقد أثَّرتْ بها حاشيةُ الرِّداء من شدَّةِ جبذتِهِ، ثمَّ قال: يا محمَّدُ! مُرْ لي من مالِ الله الذي عندكَ. فالتفتَ إليّهِ، فضحك، ثمَّ أَمَرَ لهُ بعطاءٍ. (متفق عليه).

إنَّ الأخلاقَ الحسنة، والتَّعوُّد على التَّعامل مع الآخرين باللين، والرحمة، والرّفق تتركُ أثرها في النَّفس، حيثُ تمتلىء النَّفسُ طمأنينةً وسكينةً، فالذي لا يكظمُ غيظهُ، بل يثورُ ويغضبُ لا يمكنُ له أن يُحافظ على حُسنِ خُلقهِ، ولابُدَّ لهُ في ثورةِ غضبهِ من أنْ يكون عنيفاً، وقد يظلمُ ويَرُدُّ على الإساءة بأكثر منها.

لذا كان الحثُّ في الإسلام على الرِّفقِ واللِّين.

قال النبي ﷺ: «إنَّ الله رفيقٌ يُحبُّ الرِّفقَ في الأمر كلِّهِ» (متفق عليه).

وقال أيضاً: «إنَّ الله رفيقٌ يُحبُّ الرِّفقَ، ويعطي على الرِّفق

ما لا يُعطي على العنفِ، وما لا يُعطي على ما سواه» (رواه مسلم).

وقال ﷺ: «إنَّ الرفق لا يكون في شيءٍ إلا زانهُ، ولا ينزعُ من شيءٍ إلا شانَهُ» (مسلم).

وقال أيضاً: «من يُحرم الرفق يحرم الخير كلَّه» (مسلم).

وقد علمنا النبيُّ ﷺ طُرقاً عدَّةً لتهدئة غضبنا إذا عجزنا عن كظم غيظنا، وهي طرقٌ سُلوكيَّة سبقت العلاج النفسيّ الحديث بأربعة عشر قرناً من الزمان، فقد وجد علم النفس الحديث أنَّ حالةَ الإنسان الانفعاليَّة تتأثَّرُ بحالة جسده من حيثُ وضعيَّتُهُ، والتعبيراتُ التي على وجهه، وغير ذلك، فالانفعالُ النَّفسيُّ يؤدِّي إلى تغيير في تعبيرات الوجه، ووضعيّة الجسم، ثمَّ إنَّ إحساس الإنسان بهذه التغييرات يزيدُ من الانفعال النفسي الذي ولَّدها في البداية، وهكذا يقومُ الانفعالُ بتضخيمِ ذاته حتى يُصبحَ شُعوراً قويّاً محركاً للإنسان.

وانفعالُ الغيظِ وما يولِّده من تعبيرات الغضب على الوجه والجسم، ومن استنفار الجسم، وتهيُّئِهِ للهُجُوم على الخصمِ، يزداد بدوره، ويتعاظمُ نتيجة إدراك الإنسان وإحساسه بحالة تعبيرات وجهه، والتبدُّلات الغضبيّة الأخرى في جسمه، وبالتالي فإنَّ أيَّ معاكسة لهذه التغييرات الغضبيَّة في الجسم، وأيَّ اتِّخاذِ لأوضاعِ متناقضةِ معها يُرسلُ إيحاءاته إلى النَّفسِ،

فتعاكسُ الغيظ والثَّورة التي فيها، ويهدأ غضبُ الإنسان.

قال ﷺ: «وإذا غضب أحدكم فليسكت» (رواه أحمد).

وقال أيضاً: «إذا غضب أحدكم وهو قائم فليجلس، فإن ذهب عنهُ الغضبُ وإلا فَليَضطَجِعْ» (رواه أبو داود).

وقال ﷺ: «إنَّ الغضب من الشَّيطانِ، وإنَّ الشَّيطان خلق من النار، وإنما تُطفأُ النارُ بالماءِ، فإذا غضبَ أحدُكم فَليَتَوضَّأ» (أبو داود ٤٧٨٤).

وقد استبَّ رجُلان عند النَّبيِّ ﷺ فجعلَ أحدهما تحمرُّ عيناهُ وتنتفخُ أوداجهُ، فقال رسولُ الله ﷺ: «إنِّي لأعرفُ كلمةً لو قالها هذا لذهب عنهُ الَّذي يجدُ: أعوذُ باللهِ من الشَّيطان الرَّجيم» (أبو داود ٤٧٨١).

لقد جعل الله سبحانه وتعالى للخلقِ الحسنِ، والصَّبْر، والرِّفقِ، واللين جائزةً فوريَّةً للمُؤمنِ، وهي سكينةٌ تملأُ نفسهُ، وطمأنينةٌ تملأُ قلبهُ، وعافيةٌ في النَّفسِ والبدن تُزيِّنُ حياتهُ.

* * *

الفصل السابع

الرضا بالقدر، والتحذير من «لو»

مثلما يشعرُ الإنسان بالغيظ من الآخرين الذين أساؤوا إليْه، فإنَّهُ قدْ يشعرُ بالغيظِ من نفسه عندما يُخطىء في حقِّ نفسه، فيتّخذُ قراراً خاطئاً يؤدي إلى خسارته لفرصةٍ من الفرص، ثمَّ يندمُ بعدَ ذلك عندما يتبيَّن لهُ أنَّ خطأهُ قد سبَّب لهُ تلك الخسارة، فيغتاظُ من نفسه، ويلومها، وقد يكرهُها، وإذا لم يُسعفهُ إيمانُه، فإنَّهُ يُضِيفُ إلى غيظهِ من نفسهِ الشعور بالحُزنِ، والاكتئاب على الخسارةِ التي يتصوّرها.

وإذا اجتمع الاكتئاب مع الغيظ من النَّفسِ كان الإنسانُ ميّالاً إلى إيذاء نفسه عقاباً لها، وتنفيساً عن غيظه.

ولنتأمل حالةَ فتاةٍ تقدَّم إليها خاطبٌ فرفضتهُ، فتقدَّم إلى صديقتها فقبلت به، وتزوَّجتهُ، وعاشتْ معهُ سعيدةً، ثمَّ مرَّتِ السنون، ولم يتقدَّمْ إلى الأولى شخصٌ مناسب، فعندها قد تحزَنُ على الفرصة التي أضاعتْها، وبخاصَّة أنها ترى كم هي سعيدةٌ صديقتها معه، فتقول في نفسها: لو أنَّني قبلتُ به، وتزوَّجتهُ لكنتُ الآن سعيدةً معهُ!

لكنَّ الإيمان يحمينا من الوقوع في مثل هذه الحالِ، إلا إنْ كُنا في حالة غفلة عن بعض حقائق هذا الإيمان، وأهمها: أنَّ الأرزاق ونعم الله في هذه الحياة يقسمُها ربّ العالمين، وأنَّ ما أصابنا ما كان ليخطئنا، وما أخطأنا ما كان ليُصيبنا.

وأنَّ على المؤمن أنْ يحذرَ من قوله «لو» هذه التي تتعارضُ مع العقيدة الأساسية بأن ما وصل إلى غيري؛ فإنَّه رزقٌ من الله إليه ما كان ليصل إليَّ أبداً، لأنَّ الله قد كتبهُ لغيري ولم يكتبه لي.

قال ﷺ: «احرصْ على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيءٌ فلا تقلْ لو أنِّي فعلتُ كذا كان كذا وكذا ولكن قل قدَّر الله وما شاء فعل، فإنَّ لو تفتحُ عملَ الشيطان» (رواه مسلم).

فالإيمان بالقدرِ خيره وشره من الله يحمي المؤمن من الغيظ من نفسه في مثل هذه المواقف، وإنْ كان المؤمن كيّساً فطناً يتعلمُ من تجاربه، ويحرص على ألا يقع في الخطأ ذاته مرَّتين.

ومن جهة أخرى فإنَّ الإنسان قدْ يشعر بالغيظ والسُّخط على ربِّ العالمين، وذلك إذا ما ابتلاهُ الله بالمصائب، أو قدرَ عليه رزقهُ، وضيّق عليه في معيشته، وبخاصة إذا نظر هذا الإنسان إلى من أنعم الله عليهم، وآتاهمْ من فضلِهِ من مالٍ، أو

ولدٍ، أو عافيةٍ، أو جمالٍ، أو جاهٍ.

لكنَّ المؤمن لا يسخطُ على ربِّه ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [المائدة: ١١٩] لأنَّه من جهةٍ يعلم أنَّ النِّعم ابتلاء، وأنَّ العطاء من الله لا يعني أنَّه يحبُّ من أعطاهم أكثر ممن حرمهم.

ومن جهةٍ أخرى فإنَّ المؤمن يعمل بنصيحةِ النبيِّ ﷺ، فهو إن لفت نظره النِّعم التي عند غيره، نظر إلى الحرمان الذي فيه آخرون غيره من أجل أن يتذكَّر نعم الله عليه؛ إذْ مَنْ مِنَ البشر لم يؤتهِ الله نعمةً قطُّ؟

قال النبي ﷺ: «إذا نظر أحدكمُ إلى منْ فُضِّل عليه في المال والخلق، فلينظر إلى من هو أسفل منه ممن فُضِّل عليه» (مسلم).

وقال أيضاً: «انظروا إلى من أسفل منكم ولا تنظروا إلى من هو فوقكم، فهو أجدر ألا تزدروا نعمة الله عليكم» (مسلم).

فالذي يعيشُ السُّخط والغيظ لأنَّه حُرم من بعضِ ما أعطاه الله لغيره، لا يفيدهُ غيظهُ وسخطهُ شيئاً؛ لأنَّ الغيظَ لا يجلب له ما حرمُ منهُ، وهو فوق ذلك يحرم نفسه من أن يتمتَّع بما لديه من نعمٍ.

فالسَّاخط النَّاقم غيرُ سعيدٍ وعاجزٌ عن التَّمتُّع، وبالتالي فإنَّه يُضاعفُ من خسارته، إضافة إلى أنَّه يخسر رضا الله عنه.

والمؤمن يرضى بما قسم الله لهُ، دون أن يتوانى عن السَّعي إلى المزيد من الحلال، إنَّه يعمل بجدٍّ من أجل دُنياهُ، وآخرته، ونفسهُ مطمئنةٌ، ساكنةٌ، راضيةٌ.

* * *

(ب) الحياء والخجل والرياء

الفصل الأول : لا دونية مع الإيمان

الفصل الثاني : حياء لا خشية

الفصل الثالث : حياء مع جرأة في الحق

الفصل الرابع : آداب تقضي على الخجل والخشية

الفصل الخامس : خلق الإسلام الحياء

الفصل السادس: حياء لا رياء

الفصل الأول

لا دونية مع الإيمان

يشكل الخجل مشكلة كبرى في حياة الكثيرين، وهو بالإضافة إلى أنه مزعج، فإنه معيق لنشاط الإنسان، ويمنعه من أن ينطلق في المجتمع بكل طاقاته. والخجول إذا ما وجد نفسه محط أنظار الآخرين وبخاصة الغرباء أو أصحاب المكانة في المجتمع أو السلطة، فإنه يرتبك، وتنتابه أعراض القلق البدنية كخفقان القلب، والتعرق الزائد، وارتعاش اليدين، وتهدّج الصوت، والتلعثم.

إن الخجل الذي يمنع الإنسان من إثبات ذاته في المجتمع وفرض حضوره على الآخرين فرضاً طبيعياً لا يكون فيه تجاوز لحقوقهم أو عدوان على حرياتهم، هذا الخجل الذي يعوق الإنسان عن التعبير عن نفسه بحرية، ويمنعه من قولة الحق في وقتها، وقد يمنعه من السعي وراء مصالحه؛ لأنه بسبب الخجل يميل إلى تجنب لقاء الناس الذين لا يعرفهم أو لم يألفهم من قبل. هذا الشعور الكريه إلى النفس يختلف اختلافاً كلياً من حيث أسبابه ودوافعه وطبيعته عن «الحياء» الذي دعا إليه

الإسلام ومدحه النبي ﷺ في أحاديث كثيرة.

والخجل مزعج للنفس إلى حد أن بعض الناس يقع فريسة الإدمان على الخمر أو المخدرات بسبب الجرأة التي يستشعرها عندما يكون تحت تأثير الخمر والمخدرات، تلك المواد الضارة بالعقل الإنساني، والمدمّرة للمجتمع البشري، لكن المؤمن في غنىً عن تلك الطرق المؤذية التي يلجأ إليها البعض للتغلب على خجلهم، إذ من أجل منفعة قليلة يخسرون الدين والدنيا والصحة والمال.. أما الإيمان فإنه يعالج دواعي الخجل وأسبابه ويبث في النفس تلك السكينة والطمأنينة التي ينشدها كل إنسان.

ومن أهم أسباب الخجل الإحساس بالنقص والدونية، حيث يرى الإنسان نفسه أقل من الآخرين وأحط مكانة وقدراً، وهذا ما يسميه علماء النفس «القَدر المتدني للنفس» حيث لا يقدر المرء نفسه حق قدرها، بل يقدرها أقل من قدرها وقيمتها، وقد سماه النبي ﷺ: «حقر النفس»، وحقر النفس قد يكون لإحساس المرء أنه أقل من الآخرين بسبب لونه، أو أصله، أو فقره، أو عيب جسدي، أو نقص في جماله، أو ضعف في قوته البدنية، أو مهنته، أو غير ذلك من أسباب.

لكن الإسلام يربي المسلم على أن الناس سواسية كأسنان

المشط، وعلى أنه لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوىٰ. والذي يَفْضُل بسبب تقواه لا يتكبر ولا يستعلي لأن التكبر والاستعلاء يخرجه من زمرة المتقين. والإسلام يربي المسلم على قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، والآية واضحة أن التكريم الزائد للتقي إنما هو عند الله، أما في المجتمع فالكرامة موزعة بالتساوي، والناس سواسية كأسنان المشط. فالناس إخوة في الإنسانية ينحدرون من أب واحد «كلكم لآدم، وآدم من تراب». لذا فالمسلم لا يتكبر على أحد أبداً، حتى ولا على عبد اشتراه بماله، فحتى العبيد قال عنهم النبي ﷺ: «إنما هم إخوانكم وخولكم». والذي لا يتكبر على من أعطاه الله أقل منه، لا يتصغَّر ولا يحقر نفسه إزاء من أعطاه الله أكثر منه؛ إذ المؤمن لا يقيس أقدار الناس بحسب ما معهم من مال أو جاه أو جمال. إنما الخلق كلهم عيال الله، وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله.

إن الدونية والتكبر وجهان لعملة واحدة، لا يوجد أحدهما دون الآخر. فالذي يتكبر معتزاً بماله أو جاهه أو جماله أو علمه سيلقى من هو أغنى منه أو أوجه منه أو أعلم منه أو أجمل منه، وعندها سيشعر بالدونية والحطة والنقص، وسيحقر نفسه إزاءهم.

إن الخجل، أو خشية الناس بالمصطلح القرآني والنبوي، لا يليق بالمؤمن، لأن المؤمن لا يحقر نفسه، وكيف يحقرها وهي نفس أكرمها الله بالإيمان وأحبها وأحبته، ورضي الله عنها ورضيت عنه، وسمع إلى دعائها وندائها، وهو الذي لا ينظر إلى الصور أو الأجسام، إنما ينظر إلى القلوب وما فيها من إيمان.

* * *

الفصل الثاني
حياء لا خشية

لئن كان الخجل وخشية الناس أمراً غير محبب للنفس، فإن الحياء على العكس له مكانة عظيمة في الإسلام، وقد حثنا النبي ﷺ عليه كثيراً عندما قال: «إن لكل دين خلقاً، وإن خلق الإسلام الحياء» (ابن ماجه ومالك)، وقال أيضاً: «الحياء لا يأتي إلا بخير» (متفق عليه)، كما قال: «الحياء خير كله» (مسلم).

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ مر على رجل من الأنصار وهو يعظ أخاه في الحياء، فقال رسول الله ﷺ: «دعه فإن الحياء من الإيمان» (متفق عليه).

وقال أيضاً: «الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة، فأفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان» (متفق عليه).

وقد كان الحياء خلق رسول الله ﷺ، قال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه: كان رسول الله ﷺ أشدَّ حياءً من العذراء في خدرها، فإذا رأى شيئاً يكرهه عرفناه في وجهه.

(متفق عليه). وقد وصف النبي ﷺ رب العالمين بالحياء. قال ﷺ: «إنّ الله تعالى حييٌّ كريم يستحي إذا رفع الرجلُ إليه يديه أن يردَّهما صفراً خائبتين» (أحمد وأبو داود والترمذي).

وعلى عكس الخجل الذي ينتج عن حقر النفس والحط من قدرها وعدم الإحساس بكرامتها وقيمتها، فإن الحياء ينتج عن قدر النفس قدراً عالياً، وعن الإحساس بالكرامة الذاتية والقيمة الشخصية إحساساً طبيعياً لم تحطمه تربية خاطئة أو تجارب مريرة في الطفولة أو الكبر.. إن الحيي إنسان مفهومه لنفسه إيجابي وقدره عند نفسه كبير، وكرامته في نظره عظيمة، يحس بها ويحرص عليها ويتجنب كل ما يسيء إليها.. الخجل يقيد الإنسان عن فعل أشياء كثيرة في حضرة الآخرين، لكن الحياء يقيد الإنسان ويمنعه عن فعل ما يحط ويقلل من قدره وكرامته ويتنافى مع مفهومه لنفسه حتى لو كان وحده، لأن المهم هو كيف يرى نفسه وليس كيف يراها الناس.. إنه يحترم نفسه ويقدرها، وبالتالي لا يسمح لنفسه أن يفعل ما لا يليق بها في نظره هو بغضّ النظر عن رأي الناس، إنه مستقل في حكمه على الأمور، وليس تابعاً للناس يفعل ما يرضون عنه، ويجتنب ما لا يرضون عنه.. والإنسان الفطري السوي إنسان حيي، لأنه خلق خليفة لله في أرضه، وفيه الميل إلى تمثل صفات الخالق في نفسه في حدود ضعفه البشري (باستثناء الكبرياء والعظمة)

وبالتالي فإن كل ما يخالف هذه الصفات يكون فيه حط من كرامة الإنسان، إذ هو يفعل ما لا يليق به كخليفة لله كرمه الله وخلقه على صورته.. لذا فالحياء يمنع الإنسان من الكذب ويمنعه من الظلم، ويمنعه من السرقة والخيانة، كما يمنعه من البخل والشح، ويمنعه من الحسد واشتهاء ما عند الآخرين.. إن الحياء هو الحاسة القلبية التي تقف رقيباً على الإنسان السوي لتمنعه من المعاصي ومن كل ما يخالف مكارم الأخلاق التي بعث النبي ﷺ ليتمها.

وحتى حياء العذراء في خدرها الذي شبه به الصحابي حياء رسول الله ﷺ فإنه نتيجة حرص هذه العذراء حرصاً فطرياً على كرامتها وقدرها.. فإن من كرامة المرأة وقدرها أن تُطْلَب ولا تَطْلبُ، وحتى تصريحها بقبول خاطب لها قد يبدو لها أقرب إلى الطلب والحرص، فتستحيي من أن تقف هذا الموقف فلا تصرّح ويكون إذنها صُماتها.. ومما يتنافى مع كرامة المرأة أن يُنظر إليها كجسد يسيل له اللُّعاب، ويغض الطرف عن الإنسان الذي فيها؛ لذا كان ميل المرأة إلى ستر جسدها ميلاً فطرياً سوياً.

وكان من أهم ما يميز بائعات الهوى من الناحية النفسية أنَّ قدرهن عند أنفسهن قليل ومتدنٍ، لذا تطاوعهن أنفسهن على وضع أنفسهن في مواقف لا تليق بالإنسان الكريم. ثم إن

الإنسان بفطرته يستحيي من أن يطلع الآخرون على عوراته الجسدية أو الخلقية، لأنه لا يحب أن يرى الناس منه إلا كل حسن جميل، ولحكمة عظيمة كانت عورات البشر قليلة الجمال، وقد سماها رب العالمين سوءات.. ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [طه: ١٢١].

إن الحياء يمنع الإنسان من إيذاء الآخرين، وهو الذي يجعل الإنسان يتصرف كإنسان سواء خاف من عقوبة أو لم يخف؛ لذا كان الذي لا يستحي مخيفاً لأنه قد لا يتورع عن شيء، فهو قد تناسى كرامته وكرامة غيره، فلم يبق لديه ما يخاف عليه: «إنّ مما أدرك الناسُ من كلام النبوة الأولى إذ لم تستح فاصنع ما شئت» (البخاري). وروى البخاري أيضاً عن النبي ﷺ أنه قال: «اللهُ أحقُّ أن يُستَحيا منه من الناس» (البخاري ٢٧٤).

* * *

الفصل الثالث

حياء مع جرأة في الحق

إنَّ الحياء خُلُقُ الإسلام ، لكنَّ الإسلام في الوقت نفسه دينُ الجرأة في الحقّ، ودينُ التحرر من الخضوع للناس، إنَّه خروجٌ من عبادة العباد إلى عبادة ربِّ العباد .

وفي مقابل الحياء، ذلك الخلق السامي الذي يحمي الإنسان من أن يكون شيطاناً مريداً، ووحشاً لا يرحم، كما يحمي المجتمع من أن يكون فيه وحوشٌ آدميةٌ . . في مقابل الحياء هنالك خلقٌ ذميمٌ، ضارٌّ، إنَّه الخجل، وخشيةُ الناس.

في الحياء يحرصُ المؤمنُ على ألا يضع نفسه في موقفٍ لا يليق بها، إنَّه يحافظ على كرامتها، وعلى سُموِّها الخلقيِّ، أما في الخجل فإنَّ الإنسان يكونُ مكفوفاً مكبَّلاً بلا قيد تراه العيون، إنما تكبله قيودُ المجتمع التي قد تمنعهُ من فعل ما أمر الله به، وتقوده إلى ما حرَّم الله . . وحتى يتغلب المؤمنُ على هذه القيود، ويتمتع بحريته في أن يعيش في هذه الحياة بالطريقة التي يؤمن أنها الطريقة السوية للحياة. حتى يقدر المؤمن على ذلك يلزمه الجرأة الأدبية، وقوة الشخصية؛ بحيث لا يخاف في

الحقِّ لومة لائم، والخجل الذي يزعج كل من يعاني منه، يشعرُ به الإنسان كقيد يكبله، بخلاف الحياء الذي يشعرُ أَنَّهُ نابعٌ من داخله، ومنسجمٌ مع نفسه.

فالحياء التزامٌ لا يتنافى مع الحرية، بينما الخجلُ خشيةٌ للناس تعيق الحرية، والحياءُ ضميرٌ داخليٌّ، أما الخجلُ فبمثابةِ ضمير من خارج النفس لا يراعي مصلحتها، إنما يهدف إلى حماية أعرافٍ يرضاها الأقوياء؛ لأنها تحقق مصالحهم، أو هي موروثةٌ يُقدِّسها الذين يصرّون على اتباع الآباء على حقٍّ كانوا أو على ضلالٍ.

والحياء ينبع من إحساس المرء أنّه ذو قدر وكرامة، وأنَّ الآخرين بشرٌ لهم قيمةٌ، ويستحقون الاحترام والانتماء إليهم، والحرص ألا نريهم من أنفسنا ما يحطُّ من كرامتنا وقدرنا، ويظهرنا بمظهر الخارج عن القيم، والأخلاق، والمثل الحميدة.

أما الخجلُ فينبعُ من إحساسٍ بالدونية والنقص، ومن حقر للنفسِ بدل قدرها، أو اعتبارها مهينةً بدل أن يراها كريمة.

فالذي يرى نفسه أقلَّ من الآخرين قدراً، ويشعرُ بالدونية تجاههم يجد في نفسه هيبة لهم، وخشية من لومهم تمنعه من قولة الحق حتى لو لم يتوقع منها أن يقع عليه أذىً ملموس في بدنه، أو ماله، أو عياله، إنَّما هي خشيته من إغضابهم، ومن

إثارة لومهم له، وإنكارهم لفعله أو قوله، مع علمه أنّه على الحق.

وقد سبق رسول الله ﷺ علماء النفس عندما نبَّه إلى السبب الأساس الكامن وراء الخجل، وهو: حقرُ النفس، وخشية الناس، قال ﷺ لأصحابه ذات مرَّةٍ: «لا يحقر أحدكم نفسه».

قالوا: يا رسول الله! كيف يحقر أحدنا نفسه؟

قال: «يرى أمر الله فيه مقالٌ ثمَّ لا يقول فيه، فيقول الله عزَّ وجل له يوم القيامة: ما منعك أن تقول في كذا وكذا؟ فيقول: خشية الناس. فيقول: فإياي كنتَ أحقَّ أن تخشى» (رواه ابن ماجه).

وقال ﷺ: «لا يمنعنَّ رجلاً هيبةُ الناس أن يقول الحقَّ إذا علمه» (رواه ابن ماجه).

إنَّ الخجول يخشى من تعييب الناس عليه وسخريتهم من عيوبه ونقاط ضعفه؛ لأنَّهُ بالأصل شديد الانتقاد لنفسه، يبحث عما يظنُّهُ عيوباً فيها، وتكبر هذه العيوب في نظره حتى لا يكادُ يرى في نفسه إلا تلك العيوب.. وهو لذلك يخشى أنَّه إن فرض نفسه على الناس، وأثار سخطهم أن يعاقبوه بتفحُّصهم لعيوبه، والحديث عنها، كما أنَّه يعيش كالمريب

يخشى أن يقع في مركز الاهتمام حتى لا يفطن الآخرون إلى عيوبه فتنفضح.

وهذه الخشية من تعييب الناس، ومن أن يتفحَّصهُ الآخرون بحثاً عن عيوبه، يغرسُها في النفس منذُ الطفولة سماعُ الكبار ينتقدون الناس، ويعيبون عليهم، ويغتابونهم.

لكنَّ الإسلام يربي المسلم على الحرية الاجتماعية، أي: على أن يحسّ بأنَّه حرٌّ في أن يعيش كما يؤمن دون أن يهتمَّ بلوم الناس وسخطهم، طالما أنَّهُ لم يظلمهم، ولم يفعل منكراً حرَّمهُ الله.

وقد كان الرُّسل قدوةً للمؤمنين في ذلك، قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴾ [الأحزاب: ٣٩].

* * *

الفصل الرابع

آداب تقضي على الخجل والخشية

لقد عمل الإسلام على القضاء على الخجل، أو خشية الناس عند المسلم بطرائق عدة، لعل أهمها: أنه يسعىٰ إلى مجتمع تربط المودة والرحمة بين أفراده، وبالتالي ينظر الواحدُ منهم بعين الرحمة والحب إلى عيوب أخيه، فيلتمس له الأعذار، ويستر ما يرىٰ منها، ولا يلمز، ولا يسخر، ولا يغتاب، ولا يلقب الألقاب الكريهة.

والستر مطلوب بين المسلمين، ليس للعيوب فحسب، بل وحتى للمعاصي والذنوب. وقد قال النبي ﷺ مخاطباً بعض من أسلم بلسانه من المنافقين الذين كانوا يغتابون المؤمنين ويعيرونهم: «يا معشر من أسلم بلسانه، ولم يفضِ الإيمان إلى قلبه! لا تؤذوا المسلمين، ولا تعيروهم، ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من يتبع عورة أخيه المسلم تتبَّعَ الله عورته، ومن تتبع الله عورته يفضحه ولو في جوف رحله».

وقال أيضاً: «لا يستر عبد عبداً في الدنيا إلا ستره الله يوم القيامة» (رواه مسلم).

وقال: «ومن ستر على مسلمٍ في الدنيا ستر الله عليه في الدنيا والآخرة» (رواه أحمد ومسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجه).

وإن هذا يملأ المؤمن طمأنينة إلى أن باقي المؤمنين لن يغتابوه، وإذا رأوا شيئاً من عيوبه أو ذنوبه سيسترونه، وبالتالي لا داعي للعيش في خشية من الناس، ورهبة.

كما حرم الإسلام الفخر؛ لأن الذي يفخر على الناس بشيء إنما يحطّ من قدر من لا يملكون هذا الشيء، وبالتالي يساهم في إشعارهم بالنقص والدونية.

قال النبي ﷺ: «.... وإن الله أوحى إلي أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد، ولا يبغي أحد على أحد» (رواه مسلم).

ومن جهة أخرى فإن من طرق علاج الخجل السلوكية الحديثة: تدريب الخجول على التحدّث إلى الناس ومخاطبتهم؛ إذ بالتدريج تخفّ خشيته لنظراتهم، ويستشعر قدراً من الراحة والطمأنينة بينهم.

والإسلام شجّع كثيراً على البدء بالتحية والسلام، كما جعل ردّ التحية فرضاً. قال تعالى: ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ﴾ [النساء: ٨٦].

وسأل رجلٌ رسولَ الله ﷺ: أي الإسلام خير؟ قال: «تطعم الطعام، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف» (متفق عليه).

كما قال ﷺ: «لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أو لا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم» (رواه مسلم).

وحتى الأولاد يمرُّ المسلم بهم في طريقه فيسلّم عليهم كما كان النبي ﷺ يسلّم عليهم إذا مرّ بهم، فعن أنس - رضي الله عنه - أنه مرّ على صبيان، فسلّم عليهم، وقال: كان النبي ﷺ يفعله. (متفق عليه).

وسلام الكبار على الصغير إذا مرّوا عليه يرفع من قدره عند نفسه، ويحميه من أن يحقر نفسه، ومن أن يراها دون الآخرين، ومن أن يعيش عقدة نقص ودونية، وهذا يشكّل وقاية له من أن يصبح شخصاً خجولاً هياباً للناس، كما أن الذي يسلّم على الآخرين من عرف منهم ومَن لم يعرف، ويتلقّى منهم السلام تلو السلام منذ صباه، لابدَّ سيشعر أنهم يحملون الحب له، وأنهم لايبحثون عن عيوبه، وبكثرة السلام بينه وبينهم لا يبقى في نفسه لهم هيبة أو رهبة تمنعه من قولة الحق في حضورهم.

ولئن كان علاجُ الخجل عادة يعتمد على تشجيع الخجول على فرض نفسه، وتوكيدها بين الناس بروحٍ فيها شيء من العداء والصراع، فإن الإسلام يغني المؤمن عن هذه الروح، فهو يعيشُ بين أناس شدّتهم على أعدائهم، ورحمتهم بينهم، وهم أذلة على بعضهم بعضاً ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤].

والخجول ذو الطبع الحساس عندما يعيش بين الرحماء، وبين الذين يخفضون له جناح الذل من الرحمة، ويخبئون عزّتهم وشدّتهم ليظهروها للكافرين في مواقف الجهاد، هذا الخجول الحساس سينسىٰ خجله وحساسيته بين أناس كهؤلاء، وسيمتلىء سكينة وطمأنينة في حضورهم، لا هيبة ورهبة.

* * *

الفصل الخامس

خلق الإسلام الحياء

قال النبي ﷺ: «إنّ لكلّ دينٍ خلقاً، وإنّ خلق الإسلام الحياء» (رواه ابن ماجه ومالك).

لقد خلقَ الله الإنسان في أحسن تقويمٍ، وخلق فيه من الآليات النفسية، والمشاعر، والدوافع ما يُعينه على أن يكون خليفةً في الأرض صالحاً تقيّاً، بحيثُ لا يشعر أنَّ تقوى الله، واجتناب حرامه تعاكس فطرته، بل الإيمان، وما يتبعهُ من عمل صالحٍ هو الفطرة التي تنسجم النفسُ فيها مع ذاتها، فلا تتناقضُ، ولا تتصارعُ. ومن المشاعر التي تعين المؤمن على العمل الصالح: الحياء.

والحياء الذي يدعو إليه الإسلام يختلف عن الخجل، وهيبة النَّاس الذي يعيق الإنسان عن العمل الصالح، وإن كان هذا الإنسان يعيش بين أناس لا يحبون هذا العمل الصالح، ففي المجتمع المنحرف عن فطرة الله التي فطر الناس عليها تصبح العفَّة رذيلة، فيخجلُ الإنسان الضعيفُ، وتمنعهُ خشيةُ الناس من أن يكون حيياً، عفيفاً، متطهراً، فيكونُ الخجلُ مانعاً من

الحياء، وهذا يرينا كيف أنهما مختلفان.

فالحياء في حقيقته خوف على صورة الإنسان ونظرته إلى نفسه من أن تتشوّه في عينيه، أو عيون الآخرين، أو عند الخالق تعالى.

إنَّ الإنسان الذي يُحسُّ بكرامته، ويحسُّ بحضور خالقه، ويحترمُ الناس، ولا يتكبَّر عليهم، هذا الإنسان يصبحُ حريصاً على ألا يفعل ما يجعله دون المستوى الراقي الذي يريدهُ لنفسه، ويصبح حريصاً على ألا يرى نفسه واقعةً فيما يحطُّ من قدرها، وكرامتها، ويجعلُها دون المثالِ الذي يسعى إليه، ويصبحُ حريصاً ألا يراه الله حيث نهاه، وألا يراه الناسُ واقعاً فيما يراه رذيلةً أو نقيصةً، إنَّه يكرم نفسهُ فينأى بها عما يشوِّه صورتها لديه، أو لدى الناس، أو عند الله.

لذا ترى الحييَّ إذا واجهه موقفٌ فيه تهديدٌ لقدر نفسِه، وفيه خطر الوقوف في موقفٍ يتنافى مع كرامة نفسه، ومع الصورة المثالية التي يسعى أن تكون نفسه على منوالها، إذا وجد نفسه في موقف كهذا احمرَّ وجهه، وانتابه من الأحاسيس ما ينتاب القلق من سرعةٍ في ضربات القلب، وارتعاشٍ، وتعرق، وغير ذلك، وإذا ما وقع فيما يراه رذيلة نظر إلى نفسه بازدراء وإذا اطَّلع الناس على خطيئته أحسَّ أنَّه فقد احترامهم، وتقديرهم، وأنَّهُ لا قدر له، ولا قيمة.. إنَّه وقع

في خطيئةٍ هو مؤمنٌ أنَّهُ على الإنسان الكريم ألا يقع فيها؛ لذا تراه هو الحاكم على نفسه بأنه بخطيئته صار أقلَّ قدراً، وأقل كرامةً.

إنَّ ما يجعله يحسُّ بالخزي ليس الخوفُ من الناس، إنما هو وقوعهُ فيما يُعيب صورته، ويشوِّهُها عند نفسه، وعند الآخرين.

إنَّ الحياء يُشكِّل حاسةً حارسةً للقيم ومكارم الأخلاق التي يؤمن بها الإنسان، والمؤمن هو أشدُّ الناس إيماناً بمكارم الأخلاق، والمؤمنُ يؤمنُ بالقيم التي يدعو إليها إيماناً حقيقياً؛ لذا كان الحياءُ خلقَ الإسلام، ونَسَبَهُ النبيُّ ﷺ إلى الله تعالى عندما قال: «إنّ الله تعالى حييٌّ كريمٌ يستحيي إذا رفع الرجلُ إليه يديه أن يردَّهُما صفراً خائبتين» (رواه أحمد وأبو داود والترمذي).

وقال ﷺ: «الحياء خير كلُّه» (رواه مسلم).

وقال أيضاً: «الحياء لا يأتي إلا بخير» (متفق عليه).

وعن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ أنَّ رسول الله ﷺ مرَّ على رجلٍ من الأنصار وهو يعظ أخاه في الحياء، فقال رسول الله ﷺ: «دعهُ فإنَّ الحياء من الإيمان» (متفق عليه).

وكان رسول الله ﷺ قدوة لنا في حيائه، قال أبو سعيد الخدريّ ـ رضي الله عنه ـ: كان رسول الله ﷺ أشدَّ حياءً من

العذراء في خدرها، فإذا رأى شيئاً يكرهه عرفناه في وجهه. (متفق عليه).

ولما كان الحياء هو الناهي النفسي عن مخالفة الأخلاق والقيم، كان من أهم ما يميّز الشخصية السيكوباثية المنحرفة: غياب الحياء نتيجة غياب أيِّ احترام، أو تقدير للناس لديه.

والشخص السيكوباثيّ لا يتورع عن أية رذيلة في سبيل إشباع شهواته، وقد صدق رسول الله ﷺ عندما قال عن هؤلاء الأشخاص المتمردين: «إنّ مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى إذا لم تستح فاصنع ما شئت» (البخاري).

وخلاصة القول: إن الحياء يولد من اجتماع احترامين: احترام الإنسان لذاته واحترامه للآخرين، فإن غاب أي من هذين الاحترامين غاب الحياء، والحياء جوهر الحياة الخلقية التي تميز الإنسان عن الحيوان، فإن غاب الحياء، صار أمامنا وحشاً في إهاب البشر.

والذي لا يستحي يجب الحذر من القرب منه والتعامل معه؛ لأنه دون الحياء لن يتورع عن أي فعل إلا خوفاً من أن تناله العقوبة الفورية المؤكدة، فإن أمن هذه العقوبة، أو تصوّر أنه سينجو منها فإنه لن يمنعه شيء من الانسياق وراء هواه، ولو كان ذلك على حساب الآخرين.

* * *

الفصل السادس
حياء لا رياء

عندما ينشأ الإنسان على الإيمان بالقيم، وتقدير ذاته، واحترام الآخرين، فإنَّه يحرص بشكل طبيعي على ألا يرى منه الناس عيباً، أو نقيصة، أو عملاً يتنافى مع القيم التي يؤمن بها، ذلك أنَّ احترامه للناس يجعله حريصاً على أن يكون رأيهم فيه حسناً؛ لذا سمِّيَ كلُّ ما يحرص الإنسان على ستره عن أعين الناس عورةً؛ لأنَّ ظهوره لهم يُشوِّه صورة الإنسان في أعينهم، وهذا الحرص على صورة الإنسان في عيون الآخرين الناتج عن احترام الإنسان للآخرين وليس عن رغبته في التأثير فيهم وخداعهم، هذا الحرص هو أساس الحياء، والحياء من الإيمان.

لكنَّ الإنسان قد يتجاوز تجنُّب ما يشين ويعيب إلى جعل الغاية وراء ما يقوم به من أعمال هي أن يؤثر في الناس، وأن يجعلهم يرونه على صورة حسنة رائعة، لا لأنَّه يؤمن أنَّه هكذا يجب أن يكون، إنما لأنَّه يعرف أنَّ الناس يؤمنون أنَّه هكذا يجب أن يكون.

الحيي ينطلق في حمايته لصورته لدى الآخرين من إيمانه هو بالقيم، وحبه لها، أما الآخر ـ المرائي ـ فينطلق مما يؤمن به الآخرون، ويعجبون به، إنَّهُ يريدُ نيل إعجابهم ليتمتع به، وبمديحهم له، وتعظيمهم، وتبجيلهم له، أو حتى تقديمهم له ليكون إماماً لهم يدبر شؤون حياتهم، ويتحكم فيها.

إنَّه لا ينطلق من إيمانه بالقيم، ولا من احترامه للناس، بل على العكس، إنه لا يؤمن بالقيم الإيمان الكافي؛ لأنه عندما يحاول التأثير في الآخرين، وخداعهم، وإثارة إعجابهم به، فهو يناقض القيم والأخلاق، وهو عندما يفعل ذلك لا ينطلقُ من احترام الآخرين، بل من استخفافه بهم؛ لأنَّهُ يكذب عليهم، ويوهمهم أنَّه فيه من الصفات ما ليس فيه.

ومع أنَّ المرائي في أعماقه متكبرٌ لا يحترم الناس، لكنَّه في الوقت نفسه يقع في عبودية للناس؛ إذ يبذل وسعه من أجل الفوز بإعجابهم ورضاهم، فهو كلما همَّ بعملٍ يقوم به فكَّر بالذي سيقوله الناس، وبالأثر الذي سيتركه عمله في نفوسهم، فتراه يضطرُّ إلى ترك عمل ما يريد ويحبُّ؛ لأنَّ الناس قد يقولون فيه، ويضطرُّ إلى عمل ما لا يريد وما لا يحب لأنَّ ذلك يرضي الناس، ويجلبُ ثناءهم وإعجابهم.

والناس لا ينطلقون دائماً في أحكامهم من مكارم الأخلاق ومن القيم السامية، إنما قد تكون هنالك قيمٌ خاطئةٌ سائدةٌ

بينهم، فلا يثنون، ولا يعجبون بمن يخالفها، وهكذا يكون المرائي مستخفّاً بالناس، وعبداً لهم في آنٍ واحدٍ.

ويكونُ المخلصُ لله الذي يعملُ ما يعملُ وهو يراقب الله، ولا يراقبُ سواهُ، يكونُ هذا الذي أخلص عبوديتهُ لله حُرّاً بين الناس، وسيداً حقيقياً، ويجمعُ بين احترامه للناس واستقلاله عنهم، ولا يكون حياؤُه منهم عن ضعفٍ أو هيبةٍ لهم، إنما عن إيمان منه بالقيم، ومكارم الأخلاق، وعن حرصٍ منه على أن يكرم نفسه ولا يهينها بأن يترك عورةً له من أي نوعٍ بادية للآخرين.

وحتى يحمينا الله من العبودية للآخرين حرَّم الرياء، وتوعَّد عليه.. وتوعَّد الذين يتعالون، ويختالون على الناس تباهياً بأفعالهم، ويحبُّون أن يثني عليهم الناس بما ليس فيهم حقيقةً.

قال تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٨٨].

وقال ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى أجسامكم، ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم» (رواه مسلم).

وإنَّ النار تسعَّرُ يوم القيامة بثلاثة: شهيد، وعالم،

ومحسن، ذلك أنَّهم فعلوا ما فعلوا ابتغاء مديح الناس وثنائهم، لاابتغاء مرضاة الله.

قال ﷺ: «إنَّ أوَّل الناس يُقضىٰ يوم القيامة عليه رجلٌ استشهد فأتي به، فعرَّفهُ نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلتُ فيك حتى استشهدتُ. قال: كذبتَ ولكنك قاتلت لأنْ يقال جريءٌ، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار. ورجلٌ تعلم العلم وعلَّمه وقرأ القرآن، فأتي به فعرَّفه نعمه فعرفها. قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلمتُ العلم وعلَّمتُهُ، وقرأت فيك القرآن. قال: كذبت، ولكنك تعلمت العلم ليقال عالمٌ، وقرأت القرآن ليقال هو قارىء، فقد قيل، ثمَّ أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النّار. ورجل وسَّع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كلِّه فأتي به فعرَّفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيلٍ تحبُّ أن ينفق فيها إلا أنفقتُ فيها لك، قال: كذبت، ولكنك فعلت ليقال هو جوادٌ، فقد قيل، ثم أُمِرَ به فسحب على وجهه ثمَّ ألقي في النار» (رواه مسلم). إذاً ليس المهم أن يقاتل الرجل في صفِّ المؤمنين، أو أن يفني عمره وهو يقرأ العلم والقرآن، ويعلمه للناس، أو أن ينفق على الفقراء والمحتاجين. . المهم قبل ذلك أن يفعل ذلك لله لا لينال إعجاب الناس وثناءهم، وليصبح مشهوراً بينهم بصفة

يحبونها، فيبجّلونه من أجلها، وهم يحسبون أنَّه مجاهد مخلص، أو عالم مخلص، أو محسن مخلص.

إنَّ اللهَ ليسَ في حاجة إلى مالنا، ولا إلى جهدنا، أو دمائنا إنما يريدُ أنْ يزكينا بالتقوى تمتلىءُ بها قلوبنا.

قال تعالى عما يذبحه الحجاج من أنعام: ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ. . . ﴾ [الحج: ٣٧].

* * *

(ج) الموقف من الآخرين

الفصل الأول : الحب تلك العبادة المنسية

الفصل الثاني : الغيبة بلاء على قائلها

الفصل الثالث : ولا تحاسدوا

الفصل الرابع : ستر أو حدّ

الفصل الأول
الحب تلك العبادة المنسية

لقدْ جعلَ اللهُ في دينهِ كلَّ ما يلزم ليكونَ مجتمعُ المؤمنين مجتمعاً متماسكاً، بحيثُ يكونُ مثلُ المؤمنين في توادّهم وتراحمهمْ كمثل الجسدِ الواحدِ، إذا اشتكى منهُ عضوٌ تداعى له سائرُ الجسدِ بالسهرِ والحمى.

ولا يكونُ مجتمع المؤمنينَ متماسكاً كما تتماسكُ خلايا الجسدِ بحيثُ تشكل جسداً حياً واحداً، يشعر كلُّ جزء فيه بما يُصيبُ الجزءَ الآخر، لا يكون كذلك إلا منْ خلال شبكةٍ قويةٍ منَ العلاقاتِ الاجتماعيةِ تربطُ بينَ أفراد المجتمع، ولنْ تكونَ هذه العلاقاتُ قويةً حقاً إلا إنْ تألَّفتْ منَ المودةِ والرحمة.

والإسلامُ بحقٍّ دينُ الحبِّ، فالحبُ بينَ المؤمن وخالقِهِ حبٌّ متبادلٌ، والحبُّ بينَ المؤمنِ والمؤمنِ عبادةٌ ثوابها عظيمٌ. إنّها عبادةٌ منسيةٌ إلى حد كبيرٍ، وعندما يغفلُ عنها المؤمنون ينالهم الجزاءُ على الفورِ، إذْ تتفككُ الأواصر فيما بينهم، ويصبح الإنسانُ وحيداً يحس بالوحشةِ وهو بين أمه، وأبيه، وزوجته، وأخيهِ.

إنَّ وحدةَ الإنسانِ وعزلتهُ نتيجةٌ لازمةٌ لفرديَّتهِ، ولكونِهِ كائناً ذا كينونةٍ وذاتيةٍ مستقلةٍ عن المخلوقات الأخرى.

إنَّ لهذه الفردية والاستقلالية ثمنها من الإحساس بالعزلة والوحدة، لكنَّ المؤمنَ يتمتعُ بتلكَ الفرديةِ والاستقلالية، ثمَّ يحتمي منَ الإحساس بالوحشةِ والعزلةِ بالعيش في معيَّة الله، وفي الحبِّ الذي يكونُ بينهُ وبين خالقهِ، وكذلك في صحبة المؤمنين الآخرين من أهل، وجيرانٍ، وأصدقاء، وبالحب المتبادل الذي يكونُ بينه وبينَهم.

والحبُّ لا يكونُ حقيقياً، ولا يكونُ قادراً على تخليص الإنسان من إحساسه بالوحدةِ والوحشة في هذا الوجودِ إلا عندما يكونُ حباً منزهاً عنِ الغرض، والمصلحةِ، والاحتياجِ، أي: عندما يكونُ حباً في اللهِ.

لذلكَ كان الذي يحب الآخرينَ في الله ممن يجدون حلاوةَ الإيمانِ كما قال النبي ﷺ.

إنّ في الحبِ المجرد عنِ الغرض، أي: الحبّ في الله راحة نفسية، وسعادة للمحب قبلَ المحبوب، وقدْ جعلهُ اللهُ عبادةً عليها الأجرُ العظيمُ، فعَنْ أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عنِ النبي ﷺ: «أنَّ رجلاً زارَ أخاً لهُ في قريةٍ أخرى، فأرصدَ اللهُ تعالى على مدرجتهِ ملكاً، فلما أتى عليه قال: أينَ تريدُ؟ قال:

أريدُ أخاً لي في هذه القريةِ. قال: هلْ لكَ عليهِ من نعمةٍ تربُّها عليه؟ قال: لا، غيرَ أنّي أحببتُهُ في الله تعالى. قالَ: فإني رسول الله إليك بأنَّ اللهَ قد أحبَّكَ كما أحببتهُ فيه» (رواه مسلم).

وقال ﷺ: «سبعةٌ يظلهمُ اللهُ في ظلِّهِ يومَ لاظلَّ إلا ظلُّهُ: إمامٌ عادلٌ، وشابٌّ نشأ في عبادة اللهِ عزَّ وجلَّ، ورجلٌ قلبهُ معلَّقٌ بالمساجدِ، ورجلانِ تحابّا في اللهِ، اجتمعا عليهِ وتفرقا عليهِ، ورجلٌ دعتهُ امرأةٌ ذاتُ حسنٍ وجمالٍ فقالَ: إني أخافُ اللهَ، ورجلٌ تصدَّقَ بصدقةٍ فأخفاها حتى لا تعلمَ شمالُهُ ما تنفقُ يمينهُ، ورجلٌ ذكرَ الله خالياً ففاضتْ عيناهُ» (متفق عليه).

وقال ﷺ: «إنَّ اللهَ تعالى يقولُ يومَ القيامةِ: أينَ المتحابُّونَ بجلالي، اليومَ أظلُّهمْ في ظلِّي يومَ لا ظلَّ إلا ظِلي» (رواه مسلم).

ولنْ يكونَ في القلبِ مكانٌ للحبِّ إلا إذا نقَّى المؤمنُ قلبهُ من مشاعرِ العداوة، والحسدِ، والكبرِ، والتعالي، إذْ لا حبَّ بلا احترامٍ وتقبُّلٍ.

وقبلَ الحبِّ مرحلةٌ تمهِّدُ لهُ، وهيَ أنْ تحبَّ لأخيكَ ما تحبُّ لنفسكَ، ثم أنْ تغفرَ لهُ إنْ أساء، وأنْ تتوقّف عن النظر إليهِ منْ ناحية المنفعة التي تأتيك منهُ، فالحبُّ في اللهِ هوَ الحبُّ

المجرّدُ عنِ الغرضِ، إنه حبٌّ لذاتِ الشخصِ بغض النظر عنْ أيةِ منفعةٍ تتوقّعها منهُ، أما منْ قدّم إليكَ معروفاً فأحببتهُ فإنَّ حبكَ لهُ يكونُ نابعاً عنْ شكرك له، ويبقى حباً في الله مجرداً عن الغرض طالما أنّكَ لا تحبُّهُ من أجل أن تحصلَ منه على المزيدِ، فصدورُ حبِّك له عن عرفانكَ بجميلهِ لا يعيقُ أنْ يكونَ حبك لهُ مجرداً عن الغرضِ، طالما أنكَ تنظرُ إليهِ نظرةً كلِّيَّةً، فترى فيه الإنسانَ الذي تحترمُ، وتحبُّ، وتحرصُ على منفعتهِ مثلما تحرصُ على منفعتكَ الشخصية، ولا تنظر إليهِ نظرةً جزئيةً فترى منهُ الجزء الذي يحققُ رغباتك، وعندها يكونُ في نظركَ أقربَ إلى أداةٍ تحقق لكَ أغراضكَ، ولا يكونُ احترامكَ له حقيقياً، إذْ كيف تحترمُ منْ تنوي استخدامهُ لأغراضِكَ؟!

الحبُّ المجرّدُ عنِ الغرضِ هو الحبُّ في اللهِ طالما صدرَ عنْ قلبٍ مؤمنٍ، وهو عبادةٌ تقطفُ ثمرتَها يوم القيامة.

قال رسول الله ﷺ: «قال اللهُ عزَّ وجلَّ: المتحابون في جلالي لهمْ منابرُ من نورٍ يغبطهم النبيون والشهداءُ» (رواه الترمذي وقال: حسن صحيح).

* * *

الفصل الثاني
الغيبة بلاء على قائلها

إنَّ الغيبة كما عرّفها النبيُّ ﷺ هي: أن يذكر الإنسان إنساناً آخر بما يكره، أي: أن يتحدث عنه بما لو سمعه لتضايق واستاء، ولا يغيّر في الأمر شيئاً أن يكون في هذا الإنسان من العيوب ما يقال عنه، فإنّ الذي يذكر أحداً بعيوبٍ هي فيه يكون قد اغتابه، أما إن نسب إليه من العيوب والأفعال القبيحة ما ليس فيه فقد بهته، والبهتان أقبح من الغيبة.

وقد حرَّم الله الغيبة وشبهها بأكل لحم الآخرين وهم أموات، قال تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٢].

والاستماع إلى الغيبة مشاركة فيها؛ لذا حثَّنا النبيُّ ﷺ على أن نردَّ عن أعراض إخواننا إن اغتابهم أحدٌ أمامنا. قال النبيُّ ﷺ فيما رواه الترمذي: «من ردَّ عن عرض أخيه ردَّ الله عن وجهه النار يوم القيامة».

ولعل في تشبيه المولى عزّ وجل للغيبة بأكل لحم بشرٍ ميتٍ إشارة إلى آثارها السلبية في نفس مرتكبها وقائلها، فمع أنَّه يظن أنَّه يقوِّي، ويغذِّي نفسه بها، كما يتقوى، ويتغذى آكل اللحم، لكنَّه يأكل من جيفةٍ بشريةٍ، ويتمتع بوجبةٍ ضارّة مقرفةٍ!

فالذي يغتاب الآخرين يغتابهم لينفِّس عن عدائه، وحسده لهم، ويغتابهم ليشعر بالتعالي عليهم طالما أنهَّم فيهم من العيوب ما ليس فيه، وهو يغتابهم ليحسِّن صورته في عيون المستمعين إليه؛ لأنَّ من يستمع إلى قوله يستنتج خلوَّه من هذه العيوب التي يذكرها في أخيه المؤمن، إذ من المستبعد جدّاً أن يتحدّث الإنسان عن عيوب الآخرين إن كان يعاني من مثلها.

وإن كان علم النفس الحديث قد بين أنَّ الإنسان قد ينسب إلى الآخرين ما فيه من مشاعر، ورغباتٍ لا يريد أن يراها في نفسه، فينكر وجودها فيه إنكاراً نفسياً يجعله أعمى عنها، وينسبها إلى غيره، وهذه آلية الإسقاط النفسي التي يقع فيها الإنسان دون أن يشعر، وعن طريق هذه الآلية والحيلة النفسية يقع على من يغتاب الآخرين بعض الجزاء والعقوبة على فعلته؛ لأنّه يدرك في أعماق نفسه أنَّ الغيبة لا تصدر من محبٍّ ولا من راحمٍ، بل تصدر عن مشاعر العداوة، والبغضاء، والحسد، والازدراء، ويدرك أنه يحمل هذه المشاعر تجاه الآخرين،

ولولاها لما اغتابهم، ومع إدراكه لوحدة النفس البشرية وتماثلها، يحسُّ أنَّ الآخرين يحملون له نفس مشاعر العداوة، والبغضاء، والحسد، والاستعلاء، وأنهم مثله يبحثون عن عيوبه كما يبحث عن عيوبهم، وهذا يفقده الطمأنينة، والسكينة، والسلام النفسيَّ، إذ كيف يكون مطمئناً إن ظنَّ أنَّه موضع عداوة الناس، وبغضهم، وحسدهم؟.

وبالمقابل فإنَّ الذي يحفظ لسانه عن الغيبة، ولا يترك عينيه تبحثان عن عيوب الآخرين، فلا يغتاب أحداً، ولا حتى بينه وبين نفسه، هذا الذي يمتلىء قلبه بحبِّ الخير للآخرين، والرحمة بهم، ولا يستكثر عليهم فضل الله، فإنَّه بالآلية النفسية نفسها يحسُّ أن الآخرين لا يحملون له العداوة، أو البغضاء، ولا يبحثون عن عيوبه، ونقاط ضعفه لتكون موضوعاً لغيبتهم له، وسخريتهم منه. وهذا يجعله ينعم بالطمأنينة، والسلام النفسي... سلامٌ يشبه السلام الذي ينعم به المؤمنون في الجنة.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٥ ـ ٤٧].

اللهمَّ اجعلنا جميعنا منهم، ولا تجعل في قلوبنا غلّاً للذين آمنوا، ربنا إنك رؤوفٌ رحيمٌ.

* * *

الفصل الثالث

ولا تحاسدوا

قد ينظر الإنسان حوله فيرى لدى غيره من النِّعم أكثر مما لديه. . . وهنا امتحانٌ كبيرٌ لهذا الإنسان، والشيطان لا يضيع الفرصة، فإذا نجح في مسعاه وقع هذا الإنسان فريسة مشاعر الحسد، حيث يشعر بالسُّخط، وعدم الرضا، والغيظ، والعداوة تجاه صاحب النعمة، وقد يحسُّ بالخزي بسبب تورطه في مشاعر الحسد تجاه شخص قد يكون صديقه أو قريبه، وقد تغمره مشاعر القلق والاكتئاب.

وعندما يحسُّ الإنسان بالحسد تجاه إنسانٍ آخر فإنَّه يحسُّ بالغيظ؛ لأنَّ الله قد أعطى غيره أكثر مما أعطاه، ويحسُّ بالسُّخط تجاه المعطي الكريم؛ لأنَّه عندما يقارن ما لدى غيره بالذي لديه يشعر بالحرمان. . . ومما يزيد في مشاعر السُّخط والغيظ لديه أن يكون لديه كبرٌ وتعالٍ على صاحب النعمة، فهو يرى نفسه خيراً منه، ومع ذلك أعطاه الله أقلَّ مما أعطى ذلك الأدنى.

إنَّ كبره، وتعاليه يجعلانه يحسَّ بأنَّه مظلومٌ؛ لأنَّه يرى نفسه

أهلاً لتلك النِّعم أكثر من المحسود، وتمتلىء نفسه عداءً للمحسود، وكأنَّ المحسود قد أخذ نعمةً كان من المفروض أن تكون له هو، وبذلك يشعر الحاسد أنَّ تصحيح الخطأ، أو رفع الظلم يكون بأن تزول النعمة عن المحسود، وتؤول إليه، وإن استحال انتقالها إليه فلا أقلَّ من زوالها عن المحسود الذي ليس أهلاً لها برأي الحاسد. . . إنَّه يرى في النعمة التي ميَّز الله بها المحسود عليه سبباً لتفوّق المحسود عليه، ولا تهدأ نفسه حتى تزول تلك النعمة عن المحسود، فيكون المحسود والحاسد سواءً.

وقد نبَّهنا الله في كتابه الكريم إلى حسد المنافقين لنا على نعمة الإيمان والهداية التي أعرضوا عنها، إنَّهم يحبون زوالها عن المؤمنين حتى يكونوا هم والمؤمنون سواء.

قال تعالى: ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً فَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ. . .﴾ [النساء: ٨٩].

ويقول تعالى عن الكفار من أهل الكتاب وعن المشركين: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [البقرة: ١٠٥].

ويقول أيضاً: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة: ١٠٩].

إنَّ الحاسد يتصوَّر أنَّ العدل يقتضي أن يعطيه الله مثل الذي يعطيه للآخرين، وينسى أنَّ فضل الله يؤتيه من يشاء؛ لأنَّ الله لا يسأل عما يفعل، ولا يحلُّ لبشر أن يتدخَّل في شؤونه ومشيئته، أو أن يحدِّد له من يعطي ومن يمنع.

إنَّ عطاء الله وفضله شأنه سبحانه وتعالى، ولا يليق بالمؤمن إلا أن يرضى بما يقضيه الله، ويقدِّره من عطاء له وللآخرين.

ولا ينسى المؤمن أنَّ عطاء الدنيا إنّما هو فتنةٌ واختبارٌ، وأنَّ لله حكمة بالغة في أن فاوت في العطاء بين البشر سواء في ذلك المال، أو البنون، أو القوة، أو الجمال، أو الذكاء، أو غير ذلك من نعم. وقد بيّن الله في إحدى آيات القرآن الكريم حكمته من ذلك إذ قال: ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾

[الزخرف: ٣٢].

إذاً الغاية من التفاوت في عطاء الله في الدنيا هي أن يخدم بعضنا بعضاً، وأن تتكامل الأدوار في المجتمع.

إنَّ العدل لا يعني المساواة في توزيع فضل الله، إنما عدل الله هو أنَّه لن يحاسب أحداً إلا على أوزاره، وسيقبل منه الأعذار التي هو فيها صادقٌ ومعذورٌ، ولن يعذِّب حتى يبعث رسولاً، ولن يضيع للمؤمن ذرَّة خير عملها، إلى غير ذلك من مظاهر العدل التي على الإنسان أن يبحث عنها في علاقته الفردية الشخصية بالله، حيث لن يظلمه الله أبداً، وإن كان قد يؤتي غيره من الفضل أكثر مما يؤتيه، فهذا لا يتنافى مع العدل طالما أنه لم يظلمه ذرة خير عملها، بل أدخلها في حسابه، وأثابه عليها.

أما أن يعطي أحداً غيره ما يشاء من عطاء وفضلٍ في الدنيا أو الآخرة فإنَّ ذلك شأنه، ولا حقَّ لأحدٍ في أن يطالبه بالمساواة بين الجميع في الفضل والزيادة.

إنَّ الفضل زيادة يختصُّ بها الله من يشاء، وليس للمؤمن إلا أن يرضى، ويدعو الله أن يبارك للآخرين فيما أعطاهم، وله أن يسأل الله أن يعطيه مثلهم أو حتى أكثر مما أعطاهم.

فمشاعر الحسد دليلٌ على أنَّ نفسه راغبةٌ في الحصول على مثل الذي حصل عليه الآخرون، وإن كان راغباً فعليه بذل

الجهد، وأكثر الحسد يأتي ممن يرى نفسه عاجزاً عن تحقيق ما يريد، فهو لا ثقة له بنفسه، فيتمنى ولا أمل له في الحصول على ما يريد، ويشغل نفسه بمشاعر الحسد نحو الآخرين، وقد تدفعه مشاعر الحسد إلى السَّعي إلى تدمير ما بأيديهم من نعمة ولو بارتكاب الجرائم البشعة أحياناً؛ لذا أمرنا الله أن نعوذ به من شرِّ حاسدٍ إذا حسد.

وما قتل ابن آدم الأول أخاه إلا حسداً أن تقبَّل الله من أخيه قربانه ولم يتقبَّل منه، وبدل أن يصلح من نفسه بحيث يتقبَّل الله منه قام بقتل أخيه، كما أراد إخوة يوسف ـ عليه السلام ـ قتله حسداً منهم له على حبِّ أبيه له.

* * *

الفصل الرابع

ستر أو حدٌّ

لقد أجريت دراساتٌ نفسية كثيرةٌ لمعرفة الأثر في سلوك الإنسان للنماذج السلوكية التي يراها، وهل يتأثر سلوكه زيادةً أو نقصاناً برؤيته لآخرين يقومون بسلوكٍ معين، والدراسات كلُّها أكَّدت أثر النماذج التي يراها الإنسان، حيث إنَّه يميل إلى تقليدها والاقتداء بها، إلا إن رأى أنّها قد عوقبت على سلوكها، ونالها من جرّائه ألمٌ ومعاناةٌ.

أما إن هو رأى شخصاً ما يفعل فعلاً ما، وكان واضحاً له أنَّ الفعل قد جلب لمن قام به منفعة، أو متعةً، أو غير ذلك مما تحبُّ النفس، فإنه يميل إلى تقليده في المستقبل.

وعلماء النفس يسمُّون هذا الاقتداء «تعلُّماً بالمحاكاة والتقليد». ويميزون بينه وبين تقليد القرود للإنسان، حيث تقليدها أقرب إلى المحاكاة الآلية منه إلى تعلم نمطٍ سلوكيٍّ معين، يصبح خياراً للنفس تلجأ إليه إذا ما مرت بموقف يشبه الموقف؛ الذي كان فيه من رأته يقوم بالفعل أول مرةٍ، وهذا التقليد والاقتداء عند الإنسان لا يكون فورياً عادةً، بل قد يقع

متأخراً ولو بعد سنين، ويكون ذلك اقتداءً وتعلماً مما رأى الإنسان ذات مرةٍ.

وعندما يفعل الإنسان فعلاً، ويتبع فعله هذا لذةٌ أو راحةٌ من معاناةٍ، فإنَّه يميل إلى تكرار هذا الفعل، وكذلك عندما يرى غيره يفعل فعلاً يجلب له المتعة، أو يريحه من المعاناة، فإنَّ نفس الإنسان تميل إلى هذا الفعل الذي رآه، وكأنَّه هو الذي جرَّب الفعل ونتيجته بنفسه.

وأثر النموذج، أو القدوة، وأثر ما يراه الإنسان من أفعالٍ تجرُّ مكافأةً، أمرٌ يقلق العلماء من حيث ما يراه الناس، وبخاصةٍ الأطفال في أفلام العنف، والجريمة، أو الإباحية، حيث تشكِّل شخصيات الأفلام قدوةً للإنسان، ونموذجاً تميل نفسه إلى تقليده، والاقتداء به.

وأثر النماذج لا يقتصر على النماذج المرئية، بل حتى النماذج المحكية التي يسمع الإنسان عنها وعن سلوكها، فإنها تؤثر فيه بالطريقة نفسها، وتولِّد في نفسه الميل إلى سلوك سبيلها والتصرف مثلها، إلا إن علم أنَّ سلوكها الخاطىء قد جرَّ عليها العقوبة، والآلام.

لذا كان في نشر قصص الجريمة إشاعة للجريمة، وفي نشر قصص الفاحشة إشاعة للفاحشة، وبخاصةٍ إن كانت قصصاً

لأناس حقيقيين، فإنَّ أثرها أكبر من أثر القصص المتخيَّلة والمؤلَّفة، وهنا تتجلى لنا الحكمة في أن حرّم الله قذف مؤمنٍ أو مؤمنة، وإشاعة أنَّه ارتكب فاحشةً ما، والذي يشيع ذلك عن أحد من المؤمنين يعاقب بالجلد، وبرفض شهادته بعدها ما عاش ما لم يأت بأربعة شهداء رأوا بأعينهم ما يدَّعيه، والقذف قذفٌ حتى لو كان القاذف صادقاً، فهو آثمٌ في إشاعة ذلك، إلا إن كان لديه الشهداء الأربعة؛ لأنَّه بذلك يدمِّر سمعة مؤمنٍ أو مؤمنةٍ، ومن جهة أخرى لأنَّه يبثُّ في المجتمع قصَّةً تكون نموذجاً سيئاً، يحرِّض الكثيرين على أن يقعوا في مثله، إلا إن كان هنالك من الشهود ما يكفي لإثبات الفاحشة، وبالتالي لإيقاع الجزاء على مرتكبها، وعندها لا يُذكر النموذج السلوكيُّ الرديء إلا ويذكر معه العقوبة التي تلته، وهذا يكون له أثر إيجابيٌّ في سلوك الناس، بعكس إشاعة الحكاية دون عقوبة مرتكبها.

وقد سبق القرآن الكريم علماء النفس عندما أشار إلى دور إشاعة حكايات الفاحشة في المجتمع من حيث إشاعتها للفاحشة نفسها، ففي حديث الإفك قام المنافقون بالترويج لإشاعة مختلقةٍ عن فاحشةٍ متخيَّلة، وقد بيَّن الله تعالى أنَّ دافعهم لنشر هذه الشائعة كان حبّهم لأن تشيع الفاحشة فعلاً بين المؤمنين، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى

ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النور: ١٩].

وقد حثَّ النبيُّ ﷺ المؤمنين على ستر بعضهم بعضاً، وتوعّد المنافقين الذين كانوا يعيرون بعض المؤمنين، ويغتابونهم فقال: «يا معشر من أسلم بلسانه، ولم يفض الإيمان إلى قلبه! لا تؤذوا المسلمين ولا تعيِّروهم ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من يتبع عورة أخيه المسلم تتبَّع الله عورته، ومن تتبَّع الله عورته يفضحه ولو في جوف رحله» (رواه أبو داود والترمذي).

وقال أيضاً: «ومن ستر على مسلم في الدنيا ستر الله عليه في الدنيا والآخرة» (رواه أحمد ومسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجه).

وقد أمرنا رسول الله ﷺ بأن نستتر إذا ابتلينا بالمعاصي، أي: إن ضعفت نفوسنا ومالت إلى الحرام فليكن ذلك سرّاً، ولنستر أنفسنا، ولذلك فائدتان على الأقل:

الأولى: ألا يكون العاصي نموذجاً سيئاً يتشجع الآخرون على الاقتداء به.

والثانية: أن الإنسان ما دام يستتر عند المعصية، ويحافظ على صورته الحسنة في عيون الآخرين، فإنه يبقى لديه من الحياء

ما يدفعه إلى التوبة، أما إن جاهر بمعصيته، فإنه حتى لا يعاني من مشاعر الخزي، وحتى لا يتعذب ببقية الحياء لديه، يكابر، ويتخلّى عن حيائه، فيندفع في معاصيه، ويقنع نفسه بالمبرّرات التي تخفّف عنه الإحساس بنظرات الآخرين اللائمة له، وبذلك يبتعد كثيراً عن التوبة؛ لذا قال الرسول ﷺ: «كل أمتي معافى إلا المجاهرون، وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل بالليل عملاً، ثم يصبح وقد ستره الله، فيقول: يا فلان، عملت البارحة كذا وكذا، وقد بات يستره ربُّه، ويصبح يكشف ستر الله عنه» (البخاري ٥٧٢١ ومسلم ٢٩٩٠).

وروى البخاري أيضاً أن رجلاً سأل ابن عمر: كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى؟ فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنّ الله يدني المؤمن، فيضع عليه كنفه ويستره، فيقول: أتعرف ذنب كذا، أتعرف ذنب كذا؟ فيقول: نعم أي ربِّ، حتى إذا قرَّره بذنوبه، ورأى في نفسه أنه هلك، قال: سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم، فيعطى كتاب حسناته، وأما الكافر والمنافق فيقول الأشهاد: هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين» (البخاري ٢٣٠٩ و٢٧٢٢).

اللهم استرنا ولا تفضحنا، وعافنا واعف عنا.

* * *

القسم الثالث

في الدوافع النفسية

أ ـ خلفاء أم متألهون

ب ـ مشكلة الدافعية عند المسلم المعاصر

(أ) خلفاء أم متألهون

الفصل الأول : معنى الحياة

الفصل الثاني : اختبار الصلاحية للخلافة في الأرض

الفصل الثالث : الفطرة في اللاشعور

الفصل الرابع : الران

الفصل الخامس: حقيقة الكبر

الفصل السادس: (أ) الكبر يدفع إلى الكفر

الفصل السابع : (ب) الكبر يدفع إلى الكفر

الفصل الثامن : المتألهون الجاحدون

الفصل التاسع: اختبار القابلية للهداية

الفصل الأول

معنى الحياة

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٣٠].

وقال أيضاً: ﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴾ [الملك: ١ ـ ٢].

يسعى الإنسان الذي لم يؤمن، ولم يهتد بنور الإيمان... يسعى إلى أهدافٍ مختلفة في حياته، فقد يسعى إلى الثروة، أو الشُّهرة، أو الجاه، أو كلِّ ذلك، أو غير ذلك... ويستغرق في سعيه غافلاً عن أيِّ شيءٍ آخر... حتى إذا أخذ يتفكَّر يوماً، ويتساءل: وماذا بعد ذلك؟ ماذا بعد أن تزداد الثروة، وتبلغ الأرقام الكبيرة؟ وماذا بعد أن تبلغ الشُّهرة حدّاً بعيداً؟ ماذا بعد ذلك؟ وما معنى هذا كله طالما أنَّني سأموت وأترك كلَّ ذلك؟

وعندما يصل الإنسان إلى هذه المرحلة، مرحلة التساؤل

عن معنى حياته، وعن معنى الحياة الإنسانية عموماً وغايتها، فإنَّه من دون الإيمان بالله واليوم الآخر يشعر بالضياع والعبث، وأنَّه ليس هنالك شيءٌ له معنىً.

وإذا ما عجز الإنسان عن اكتشاف معنى وجوده، وعجز عن أن يضفي على حياته ولو معنىً مخترعاً من عنده على الأقلِّ، فإنّ حياته تصبح حياةً يائسةً، كئيبةً، قلقةً، فيأخذ يقلِّب الفكر، والرأي: هل يستمرُّ في حياة خالية من المعنى برأيه، أم ينسحب من هذا الوجود فينهي حياته ويستريح؟

قليلون هم الذين ينتحرون، أما الأكثرون فيجدون لحياتهم معنىً، وهدفاً في واحدٍ أو أكثر من النّشاطات المفيدة، ينشغلون بها، ويملؤون بها حياتهم.

منهم من يكرِّس ما يستطيع تكريسه من وقته، وجهده، وماله لعمل الخير والإحسان، فيكون العطاء في الحياة ونفع الآخرين هدفهم وغايتهم.

ومنهم من يجعل لحياته معنىً من خلال تكريسها لقضيَّة من نوعٍ ما سياسية، أو إصلاحيَّة فكريَّة، أو غير ذلك.

والبعض القادرون على الإبداع يجدون المعنى في الاستمرار في إبداعهم.

وهذه المعاني، والأهداف الحيويّة التي يتبنّاها كثيرٌ من

الناس ليست إلا صوراً ومظاهر للهدف الأصليِّ الذي خلق الإنسان من أجله، وهو أن يكون خليفةً لله في أرضه. فالخلافة في الأرض لها صورٌ عديدةٌ، وكلُّ عملٍ يتمثل فيه الإنسان صفةً من صفات الخالق، ويعمل على أن يحقِّق في نفسه ما يقدر على تحقيقه منها إنّما هو مظهر من مظاهر الخلافة في الأرض، إذ ليست الخلافة في الأرض مقصورةً على العمران والبناء، إنّما علم العالم خلافة، وعدل العادل خلافة، ورحمة الأمِّ لصغيرها خلافة، ورعاية الأب لأسرته خلافةٌ، والإبداع خلافةٌ، ونفع الآخرين خلافةٌ. . . أليس الله هو النافع، وهو بديع السموات والأرض وهو الرحمن الرحيم الحكم العدل العليم الخبير؟.

لكن الشقيّ من لا يجد لحياته من معنىً إلا البحث عن المتعة الحسية، والأشقى منه من يستكبر فيجعل هدف حياته أن يتحدّى الخالق، ويفسد في الأرض، وينفِّر الخلق عن خالقهم، ويبث فيهم روح التَّمرُّد على ربِّ العالمين، تلك الروح التي تسيطر عليه، وتجعله شيطاناً مريداً. . . إنّه يأنف أن يكون خليفةً في الأرض، ويأبى إلا أن يكون نداً لله، خصيماً له ليرضي نزعة الكبر، والعلوِّ في نفسه.

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ [يس: ٧٧].

لكنَّ هذا الأحمق المستكبر لا يدري أنَّه رغم تمرُّده على الله، فإنَّه لم يخرج عن أن يكون المخلوق الذي يتمثَّل صفات الخالق، فهو يحقِّق في نفسه صفة الكبر، والعظمة، والعلوِّ، لكنّه شقي وتعس لأنَّه اختار الصِّفة التي حرَّم الله على البشر أن يتمثَّلوها، وتوعَّد الذين ينازعونه عظمته وكبرياءه أن يلقيهم في النّار.

قال النبي ﷺ: «قال الله عزَّ وجلَّ: العزُّ إزاري والكبرياء ردائي فمن ينازعني في واحدٍ منهما فقد عذَّبته» (رواه مسلم ـ رياض الصالحين ص ٢٧١).

إنَّه الامتحان الأكبر، والخيار بين دور الخلافة في الأرض، ودور الاستكبار فيها، والتألُّه والتعالي على الخلق والخالق العظيم.

والذي يختار الدور الصحيح تشرق نفسه بأنوار الإيمان، أما الذي يتمرد، ويتألَّه، فتظلم نفسه، وتكون معيشته ضنكاً.

واسأل عن هذه المعيشة الضَّنك إن شئت نيتشه، وكامو، وسارتر، وغيرهم... ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ [المؤمنون: ١١٥]؟!

* * *

الفصل الثاني

اختبار الصلاحية للخلافة في الأرض

مع بدايات القرن العشرين توصل علماء النفس إلى الاختبارات النفسية الأولى، وكانت تركِّز على تقدير درجة الذكاء عند المفحوص عن طريق أسئلةٍ توجَّه إليه، ودراسة إجاباته عليها.

ثمَّ تقدَّم علم الاختبارات النفسية، وصار هنالك أنواع منها، ولعلَّ من أهمِّها اختبارات الشخصية، حيث يتمُّ التَّعرُّف على ميول الشخص وخصاله من خلال إجاباته على مجموعةٍ كبيرةٍ من الأسئلة.

لكنَّ القرآن الكريم يحكي لنا قصة أول اختبارٍ نفسيٍّ في تاريخ البشرية. . . وها هي الحكاية. . .

بعد أن خلق الله الأرض والسموات السبع، وبعد أن تهيَّأت الأرض لاستقبال الإنسان أعلن الله للملائكة أنَّه على وشك أن يخلق الإنسان ليكون خليفةً له في الأرض.

ودور الخلافة في الأرض دورٌ كريمٌ، تطلعت إليه نفوس

الملائكة، فعرضوا أنفسهم له، وقارنوا بينهم وبين المخلوق الجديد... فهو مخلوقٌ سيفسد في الأرض، وسيسفك الدماء... أما الملائكة الكرام فمسبِّحون بحمد الله، مقدّسون له.

لم يكن الملائكة يدركون أبعاد الدور الذي سيناط بالإنسان، وكان تصوُّرهم أنَّه بالتسبيح والتقديس يتحقَّق الاستخلاف.

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٣٠].

وأراد الله أن يري الملائكة تفوّق الإنسان عليهم في قدراتٍ تؤهله لأن يكون الخليفة في الأرض من دونهم.

قال تعالى مكمِّلاً لنا تلك القصة الرائعة: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ [البقرة: ٣١ ـ ٣٣].

لم يكن ذلك اختباراً ومباراةً في القدرة على التذكّر والحفظ،

فالملائكة لا يعرفون النسيان؛ لأنَّهم كما أخبرنا تعالى عنهم يفعلون ما يؤمرون، ولا يمكن أن يفعلوا ما لا يؤمرون، هكذا بإطلاقٍ، إن كان النسيان من طباعهم، أمّا آدم فالنسيان من طبعه، ولولا نسيانه لتحذير الله له من عداوة إبليس له لما وقع في إغوائه، ولما عصى ربَّه وهو في جنَّة الخلد. . .

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥].

وقد كثرت الآراء، وتنوَّعت في المقصود بقوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١].

وقد مال ابن كثير ـ رحمه الله ـ إلى أنَّها أسماء الأشياء كلِّها: ذواتها، وصفاتها، وأفعالها.

وإذا ما تذكّرنا أنَّ الاختبار لم يكن اختبار ذاكرةٍ، وأنَّ تفوّق آدم على الملائكة لم يكن تفوّقاً في الحفظ والتذكر، كما أنَّه ما كان الله ليلقِّن آدم معلوماتٍ معيّنةٍ، ويحجبها عن الملائكة، ثمَّ يجعل معرفة آدم لها مقياساً لتفوقه على الملائكة، ودليلاً لصلاحيَّته أكثر منهم لدور الخليفة في الأرض، إنَّما التفوق في الصلاحية يكون نتيجة تفوّق في القدرات، وهذا يجعلنا نفهم أنَّ تعليم الله لآدم ما كان تلقيناً، بل كان إقداراً له على تسمية كلِّ شيء.

ولا يشكل علينا قوله تعالى «وعلَّم» إذ خلق الله الإنسان، وعلَّمه البيان، دون أن يعني ذلك أنَّ الإنسان يولد وهو يجيد الكلام وغيره من طرق البيان عما في نفسه، بل كلُّها تقريباً مما يتعلَّمه في صغره، لكنَّه يتعلمه لوجود القدرة لديه على تعلمه، وهو يتعلم منه ما يكون متوافراً له في بيئته الاجتماعية.

وعندما تعرض الأشياء على الملائكة وعلى آدم، فتعجز الملائكة عن تسميتها؛ لأنَّها لم تتلقّن أسماءها من قبل، أما آدم فيسمِّيها، وبذلك تظهر قدرته على إطلاق الأسماء على الأشياء، وهي القدرة على الترميز، أي: إعطاء الرموز للأشياء، والدَّلالة بالرمز على الشيء، كما تظهر قدرته على تكوين المفاهيم وإبداعها، حيث يستخلص مما يراه مفاهيم يستخدمها في وصف ما يرى من أشياء وأفعال، وفي تصنيفها بشكلٍ يسهل معه إطلاق اسمٍ واحدٍ على أشياء عديدةٍ تشترك في خواصَّ معينةٍ، وهذه القدرة على الترميز، وعلى إبداع المفاهيم ما كان للإنسان أن يفكِّر بالطريقة الفائقة التي يفكر بها، وما كان له أن يبدع ما أبدعه لولاها.

إنَّها بحقٍّ قدرة تجعل منه كائناً أصلح من غيره من الكائنات لدور الخليفة لله في أرضه، ذلك الخليفة الذي يستطيع أن يبدع، ويجتهد في المواقف المختلفة، وأن يجد الحلول للمشكلات التي تعترضه، منطلقاً مما أعطاه الله من قدراتٍ

عقلية لم يعط مثلها حتى للملائكة الكرام.

ونعود إلى حديثنا عن الاختبارات النفسية لنجد أنَّ هذا الاختبار الذي تعرَّض له آدم، كان أوَّل اختبار ذكاء في التاريخ، أجراه الحكيم العليم.

* * *

الفصل الثالث

الفطرة في اللاشعور

قال رسول الله ﷺ: «ما من مولودٍ إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهوّدانه، أو ينصّرانه، أو يمجّسانه، كما تنتج البهيمة بهيمةً جمعاء، هل تحسُّون فيها من جدعاء» (البخاري).

وجاء في الحديث القدسيِّ: أنَّ الله عزَّ وجلَّ قال: «. . . وإني خلقت عبادي حنفاء كلَّهم، وإنَّهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرَّمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً. . . » (مسلم).

إذاً هي الفطرة، والتوحيد لله، يولد الجميع بها، وعندما يكبرون يقعون في تأثير البيئة؛ التي إما أن ترعى هذه الفطرة، وتحافظ عليها، أو أن تحرفها، وتشوِّهها.

وقد حفظ الله هذه الفطرة من أن يؤثِّر فيها كفر الآباء والأمهات، أو شركهم، فكلُّ هذا لا ينتقل إلى الذّرِّيَّة عن طريق الوراثة، ذلك أنَّ الصفات المكتسبة التي تطرأ على المخلوق بعد أن تكوَّن في بطن أمِّه، هذه الصفات لا تنتقل إلى ذرِّيَّته، وهذا ما أثبته علم الوراثة الحديث بعد أن كان علماء

القرن التاسع عشر يظنون أنَّ الزرافة التي مدَّت عنقها إلى الأشجار العالية، فطال عنقها، فجاءتْ ذريتها طويلة الأعناق، هذا اعتقادٌ خاطئٌ، وقد بيَّن العلماء أخيراً بطلانه.

أمّا نبيُّنا ﷺ الذي كان يتلقى عن العليم الخبير فقد أكَّد عدم تأثُّر الذرية بالصفات المكتسبة، عندما لفت الأنظار إلى أنَّ البهيمة جدعاء كانت أو كاملة الخلقة لا تنتج بهيمةً جدعاء، أي: مقطوعاً أنفها، أو أحد أطرافها.

وقد أكَّدت حادثة الإشهاد التي أخبرنا الله عنها في القرآن الكريم الأمر ذاته، أي: عدم انتقال الصفات النفسية المكتسبة من شركٍ بالله ونحوه إلى الذرية.

فقد أخذ الله من الناس من ظهورهم ذريتهم وأشهد هذه الذرية على نفسها، فاعترفت أنَّ الله ربُّها وخالقها، وذرية الإنسان تكون في ظهره عندما يكون هو نفسه جنيناً في بطن أمه دون الشهرين من عمره الجنينيّ.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾

[الأعراف: ١٧٢ ـ ١٧٣].

وقد حار كثيرٌ من العلماء قديماً في فهم هاتين الآيتين اللتين ترويان قصَّةً لا نذكرها، وبخاصةٍ أنَّ المولى تعالى يقول في آيةٍ أخرى: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل: ٧٨].

إننا في هذا العصر الذي عرفنا فيه الكثير عن الدماغ البشريِّ، وعن النفس الإنسانية لن نقع في حيرةٍ لنفهم قصَّة الإشهاد التي أخبرنا عنها الحقُّ سبحانه وتعالى... فقد أظهر العلم لنا أنَّ هنالك جزءاً كبيراً جداً من دماغ الإنسان يعمل بشكلٍ لا شعوريٍّ، ولا نستطيع الوصول إلى ما فيه من أفكارٍ ومعلوماتٍ، إنما هو يرسل إلينا حصيلة ما لديه من أفكارٍ ومعلوماتٍ على شكل أحاسيس قلبيةٍ، ومشاعر وجدانيةٍ.

وهكذا الفطرة ومعرفة كلِّ إنسان لخالقه العظيم، إنما هي مخزونةٌ في اللاشعور يصلنا منها مشاعر الارتياح والانشراح القلبيِّ للإيمان بالخالق الواحد الأحد.

قال تعالى: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

وقد أشار الرسول ﷺ إلى اللاشعور في أحاديثه، فقد قال عندما سئل عن البرِّ: «استفت قلبك، البرُّ ما اطمأنت إليه النفس واطمأنَّ إليه القلب، والإثم ما حاك في النفس وتردَّد في الصدر وإن أفتاك الناس وأفتوك» (أحمد والدارمي).

إذاً هما اثنان مفكران: نفسٌ وقلبٌ، إن اجتمعا عند المؤمن على شيءٍ فهو البرّ، وهذا ما تقوله العلوم الحديثة، فهما شعورٌ ولا شعورٌ، شعورٌ سمّاه الحديث الشريف نفساً، ولا شعورٌ سماه قلباً.

أما الكافرون الذين يرفضون الحقَّ في البداية عن وعيٍ، فإنَّ قلوبهم تزيغ، ثم يصير رفضهم للحق على المستويين: النفس والقلب.

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [الصف: ٥].

وقد بيّن ﷺ بوضوحٍ أنَّ الفطرة موضعها اللاشعور، فقد قال حذيفة ـ رضي الله عنه ـ: حدّثنا رسول الله ﷺ حديثين، رأيت أحدهما، وأنا أنتظر الآخر: «أنَّ الأمانة نزلت في جذر قلوب الرِّجال، ثم علموا من القرآن، ثم علموا من السُّنَّة» وحدثنا عن رفعها. . . إلى آخر الحديث. (البخاري).

وواضح أنَّ الجذر من النبات هو الجزء الخفيُّ الحيُّ الفعال منه، وليس أفضل من هذا التشبيه لتقريب مفهوم اللاشعور للأذهان.

* * *

الفصل الرابع
الرّان

إنَّ لأفعال الإنسان أثراً في نفسه يبقى بعد انتهائه منها، ونسيانه لها، لأنَّه ينغرس في القلب، في جزءٍ لا شعوريٍّ من الدماغ، وهذا الأثر يقع على هوى الإنسان وميوله، فالفعل الذي تلته متعةٌ حسيةٌ أو معنويةٌ، أو تلاه زوال معاناةٍ حسيةٍ أو معنويةٍ، هذا الفعل يترك أثراً في القلب يجعل هوى الإنسان ميالاً إليه، فترغب نفسه فيه وتشتهي تكراره.

وبالمقابل فإنَّ الفعل الذي يتلوه ألمٌ حسيٌّ أو معنويٌّ، أو يؤدي إلى فوات متعةٍ حسيةٍ أو معنويةٍ، يكون له في النفس أثر يجعلها أقلَّ رغبةً فيه، وأقلَّ ميلاً إلى تكراره.

وهذه الآثار للأفعال التي نقوم بها لا تعتمد على الناحية المعرفية فحسب، فحتّى لو نسي الإنسان التجربة التي مرَّ فيها، وتركت أثرها في نفسه، فإنَّ ما تركت من أثرٍ في ميولهِ وأهوائه يبقى قائماً ومؤثراً فيها.

المهمُّ أن يبدو الأمر للدماغ على نحوٍ يربط فيه ما بين الفعل ومتعته أو الفعل وعاقبته المؤلمة.

ولعلَّ هذا يعيننا على فهم الآلية التي تؤثر فيها أفعال الناس على أهوائهم بما يخصُّ إيمانهم بخالقهم ورسالاته، أو كفرهم به وبها.

وقد بيَّن لنا المولى سبحانه وتعالى أنَّ ما يكسبه الإنسان يمكن أن يرين على قلبه، فيكون مثل ختمٍ يعميه عن أن يرى آيات الله، وعن أن يؤمن بها.

قال تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (١٠) الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (١١) وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (١٢) إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (١٣) كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾

[المطففين: ١٠ ـ ١٤].

وقال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

وبالمقابل لا يكتمل إيمان المؤمن حتى يكون هواه موافقاً لدين الله.

قال ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به» (رواه ابن أبي عاصم في السنة رقم ١٥، والبغوي في شرح السنة ١/ ٢١٣، والبغدادي في تاريخه ٤/ ٣٦٩، والديلمي في فردوس الأخبار رقم ٧٦٩٠، وانظره في الأربعين النووية الحديث قبل الأخير، وقال النووي: حديث صحيح).

وقد فصَّل النبيُّ ﷺ في بيانه لأثر الأعمال في نفس مرتكبها، وفي بيانه للكيفية التي ترين بها على قلب فاعلها.

قال حذيفة ـ رضي الله عنه ـ: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «تعرض الفتن على القلوب كالحصير عوداً عوداً، فأيُّ قلبٍ أشربها نكت فيه نكتةٌ سوداء، وأيُّ قلبٍ أنكرها نكت فيه نكتةٌ بيضاء حتى تصير على قلبين: على أبيض مثل الصّفا فلا تضرُّه فتنةٌ ما دامت السموات والأرض، والآخر أسود مربادّاً كالكوز مجخّياً لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً إلا ما أشرب من هواه. . .» (مسلم ـ كتاب الإيمان).

وقال ﷺ: «إنَّ المؤمن إذا أذنب كانت نكتةٌ سوداء في قلبه، فإن تاب ونزع واستغفر صقل قلبه، فإن زاد زادت، فذلك الرّان الذي ذكره الله في كتابه ﴿كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾ (ابن ماجه وأحمد).

والران الذي تخلِّفه المعاصي في نفس الإنسان يطمس على قلبه، ويفقده شفافيّته وحساسيّته، وإن كان ذلك لا يفقد الإنسان القدرة على الإيمان بعد كفر، وعلى التوبة بعد جهالة، لكن لا بدَّ من العمل الصالح، والتوبة، والاستغفار ليصقل قلبه، ويعود إلى نقائه وحساسيّته.

وبالعمل الصالح يتشكَّل هوى الإنسان تبعاً لما جاء به

محمدٌ ﷺ من هداية لنا من عند خالقنا جلَّ في علاه.

والفرائض تحقِّق حدّاً أدنى من ذلك، لكنَّ إكثار المؤمن من الطاعات التطوعية، والجهاد في سبيل الله، وغيرها، كلُّها تصوغ هواه صياغةً تعود به إلى الفطرة التي ولد عليها، بحيث تميل نفسه إلى الطاعات ميلاً يعينه على المزيد منها، فلا يحتاج إلى إكراه نفسه عليها، فقد زالت من نفسه النواهي النفسية التي تعاكس رغبته في الطاعات، وبقيت الدواعي النفسية؛ التي تشدُّه إلى الطاعات، وتحبِّبها إليه، وعندها يجد المؤمن متعته ولذَّته في الطاعات؛ لأنَّ هواه وميل قلبه صار تبعاً لدين الله، ومنسجماً مع فطرة الله التي فطر الناس عليها.

* * *

الفصل الخامس

حقيقة الكبر

قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

الناس سواسية في القدر والكرامة إلا من رفعته تقواه عند الله، والتَّقيُّ لا يسمح لنفسه بالتعالي على أحد؛ لأنَّه لو أعجب بتقواه وتعالى بها على الآخرين لخرج من زمرة المتَّقين.

قال تعالى عن المؤمنين المتقين: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَـٰبِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٧ ـ ٦١].

وقد سألت عائشة ـ رضي الله عنها ـ رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله! الذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلةٌ هو الذي يسرق، ويزني، ويشرب الخمر وهو يخاف الله عزَّ وجلَّ؟ فقال ﷺ: «لا يا بنت الصديق! ولكنَّه الذي يصلِّي ويصوم

ويتصدق وهو يخاف الله عزَّ وجل» (رواه أحمد ـ انظر تفسير ابن كثير مجلد ٣ ص ٢٤٨).

وفي رواية أخرى أنَّه قال: «لا يا بنة الصديق! ولكنهم الذين يصلّون ويصومون ويتصدقون وهم يخافون ألا يتقبَّل منهم، أولئك يسارعون في الخيرات» (رواه الترمذي ـ انظر تفسير ابن كثير مجلد٣ ص٢٤٨).

صحيحٌ أنَّ الأتقى هو الأكرم عند الله، لكنَّ التقوى، والعجب، والتَّكبُّر لا تجتمع في قلبٍ واحدٍ، فهي متناقضاتٌ كالليل والنهار، لا يتسع مكانٌ لهما مجتمعين.

وإذا اقتضت التقوى نقاء القلب من العجب والتكبر، فما الذي يبرر للإنسان أن يتعالى على أخيه الإنسان، والله قد ألغى كلَّ مقياسٍ آخر لتكريم بشرٍ على بشرٍ إلا التقوى؟

والعجب كما يعرِّفه الإمام الغزاليُّ ـ رحمه الله ـ هو: استعظام النفس وخصالها التي هي من نعم الله، والركون إلى هذه النفس وإلى خصالها، مع نسيان إضافتها إلى المنعم. ومع الأمن من زوالها.

والكبر: أن يرى الإنسان نفسه فوق غيره في صفات الكمال، فيحصل فيه نفخةٌ، وهزَّةٌ من اعتقاده بهذه الفوقية.

والعجب سبب الكبر، ولكنَّ الكبر يستدعي متكبّراً عليه،

والعجب مقصورٌ على الانفراد.

رحم الله الغزاليّ فقد وضَّح العجب والكبر توضيحاً رائعاً، والعجب بالمصطلح النفسيِّ الحديث هو «النرجسية»، حيث يشتمل مفهوم الذات عند الإنسان النرجسيِّ على اعتقادٍ راسخٍ بتفوّقه على الآخرين في صفات هامَّةٍ كالذكاء، والجمال، وغير ذلك.

والنرجسيُّ يدلُّ على الناس، فيرى له عليهم حقَّاً ومكانةً، ويستغرب إن هم لم يقدِّموا له ما يوجبه عليهم هذا الحقُّ وهذه المكانة.

وعلماء النفس يرون أنَّ للتربية في الصِّغر دوراً خطيراً في تضخيم نرجسيّة الإنسان، وإعجابه بنفسه، وذلك عندما يكثر الوالدان من مديح طفلهما، والادّعاء أنَّه ذكيٌّ، أو جميلٌ، أو غير ذلك بما لا يتناسب مع ما فيه من ذكاء أو جمال... ويكثران من تدليله بناءً على تفوّقه المزعوم.

لكن هنالك نرجسيةٌ وكبر يقع فيه الإنسان باختياره لما يجد في الشعور به من متعةٍ، فيقنع نفسه أنَّه الأفضل، ويرى نفسه أنَّه الأكرم، ويحتقر الآخرين، ولا يعجزه أن يجد مبرِّراً لعجبه بنفسه، وتعاليه على الآخرين، حتى إنَّ البعض قد يتعالى على غيره دون مبرِّر مقنع؛ لذا كان «الفقير المتعال» من الذين لا ينظر إليهم الله يوم القيامة كما قال النبي ﷺ.

إنَّ الكبر والتعالي موقفٌ نفسيٌّ إراديٌّ، يقفه الإنسان من الآخرين؛ لأنَّه يشبع لديه شهوة نفسيةً، ويحقّق له أغراضاً نفسيةً تقلِّل قلقه، وتوحي إليه أنَّه بخير طالما أنَّه يتمتع بالبشرة البيضاء لا السوداء، أو أنَّه ينتمي إلى قوم معينين، أو أنه غنيٌّ، أو قويٌّ، أو جميلٌ. . . بل قد يتكبر الرجل على المرأة، والراشد على الطفل.

والعجب والكبر يكمنان وراء أيِّ شكل من أشكال التمييز العنصريِّ.

وقد بذلت الحكومة الأمريكية بمعونة علماء النفس الكثير من أجل تخفيف تعالي البيض على السود، لكنَّ جدوى ذلك كانت ضئيلة، إذ ليس تعالي الأبيض على الأسود، أو تعالي الرجل على المرأة نتيجة معلومات خاطئةٍ لدى المتعالي عن المتعالى عليه، إنما هو رذيلةٌ، وموقفٌ إراديٌّ يقفه إنسانٌ ناقص الأخلاق؛ لذا قال النبي ﷺ: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرةٍ من كبر» فقال رجل: إنّ الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً، ونعله حسنةً؟ فقال النبي ﷺ: «إنّ الله جميل يحبُّ الجمال، الكبر: بطر الحقِّ، وغمط الناس» (رياض الصالحين ص ٢٧٠).

* * *

الفصل السادس

(أ) الكبر يدفع إلى الكفر

قال رسول الله ﷺ: «بينما رجلٌ يمشي في حلَّةٍ تعجبه نفسه مرجَّل رأسه يختال في مشيته إذ خسف الله به فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة» (متفق عليه). (يتجلجل: يغوص وينزل).

إنَّ التكبر أقبح رذيلةٍ يقع فيها الإنسان، إذ حقيقة الكبر كما قال النبي ﷺ أنّه: بطر الحقِّ وغمط الناس.

فالتكبر لا يقتصر على التعالي على الناس، وازدرائهم، والنَّظر إليهم على أنَّهم دون المتكبِّر، وبالتالي الترَّفُّع عن الدُّخول معهم في علاقة إنسانيةٍ حميمةٍ صادقةٍ، إنما الكبر إضافةً إلى ذلك بطرٌ للحقِّ، أي: إنكارٌ للحقِّ، ورفضٌ لقبوله (المعجم الوسيط)، والكبر هو الدافع للكفر، والتمرّد على الخالق.

فمنذ أوَّل تمرُّدٍ على أوامر الخالق العظيم كانت الكبرياء دافعه، فعندما أمر الله الملائكة ومعهم إبليس أن يسجدوا لآدم، أبى إبليس السجود لآدم طاعةً لله؛ لأنَّه تكبَّر على آدم، ورأى نفسه خيراً منه.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤].

ولما سأل الله إبليس عمّا منعه من تنفيذ أمره سبحانه وتعالى ظهرت كبرياء إبليس، تلك الكبرياء التي من أجلها أورد إبليس نفسه مورد التهلكة، فهو يعلم علم اليقين أنَّ كبرياءه ستؤدي به إلى جهنَّم؛ لأنَّه رأى بعينيه ما آمنا به بالغيب، ومع ذلك فإنَّ كبرياءه جعلته يتحدى خالقه.

إنَّ تعاليه على آدم جعله يتمرد على أمر الله، ويفسق عنه، وفسوقه هذا أخرجه من دائرة الإيمان إلى حيث الكفر والعصيان، فلم ير أنَّه قد أخطأ في تماديه مع كبريائه، بل وضع اللَّوم على ربِّ العالمين، ودخل في تحدٍّ معه، وعزم على أن يغوي آدم وذرِّيته.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١١ ـ ١٧].

مخلوقٌ صغيرٌ يتحدى الخالق العظيم، يريد أن يفسد في الأرض، ويحرف الخليفة الذي جعله الله فيها عن دوره ليوقعه في الرذيلة التي وقع فيها هو، رذيلة الكبر، والتَّعالي، والتمرد، والكفر، والفسوق.

إنَّه يوقظ في نفوس البشر كبرياء مهلكةً، تحول بينهم وبين طاعة الله والإيمان بآياته ورسله.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ۚ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [غافر: ٥٦].

وقد كانت الكبرياء وراء كفر الأقوام برسلهم، والملأ من قوم صالح أعلنوا كفرهم ترفُّعاً منهم عن أن يسلكوا سبيل الإيمان؛ لأنَّ بعض المستضعفين قد سلكوه.

قال تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾

[الأعراف: ٧٥ـ٧٦].

إذاً لم يمنعهم من الإيمان بصالحٍ عليه السلام، وما يدعو إليه من توحيد الله تعالى أنَّ صدقه لم يتبيَّن لهم، أو أنَّ الدلائل

على نبوّته لم تكن كافية، إنّما هو حرصهم على مخالفة المستضعفين الذين آمنوا، وعلى التّرفُّع عن أن يكونوا معهم في زمرةٍ واحدةٍ.

فلئن كانت الجنة في آخر الطريق التي اختارها المستضعفون، فإنَّ الكبراء المتعالين يفضِّلون الطريق الأخرى، ولو أدَّت بهم إلى نار جهنَّم.

عجيبٌ أمر هذا الإنسان، يتكبَّر، ويحطِّم نفسه من أجل كبريائه.

والله الذي حرَّم الكبرياء لم يحرمنا الكرامة، فهو الذي كرَّم بني آدم، والناس أحياناً يخلطون بين الكرامة والكبرياء، فيقولون: منعته كبرياؤه من كذا وكذا، أو: منعها كبرياؤها من كذا وكذا، وهم يشيرون إلى مواقف إنسانية رائعةٍ، والدِّقَّة تقتضي أن يقولوا: منعته كرامته، ومنعتها كرامتها.

والحرص على الكرامة فضيلةٌ، أما الانسياق وراء الكبرياء فرذيلةٌ ما بعدها رذيلةٌ.

* * *

الفصل السابع

(ب) الكبر يدفع إلى الكفر

قال تعالى: ﴿ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾ [النحل: ٢٢].

وقال أيضاً: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [لقمان: ٦ ـ ٧].

إنَّ الكبر الذي يمنع كثيراً من النَّاس من الإيمان بالله ورسله، والاستجابة إليه، لا ينحصر في استعلائهم على من حولهم من البشر، ولا ينحصر في تعاليهم على رسولٍ منهم يأنفون من اتّباعه، أو في تعاليهم على المستضعفين من قومهم؛ الذين آمنوا أن يكونوا معهم في فريقٍ واحدٍ، بل الاستكبار لا يقف عند حدودٍ.

إنَّهم يستكبرون عن عبادة الله والخضوع له، ويستنكفون، أي: يأنفون ويمتنعون استكباراً منهم عن أن يسجدوا لله، ويبتغوا رضاه.

إنَّهم يعيشون في أنفسهم إحساساً طاغياً بعظمةٍ وهميَّة، تجعلهم يتجرّؤون على تحدّي الخالق، وعلى إساءة الأدب في حقِّه.

قال تعالى عن أحدهم: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۝٧٧ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٧ـ٧٨].

مجادلٌ وقحٌ، أوَّله نطفةٌ وآخره جيفةٌ يقف خصيماً مبيناً يجادل في آيات الله، يريد أن يثبت كفره، ويدحض الإيمان بالخالق العظيم واليوم الآخر، ولولا استكباره، وإحساسه بوهم العظمة لما وقف موقف التحدي هذا.

وقد بيَّن الله تعالى أنّ الكافرين يرفضون الهداية، ويعرضون عنها لأنَّهم يأنفون، ويستكبرون عن عبادته جلَّ جلاله، وذلك في آياتٍ كثيرةٍ في القرآن الكريم، منها قوله تعالى: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٧٢].

وقال تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَـٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَـٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

والاستكبار يصدُّ الإنسان عن الإيمان رغم أنَّ الآيات والدلائل واضحةٌ أمامه، ذلك أنَّ الله لم يجعل في الكون من الآيات ما يلزم العقل إلزاماً بالإيمان به وبرسله، بل دائماً ترك فسحةً للعقل بحيث يؤمن من يؤمن إيماناً بالغيب، ولا يقول: أروني، وأسمعوني، إنما يكفيه أنَّ الآيات والدلائل من حوله قد تجاوبت مع الفطرة المغروسة في أعماق قلبه، في اللاشعور منه، وعندها يشعر بالطمأنينة في قلبه وعقله لهذا الإيمان.

فالإيمان بالله ورسالاته يقوم على الاستقراء تماماً كما تقوم العلوم الحديثة كلُّها، اللهمَّ باستثناء الرياضيات التي تعتمد على الاستنتاج، والاستقراء بطبيعته لا يصل إلى درجة اليقين الملزم للعقل، بل لا بدَّ للإنسان بعد أن يشير الاستقراء إلى حقيقةٍ ما إشاراتٍ قويةٍ، بحيث يبلغ احتمال صحتها ما يقارب المئة بالمئة، ولا بدَّ للإنسان مع هذا الاستقراء من نفحة إيمانيةٍ تجعله يتعامل مع ما قاده إليه الاستقراء تعامله مع أيَّة فكرة يقينيَّةٍ يؤمن بها.

فالإيمان بالله من خلال آياته في الأنفس والآفاق قائمٌ على الطريقة التي يقوم عليها العلم، وليس قائماً على الطريقة التي نؤمن بها بوجود الشمس التي تسطع علينا أشعتها كلَّ يوم، والتي يستحيل على العقل إنكارها، ولو كان الإيمان بالله من

هذا النوع الملزم، المكره للعقل البشريِّ لما كان لأحد القدرة على الكفر، ولفقد الإنسان حرِّيَّته في أن يؤمن أو أن يكفر، ولما كان لهذا الإيمان من فضل يستدعي الثواب العظيم.

وهنا تتدخّل كبرياء المستكبرين، إذ يتمكنون من الكفر مستفيدين من الفسحة التي تركها الله للعقل البشريِّ، ومن الحرية التي أعطاها له.

قال تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ... ﴾ [الكهف: ٢٩].

وقال سبحانه: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ... ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

وقد قال نوحٌ لقومه: ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾ [هود: ٢٨].

إنَّ الكبرياء وكراهية الهداية التي تقتضي طاعة الله، والخضوع له تجعل المستكبر يخدع نفسه، ويتعامى عن آيات الله من حوله، وبهذا لا يكون الكفر والإيمان مجرَّد معطياتٍ عقليَّةٍ، وتفكيرٍ منطقيٍّ فحسب، بل هما فعلان إراديان تقرِّر النفسُ القيام بأحدهما استجابةً للدواعي النفسية التي ترضاها.

* * *

الفصل الثامن

المتألهون الجاحدون

تترك أفعال الإنسان آثارها في قلبه حيث تزيد الطاعات من شفافيَّته، وحساسيَّته، وبصيرته، وحيث ترين المعاصي على هذا القلب فتحيله معتماً كامداً أعمى.

وأكثف الرّان، وأشده ما يترسَّب على القلب من معصية الكبر والتعالي الذي قد يصل حدَّ التَّألُّه، وقد كان فرعون مثالاً للمتألهين من البشر فقد قال لقومه: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤].

وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨].

وفي عصرنا الحاضر عبَّر فلاسفة الإلحاد عن نزعة الكفر في نفوسهم، وبدا من كلماتهم كيف يمكن لكبر الإنسان أن يبلغ حدَّ التَّألُّه، فها هو «نيتشه» في كتابه الشهير: «هكذا تكلَّم زرادشت» يعلن إلحاده، ويقول: إنَّه لو كان هنالك آلهةٌ لما تحمَّل إلا أن يكون إلهاً.

ومثله الفيلسوف الفرنسي الشهير «جان بول سارتر» الذي كان أقدر على إلباس نزعته إلى التألُّه لباساً من الفلسفة، فهو يقول: إنَّ الإنسان هو الكائن الذي مشروعه في الحياة أن يكون إلهاً.

إنه يعمِّم ما بنفسه على البشر جميعاً، ويتعامى عن أنَّ هنالك الكثيرين الذين مشروعهم في الحياة أن يكونوا عبيداً لله، خلفاء في أرضه، يهتدون بهديه، ويبتغون رضاه.

إنَّ الران الذي يتركه الكبر والتعالي يمكن أن يصل إلى حدِّ الختم على قلب الإنسان، فلا يرى آيات الله في الأنفس والآفاق، ولا يهتدي بهداه.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٦ ـ ٧].

وقال تعالى عن قوم فرعون الذين جحدوا نبوة موسى عليه السلام، قال: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٤].

وعندما يجحد الإنسان الظالم المستعلي هداية الله يتذرَّع بمبرراتٍ ظاهرها منطقيٌّ، فيقول: أنا إنسانٌ علميٌّ، لا أؤمن إلا بما تثبته التجربة الحسيَّة لي.

إنه يطالب أن نريه، ونسمعه، ونقدِّم له ما يلمسه بيديه من الآيات، ويدَّعي أنَّه سوف يؤمن في تلك الحال.

لكنَّ الله العليم بذات الصدور يخبرنا أنَّ هؤلاء المعاندين لن يؤمنوا حتى لو جاءتهم آياتٌ يرونها بأعينهم، أو يلمسونها بأيديهم، ولسوف يجدون الأعذار والمبررات لكفرهم بها.

قال تعالى: ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴾ [الحجر: ١٤ ـ ١٥].

وقال أيضاً: ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الأنعام: ٧].

ويوم القيامة عندما يرى الكافرون العذاب الذي ينتظرهم يدَّعون أنَّ العائق الذي منعهم من الإيمان كان نقص الدليل الحسي الملموس، وأنَّ هذا الدليل قد وجد، وهاهم قد آمنوا، ويطلبون فرصةً أخرى يعملون فيها الصالحات.

قال تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: ١٢].

هم أنفسهم كان لهم موقفٌ مختلفٌ في الدنيا، قال تعالى عنهم: ﴿ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا

﴿ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الجاثية: ٣٢ـ٣٣].

والله تعالى لن يعطيهم فرصةً ثانيةً؛ لأنَّه لو أعطاهم فرصةً ثانيةً لاقتضى أن يزيح ذكرى موقفهم لديه ورؤيتهم لناره إلى لا شعورهم، مثلما أزاح موقف الإشهاد الذي تمرُّ فيه ذرِّيَّة بني آدم، وذلك كي يكون الإيمان به بالغيب، فيكون داعياً لثوابه؛ إذ يكون نابعاً عن حرِّيَّة الإنسان دون أيِّ إكراه عقليٍّ.

وقد قال تعالى عن المجرمين أنَّه لو أعادهم إلى الدنيا لعادوا إلى ما نهوا عنه من معصية وكفر... قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٧ـ٢٨].

وهؤلاء المطالبون بالدليل الحسِّي الملموس هم أنفسهم عندما يحيط بهم الموج من كلِّ جانب، ويشعرون أنَّ الموت قريبٌ منهم يتنازلون عن كبريائهم، ويؤمنون بالله، ويتضرعون له مخلصين له الدين بشهادة ربِّ العالمين على إخلاصهم.

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ

ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ
لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ
يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ
ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾
[يونس : ٢٢ ـ ٢٣].

وقال تعالى: ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ
فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ [العنكبوت : ٦٥].

* *

الفصل التاسع

اختبار القابلية للهداية

في مسيرةٍ حاشدةٍ، حشر لسليمان ـ عليه السلام ـ جنوده من الجنِّ، والإنس، والطير، وذلك في انضباطٍ رائعٍ.

وتفقَّد سليمان ـ عليه السلام ـ جنوده، وتفقد الطير فلم يجد الهدهد، فقال بحزم القائد العسكريِّ الذي لا يسمح بفوضى، أو تسيّب بين جنوده، قال: مالي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين؟ لأعذِّبنَّه عذاباً شديداً أو لأذبحنَّه أو ليأتينِّي بسلطان مبين.

وعاد الهدهد من غيبته... ما كان الهدهد ليتغيب عن مسيرة الجند استخفافاً بأوامر سليمان ـ عليه السلام ـ إنما كان في عملية استطلاعيةٍ رائعةٍ.

عاد الهدهد ومكث غير بعيدٍ من سليمان عليه السلام، وقال له: أحطت بما لم تحط به، وجئتك من سبأٍ بنبأٍ يقين، إنّي وجدت امرأةً تملكهم، وأوتيت من كلِّ شيءٍ، ولها عرشٌ عظيم. وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله، وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدَّهم عن السبيل فهم لا يهتدون. ألَّا

يسجدوا لله الذي يخرج الخبء في السموات والأرض، ويعلم ما تخفون وما تعلنون. الله لا إله إلا هو ربُّ العرش العظيم.

استمع سليمان ـ عليه السلام ـ لما قاله الهدهد، لكنَّه كان حذراً يضع كلَّ الاحتمالات في باله، فلم يأخذ حكاية الهدهد شيئاً مسلّماً بصحّته، فلربَّما كانت كذبةً أراد الهدهد أن يتخلص بها من عقوبة يستحقُّها على تغيُّبه عن مسيرة الجند السليمانيّ، فأعطى سليمان ـ عليه السلام ـ للهدهد كتاباً يحمله إلى ملكة سبأٍ وينتظر ليرى ردَّ فعلهم على الكتاب. قال سليمان ـ عليه السلام ـ للهدهد: سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين. اذهب بكتابي هذا فألقه إليهم، ثمَّ تولَّ عنهم فانظر ماذا يرجعون؟

وألقى الهدهد كتاب سليمان ـ عليه السلام ـ إلى ملكة سبأ، فأخبرت قومها به... قالت: يا أيها الملأ! إني ألقي إليَّ كتابٌ كريمٌ، إنَّه من سليمان وإنَّه بسم الله الرحمن الرحيم: ألا تعلوا عليَّ، وائتوني مسلمين.

وقالت تطلب مشورتهم: يا أيها الملأ! أفتوني في أمري، ما كنت قاطعةً أمراً حتى تشهدون.

قالوا: نحن أولو قوةٍ وأولو بأسٍ شديدٍ، والأمر إليك فانظري ماذا تأمرين؟

لقد ذكَّروها بقوتهم العسكرية، لكنها لم تحبِّذ هذا الرَّدَّ على سليمان ـ عليه السلام ـ فقالت للملأ من قومها: إنَّ الملوك إذا دخلوا قريةً أفسدوها، وجعلوا أعزَّة أهلها أذلَّةً، وكذلك يفعلون... وإنِّي مرسلةٌ إليهم بهديَّة فناظرةٌ بم يرجع المرسلون.

كانت تريد اختبار صدق سليمان ـ عليه السلام ـ في دعوته لها ولقومها إلى الإسلام، أكانت دعوته نابعةً من رغبة في توسيع الملك وكسب المال؟ إذاً فليكن له المال والهدايا، وعندها يتناسى أمر الدعوة.

لكنَّ سليمان ـ عليه السلام ـ كان يريد إسلامهم لا أموالهم.

فلما جاء وفدهم إلى سليمان قال ـ عليه السلام ـ: أتمدّونني بمالٍ؟! فما آتاني الله خيرٌ مما أتاكم بل أنتم بهديَّتكم تفرحون، ارجع إليهم فلنأتينَّهم بجنودٍ لا قبل لهم بها ولنخرجنَّهم منها أذلَّة وهم صاغرون.

وبعد أن ردَّ سليمان ـ عليه السلام ـ هدية الملكة علم أنَّها ستقدم إليه من بلادها، فأراد أن يختبرها، وأن يريها تفوّقه عليها في قدراته وقدرات جنده وبلاده، مما سيكون أدعى إلى

إسلامها، إذ الرغبة في الانتماء هي من أهمِّ العوامل النفسية الكامنة وراء الإيمان.

وأراد سليمان اختبار قابليتها للهداية، ومعرفة إلى أيِّ حدٍّ تتحكَّم بها الكبرياء، أم هي متحرِّرة منها، وهل هي تقرُّ بالحقِّ إن كان الحقُّ يحرمها من الظُّهور والعلوِّ، ولو كان إنكارها له سهلاً يصعب على الآخرين اكتشافه.

فأمر جنده بإحضار عرشها العظيم إلى قصره دون أن تعلم بالطبع، فأحضره له جنديٌّ ذو علم من الكتاب في طرفة عين.

قال سليمان ـ عليه السلام ـ: نكِّروا لها عرشها ننظر أتهتدي أم تكون من الذين لا يهتدون.

ما كان سليمان ـ عليه السلام ـ وهو الحكيم يريد اختبار ذاكرتها... وأيُّ ملك يرى في عرشه وتاجه أغلى ما يملك سيشكل عليه معرفة عرشه أو تاجه إذا ما عرض عليه؟ إنما أراد سليمان ـ عليه السلام ـ أن يرى مدى خضوعها للحقِّ، ومدى صدقها، مع أنَّ صدقها ينزل من مكانتها كملكةٍ، إذ هي تقرُّ أن لدى سليمان في إحدى زوايا قصره عرشاً مثل عرشها، فما يكون ملكها وغناها إزاء ملكه وغناه؟!

وكان هيِّناً عليها أن تنكر أنَّ العرش الذي يعرض عليها كعرشها، بل تستطيع الادِّعاء أنَّ عرشها أعظم من ذلك

بكثير؛ إذ أنّى لسليمان ـ عليه السلام ـ أن يعرف أنها تكذب ما دام عرشها على بعد آلاف الأميال، ولم يره من رجاله أحدٌ؟!

لكنَّ الملكة العاقلة ما كانت لتنساق وراء كبرياء زائفةٍ بحيث تبطر الحقَّ، وتغمط الناس، بل لما جاءت، قيل لها: أهكذا عرشك؟ قالت: كأنَّه هو... جوابٌ فوريٌّ دون تردُّدٍ... لم تقف كبرياء زائفةٌ عائقاً أمامه، إنها إذاً امرأة عاقلةٌ قابلةٌ للهداية.

وبعد هذا الاختبار النفسيِّ الذي يمكن وصفه أنه اختبار شخصيَّة بمصطلحات علم النفس المعاصر، بعد هذا الاختبار، قيل لها: ادخلي الصَّرح، فلما رأته حسبته لجةً، وكشفت عن ساقيها.

فقال سليمان ـ عليه السلام ـ: إنَّه صرح ممرَّدٌ من قوارير.

ما كان سليمان ـ عليه السلام ـ يريد التعالي عليها، إنما كان يريد تحطيم الحواجز النفسية التي تقف عائقاً أمام إيمانها.

وقد أصاب سليمان ـ عليه السلام ـ إذ قالت ملكة سبأ على الفور: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤].

وهكذا يعلِّمنا سليمان ـ عليه السلام ـ أهمية التفوق العلميِّ والتقنيِّ والعمرانيِّ لجذب الشعوب الأخرى إلى دين الله، مثلما كان انتصار المسلمين داعياً لدخول الناس في دين الله أفواجاً إيماناً لا نفاقاً.

قال تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾ [سورة النصر].

* * *

(ب) مشكلة الدافعية عند المسلم المعاصر

الفصل الأول: النية والدافع النفسي

الفصل الثاني: فهو في سبيل الله

الفصل الثالث: خلفاء الله في أرضه

الفصل الرابع: بالتقوى يصير المباح عبادة

الفصل الأول

النية والدافع النفسي

لا يمكن فهم سلوك إنسان ما فهماً صحيحاً، ما لم نتعرف على الدافع النفسيِّ الذي دعاه إلى فعلٍ ما، أو نهاه عن فعلٍ آخر.

والإمام الغزاليُّ - رحمه الله - يسمّي الدافع النفسيَّ «الباعث»، وابن الجوزي - رحمه الله - يسميه «الداعي». وكلا المصطلحين يؤكدان على حرية الإنسان أكثر من مصطلح الدافع الذي صاغه العلماء الغربيون.

أما النبي ﷺ فقد أكَّد على أهمية النية، وهي وليدة الدافع النفسيِّ، والجزء الذي يكون في الشعور منه، ويستطيع الإنسان بسهولة أن يتفحَّصها، وبالتالي أن يعدِّل فيها بما يضمن له قبول أعماله عند المولى سبحانه وتعالى.

قال ﷺ: «إنّما الأعمال بالنيات، وإنما لكلِّ امرىءٍ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأةٍ ينكحها

فهجرته إلى ما هاجر إليه» (متفق عليه ـ الأربعين النووية رقم ١).

إنَّ المسلم المعاصر يواجه مشكلةً في الدافعية، حيث تتصارع في نفسه أنواع الدوافع الداعية والناهية، وذلك بما يخصُّ إقباله على الحياة بما فيها من سعيٍ وعملٍ، هدفه القريب جمع المال، أو إمتاع النَّفس.

فالتقيُّ يقبل على جمع المال، أو التمتع المباح وهو مترددٌ يحسُّ بالذنب، ويرى نفسه مضطراً إلى شر لا بدَّ منه، ويبقى ميدان السَّعي هذا ينطلق فيه الغافلون؛ الذين صنَّفوا أنفسهم أنَّهم من أهل الدنيا، فيندفعون في سعيهم وراء المال والمتعة، وهم كالتقيِّ يرونها معصيةً، لكنَّهم قرروا اختيار طريقها، لا يهمُّهم ما يكون جزاؤهم إن صحَّ أنَّ ما يفعلونه معصية.

لكنَّ الإسلام دين الفطرة، وحبُّ الخير، والمال أهمُّ أشكاله، من الفطرة التي فطر الله الناس عليها، والإنسان مستخلف في الأرض، وعمارة الأرض جزءٌ هامٌّ من هذا الاستخلاف، وكيف يبلغ الاستخلاف مداه إن كان المؤمن متردداً في إقباله على كسب المال، ولم يركِّز أقصى طاقاته وإمكاناته في سبيل ذلك؟.

لقد أثنى الله كثيراً على سليمان ـ عليه السلام ـ مع أنَّه دعا الله، وطلب منه ملكاً لا ينبغي لأحدٍ غيره من البشر، ولنقرأ

ما قصَّه الله علينا في كتابه الكريم عن حبِّ سليمان ـ عليه السلام ـ للمال ـ بل عن حبّه لحبِّ المال.

قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (٣٠) إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ (٣١) فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ (٣٢) رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ (٣٣) وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ (٣٤) قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (٣٥) فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ (٣٦) وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ (٣٧) وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (٣٨) هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٩) وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ [ص: ٣٠ـ ٤٠].

إذاً لقد أحبَّ سليمان ـ عليه السلام ـ من المؤمن أن يحبَّ الخير، وما يشمله من المال الحلال، وكان حبُّه ـ عليه السلام ـ لذلك نابعاً وصادراً عن ذكر الله لا عن غفلة ونسيان.

وها هو بعد أن اختبره الله، ثمَّ أناب، يطلب من ربِّه المغفرة والملك الذي لا ينبغي لأحدٍ من بعده... وبعد أن يعطيه الله ما سأل، يخبرنا أنَّ لسليمان ـ عليه السلام ـ عنده ﴿لزلفى وحسن مآبٍ﴾.

ليس المال والمتاع بحدِّ ذاته شيئاً مذموماً يتنافى مع الإيمان والتقوى، إنَّما الأعمال بالنيات، والدافع النفسيُّ وراء امتلاك

المال والمتاع هو الذي يجعله دنيا على المؤمن اجتنابها، أو يجعله «خيراً» يسعى إليه المؤمن دون شعورٍ بالذنب.

والمؤمن التقيُّ إذا ما تجنَّب أن يكون دافعه إلى المال والمتاع إرادة العلوِّ في الأرض أو الفساد فيها، فإنَّ الجنة ستكون مأواه، ذلك أنَّه عندما يتجنب إرادة العلوِّ في الأرض، أو إرادة الفساد من خلال ما يعمله في حياته، فإنَّه يكون قد طهَّر نفسه من الدافعين المحرمين؛ اللذين يجعلان المال والمتاع حتى لو جاءا من حلالٍ، يجعلانهما دنيا مرذولةً محرَّمةً.

قال تعالى بعد أن قصَّ علينا كيف خسف بقارون وبداره الأرض، منبِّهاً لنا إلى أنَّه لم يكن ذنب قارون أن كان غنياً، بل أنَّه كان متعالياً في الأرض ومفسداً فيها، قال: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣].

* * *

الفصل الثاني
فهو في سبيل الله

كان النبيُّ ﷺ مع بعض أصحابه، فمرَّ عليهم رجلٌ ذاهبٌ إلى علمه، وكان الرجل قويَّ البنية، يبدو عليه النشاط والجلد، فخطر ببال الصحابة أن لو كان سعي هذا الرجل القويِّ في الجهاد في سبيل الله، وكانوا يظنون أنَّ قوَّة البدن والجلد والنَّشاط لا تكون في سبيل الله إلا في مواطن الجهاد، وأنَّ إنفاقها من أجل السَّعي والعمل اليومي في سبيل الرزق إضاعةٌ لها، فقال أصحاب النبيِّ ﷺ عندما رأوا ذلك الرَّجل القويَّ النشيط في طريقه إلى عمله اليوميِّ قالوا: يا رسول الله! لو كان هذا في سبيل الله! فقال رسول الله ﷺ:

«إن كان خرج يسعى على ولده صغاراً فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على نفسه يعفُّها فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى رياءً ومفاخرةً فهو في سبيل الشيطان». (رواه الطبراني).

إذاً هما الدافع والنِّية اللذان يجعلان من العمل اليوميِّ، ومن السعي إلى الرزق عبادةً أو معصيةً.

إن كان الإنسان يقوم بما يقوم به تدفعه إلى ذلك إرادة العلوِّ في الأرض، أو إرادة الفساد فيها، فإنَّه في معصيةٍ.

أما إن كان المؤمن يسعى وراء الرزق، ويبذل ما يستطيع ليستزيد منه بالحلال، ونفسه متحرّرةٌ من شهوة التعالي، أو من أيّة نزعة إلى الفساد في الأرض، فإنَّ ما يبقى في نفسه من دوافع وراء سعيه تكفي لتحيل عمله اليوميَّ إلى عبادةٍ وإلى سعيٍ في سبيل الله. . . ويبقى المقياس قوله تعالى: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [القصص: ٨٣].

لقد قامت نهضة الغرب العلميّة والتِّقنيّة على رجالٍ أفنوا أعمارهم في العلم، أو الصناعة، أو التجارة، يحرمون أنفسهم من المتع وهم الأثرياء لا بخلاً على أنفسهم، إنَّما نسياناً لها في خضمٍّ استغراقهم في التَّعلُّم، أو البحث العلميِّ، أو توسيع تجارتهم وصناعتهم، لكنَّ الدافع النفسي لديهم كان في أغلب الأحيان إرادة العلوِّ في الأرض. . . إنَّهم يريدون المجد العلميَّ، أو بناء امبراطوريةٍ شخصيةٍ من شركات ومصانع تشبع شهوتهم إلى العظمة والكبرياء.

ورغم الدافع الرديء وراء جهودهم، وجلدهم، ونشاطهم، فإنَّ ما حقّقوه صبَّ وتجمَّع في تيار قويٍّ حققت أممهم من خلاله التفوق والغلبة على باقي الأمم.

إنَّ سعيهم إنما هو سعيٌ في سبيل الشيطان: لأنَّه سعي قائمٌ على الرياء، والمفاخرة، وحبِّ الظهور.

لكنَّ المؤمن يستطيع أن يفعل مثلهم دون أن يسعى مثلهم إلى العلوِّ في الأرض، إنما له أن يعمل ليل نهار في سبيل الاستزادة من العلم، ومن أجل البحث العلميِّ والاكتشاف، أو أن يعمل ليل نهار حتى ينجح مشروعه التجاريّ، أو الصّناعيّ، ويتوسع ويصبح مشروعاً عملاقاً قادراً على المنافسة الشريفة، ويأتيه بالأرباح العظيمة.

وإذا ما نجح المؤمن في إبعاد إرادة العلوِّ في الأرض، أو إرادة الفساد فيها عن نفسه؛ فإنّ سعيه هذا سيكون في سبيل الله.

فالنفس لا تخلو أبداً من الدافع والنية وراء أيِّ عمل تقوم به، وإن هو تجنَّب الدافعين المحرمين، فلا بدَّ لدافع آخر أن يبقى في نفسه، ويكون دافعاً يرضى عنه المولى، وبذلك يكون السعي وراء المال الكثير الحلال إنما هو سعيٌ في سبيل الله، ولا حاجة للمؤمن التقيّ إلى أن يتردَّد في ذلك، فنعم المال الصالح للعبد الصالح كما قال النبي ﷺ.

وهذا المؤمن الثريُّ، حتى لو لم يعط من ماله الكثير سوى الزكاة، فإنّه يكون بمشاريعه يوجد فرص العمل الكثيرة لباقي المؤمنين، وبجلده ونشاطه يساهم في الاستقلال، والاكتفاء الذاتيِّ لأمَّته وبلاده، بحيث تستغني عن أعدائها في طعامها

ولباسها وكلِّ احتياجاتها، فكيف إن كان هذا المؤمن الغنيُّ ممن ينفقون مع الزكاة الكثير؟

إنَّه سيكون على طريق عثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف، وغيرهما من أثرياء الصحابة؛ الذين كانوا يمتلكون الثروات الواسعة، وينفقون في سبيل الله منها المبالغ الطائلة.

لقد كانت ثرواتهم بمثابة مركبٍ حملهم إلى الجنة، وهم المبشَّرون بها، وما كانت هذه الثروات لتتكوَّن وتتجمَّع لديهم بضربة حظٍّ، إنَّما هو الجهد والدَّأب دون تردُّدٍ، أو إحساس بالذنب أو سوء فهمٍ لدين الله، وظنٍّ أنَّ إقبالهم على جمع المال الكثير الحلال إنما هو انكبابٌ على الدنيا، وإعراضٌ، وغفلةٌ عن الآخرة.

إنَّ المال والعلم هما عصبا القوة في هذا العصر، ولئن كان المؤمن القادر على طلب العلم والإبداع فيه كالمجاهد في سبيل الله إن هو أقبل على العلم متحرِّراً من حبِّ الظهور أو الفساد، فإنَّ المؤمن الماهر في التجارة والصناعة إن هو أقبل على تجارته وصناعته بأقصى اهتمام ونشاط واندفاع، فإنَّه سيكون في سبيل الله أيضاً ما دام متواضعاً لله، ساعياً إلى الإصلاح في الأرض، ولا يدفعه إلى ما يقوم به إرادة العلوِّ، أو الفساد في الأرض.

* * *

الفصل الثالث
خلفاء الله في أرضه

عندما يسعى المؤمن إلى المال الكثير، فإنَّه لا يخرج عن سبيل الله إلا إن دفعه إلى ذلك إرادة العلوِّ في الأرض، أو إرادة الفساد فيها، أو إن هو لجأ إلى ما حرَّم الله من سبل كسب المال.

أما إن هو اجتنب النوايا المحرمة، والوسائل المحرمة، فإنَّ عمله يكون في سبيل الله، وما كان في سبيل الله فهو عبادةٌ، له أن يتوقَّع عليها الأجر والمثوبة.

والإنسان مفطورٌ على حبِّ الخير، والخير في القرآن الكريم يعني في بعض الآيات المال.

ولقد جعل المولى سبحانه وتعالى المال والبنين من ضمن ما رغَّب به عباده كي يؤمنوا، ويتَّقوا، مع أنَّه وصف المال والبنين بأنَّهما زينة الحياة الدنيا، فلم يقتصر وعده للمؤمن على ثواب الآخرة، بل جعل له شيئاً معجَّلاً مما ترغب به نفسه، وذلك كي يزيد الدافعية لديه، فالإسلام دين الفطرة يجاريها ولا يعاكسها.

فهاهو نوحٌ ـ عليه السلام ـ يروي ما وعد به قومه إن هم آمنوا . . . قال تعالى: ﴿ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا (٨) ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا (٩) فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا (١١) وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ﴾ [نوح: ٨ ـ ١٢].

إذاً لو آمن قوم نوح ـ عليه السلام ـ واستغفروا الله لغفر لهم، ولأرسل السماء عليهم مدراراً بمطرٍ يحيل أرضهم جناتٍ وأنهاراً، ولأمدَّهم بأموالٍ وبنين. . . وبذلك يجتمع لهم الرَّفاهية والقوَّة في الحياة الدنيا. . . ولو كان ذلك مما يكرهه الله لما وعد به الناس إن آمنوا واستغفروا.

وإن كان العطاء الواسع فتنةً واختباراً بحدِّ ذاته، فهو يستوجب الشُّكر لله تعالى، كما يستوجب عدم التعالي به على الناس، وعدم استخدامه في معصية الله، والفساد في الأرض.

قال تعالى: ﴿ وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا (١٦) لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴾ [الجن: ١٦ ـ ١٧].

أمّا شكر النِّعمة فقد جعل الله له مكافأةً فوريّةً، وهي أن يزيدنا الله من نعمه.

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ

وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

بل لقد وعد الله المزيد من الرزق كجائزةٍ للتقوى، قال تعالى: ﴿. . . وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ. . . ﴾ [الطلاق: ٢ ـ ٣].

وذكر الحقُّ تبارك وتعالى عن المؤمنين الصالحين أنَّهم يسألونه من خيري الدنيا والآخرة، فلا يرون خير الدنيا شيئاً لا يليق بالمؤمن التقيِّ الساعي إلى الآخرة.

قال تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾

[البقرة: ٢٠١].

ومن مقوِّمات الشُّكر على النعمة أن يبتغي المؤمن بها الدار الآخرة فيستخدمها في البرِّ والطاعات، ولكن دون أن ينسى نصيبه من الدنيا، إنَّه نصيبه المعترف له به، والمقسوم له، وإذا ما ابتعد المؤمن عن الرياء، والمفاخرة، واستخدام ثروته في التّعالي في الأرض، أو في ارتكاب الفواحش، وغيرها من المعاصي، وصور الفساد في الأرض، فإنَّ نصيبه من الدنيا لن يستهلك ثروته كلَّها إن كانت عظيمةً.

قال تعالى: ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا

تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾

[القصص: ٧٧].

إنَّ الدنيا تنتظر الأتقياء أن يقبلوا عليها، فيكون منهم التَّاجر صاحب التجارات الواسعة أو الشركات العملاقة، والحرفيُّ الماهر، والعالم المخترع، والفنان المصلح.

لقد ملَّت الدنيا من إقبال الفجّار عليها، وغيبة الصالحين، إنَّما تفتقد التاجر الأمين الذي لا يغشُّ، ولا يحتكر، ولا يستغلُّ حاجةَ الناس إلى سِلْعته فيمصُّ دماءَهُمْ، وهي تفتقدُ الغنيَّ الذي لا يُفسدُ في الأرض بماله ولا يستعلي به على الخلقِ، إنها تنتظرُ الإنسان الخليفةَ الذي يكونُ على أفضلِ مثالٍ، فيكون قدوةً ونموذجاً للبشريةِ يقولُ لهم هكذا تكون الخلافة في الأرض، إقبال على العمل والبناء لكن دون تعالٍ أو فسادٍ، ودون غشٍّ أو أكلٍ لما حرم الله.

إنَّ على الدعاةِ إلى الله أن يُدركوا أهمِّيَّةَ ذلك كي يحرِّروا المؤمنين الأتقياء من صراعهم النفسي وتردُّدِهم بين الإقبال على الدنيا والإحجام عنها، وَلِيُحَرِّرُوهُمْ من ظَنّهم أنَّ المال والمتعة الحلال لا يليقان بالتقيِّ، مع أنَّ النفس تميل إليهما والحياة لا تستقيمُ إلا بهما، بل هما مما رغَّبَ الله به الناس كي يؤمنوا ويتوبوا ويتقوا..

على الدعاةِ أن يُنَبِّهوا الناس إلى الخير الدنيوي الذي لهم أن يتوقعوه إنْ هُمْ آمنوا واستغفروا واتَّقوا، وهذا مما يزيد دافعيتهم للإيمان، ومما يزيد دافعية من آمن منهم للعمل الصالح، وتقوى الله.

إنَّ كثيراً من المؤمنين قد يستسهلون الوقوع في معصيةٍ آملين أن يغفر الله لهم في النهاية، لكنَّ قلائل منهم من هو مستعدّ أن يخسر شيئاً من الرِّزق الذي كتبه الله له، وذلك عقوبةً له على معصيةٍ يقع فيها، وبذلك تكون خشيته من أن يحرم من بعض رزقه دافعاً له للتقوى، واجتناب ما حرَّم الله.

قال ﷺ: «لا يزيد في العمر إلا البرُّ، ولا يردُّ القدر إلا الدعاء، وإنَّ الرجل ليحرم الرزق بخطيئةٍ يعملها» (ابن ماجه رقم ٩٠).

إنَّ مشكلة الدَّافعية في حياة المسلم المعاصر تحتاج إلى الكثير من الانتباه كي ينطلق هذا المسلم متحرراً مما يكبِّله، ويعيقه عن أداء دوره كخليفةٍ في الأرض، يحمل المودة والرحمة في قلبه والخير في يديه، ويأخذ نصيبه من الدنيا، ويزداد قوة، فيكون للناس نموذجاً تشتاق النفوس إلى تقليده.

* * *

الفصل الرابع

بالتقوى يصير المباح عبادة

يتحرَّج كثيرٌ من المؤمنين الأتقياء من إعطاء النفس حقَّها من اللَّهو المباح، بما يشمله من ممارسة أنواع الرياضة البدنية المفيدة لبناء جسمٍ قويٍّ، وللحفاظ على العافية البدنية إلى آخر العمر.

والظَّنُّ لدى هؤلاء الأتقياء أنَّ اللَّهو حتى لو كان بما أباحه الله إنَّما هو في أحسن الأحوال إضاعةٌ للوقت فيما لا ثواب فيه؛ لذا تراهم يحرمون أنفسهم، ويحرمون أسرهم من كثير من المتع المباحة، ومن الرياضات البدنيّة وأنواع الترويح الأخرى؛ مما ينعكس على صحَّتهم البدنية، وصحة أولادهم ترهُّلاً وضعفاً؛ مما يجعلهم عرضة للأمراض التي تصيب من لا يمارس الجهد البدنيَّ عادة، ومما ينعكس على صحَّتهم النفسية ميلاً إلى الكآبة يقلِّل من انتاجيَّتهم الفكريّة، بل وحتى التَّعبُّدية.

فالمزاج المتكدِّر لا يعين على العبادة. . . ولكنَّ الإسلام دين الفطرة، ولا يمكن أن يتعارض معها، وقد اكتشف

العلماء المعاصرون أجزاء من دماغ الإنسان وظيفتها أن تولِّد الإحساس بالمتعة واللذة إذا ما نبَّهها المنبّه المناسب، ووجد أنَّها هامة جداً للعافية النفسية، حيث يؤدي تنبيهها إلى إخراج الإنسان من اكتئابٍ نفسيٍّ لم ينفع في علاجه دواءٌ، وإلى بثِّ روح الأمل والتفاؤل لديه، وملئه بالحيوية والنشاط.

فالإنسان لا يمكنه أن يحيا طبيعياً معافىً نفسياً دون شيءٍ من المتعة والترويح... وطالما أنَّ الله ركَّب في أدمغتنا أجهزةً للاستمتاع، فلا يمكن أن يتعارض الاستمتاع مع دين الله.

قال تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ۝٣١ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ۝٣٢ قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾
[الأعراف: ٣١ـ٣٣].

إذاً الذي حرَّمه الله ينحصر في الفواحش، والإثم، والبغي بغير الحق، والشرك، والتقوُّل على الله، وأحلَّ ما وراء ذلك من متعٍ وزينةٍ أخرجها الله لعباده قاصداً بذلك أن تكون مصدر متعةٍ وجمال لهم، ولن يكون في استمتاعهم، أو تزيُّنهم بها خروجٌ عن أمره.

لكنَّ السؤال يبقى قائماً: أوليس في اللهو المباح إضاعة للوقت فيما لا ثواب عليه؟ . . . والنبيُّ ﷺ قد بيَّن لنا في المتع المباحة ميزاناً بحيث إذا ما تحقَّق فيها الشرط الأكبر، وهو اجتناب ما حرّمه الله صار لنا في المتع أجرٌ ومثوبة، أي: صارت عبادةً.

روى مسلم في صحيحه عن أبي ذرٍّ ـ رضي الله عنه ـ أنَّ ناساً قالوا: يا رسول الله! ذهب أهل الدُّثور بالأجور ـ وأهل الدّثور؛ أي: أهل الأموال ـ والصحابة الفقراء هنا قد أحسوا أنَّ الأثرياء من المؤمنين قد سبقوهم في الأجر حيث ينفقون من أموالهم في سبيل الله، والفقراء لا يجدون ما ينفقونه مثلهم . . . قال هؤلاء الصحابة لرسول الله ﷺ: يا رسول الله! ذهب أهل الدُّثور بالأجور، يصلُّون كما نصلِّي، ويصومون كما نصوم، ويتصدّقون بفضول أموالهم. فأجابهم النبي ﷺ قائلاً: «أوليس قد جعل الله لكم ما تصدَّقون به؟! إنَّ بكلِّ تسبيحةٍ صدقةً، وكلِّ تكبيرةٍ صدقةً، وكلِّ تحميدةٍ صدقةً، وكلِّ تهليلةٍ صدقةً، وأمرٌ بالمعروف صدقةٌ، ونهيٌ عن المنكر صدقةٌ، وفي بضع أحدكم صدقة».

فدهش الصحابة لقوله ﷺ: «وفي بضع أحدكم صدقةٌ»، فلم يكن يخطر ببالهم أنَّ تمتُّع الإنسان بمتعةٍ ما يكون له به أجرٌ، فعلَّمهم النبي ﷺ كيف تقاس الأمور، ويحكم عليها،

وبيَّن لهم أنَّ مجرَّد اجتناب المؤمن لما حرم الله، وحرصه على الحلال يجعل استمتاعه عبادةً مأجورةً.

إنَّ الاجتناب لما حرم الله هو جوهر التقوى، وإذا ما أضيف إلى المباحِ حتى لو كان هذا المباح شهوةً خالصةً، فإنَّ المباح يصبح عبادةً، ولم يشترط النبيُّ ﷺ لحصول الأجر عند إتيان المؤمن لشهوته شيئاً إلا اجتناب الحرام، فهو لم يشترط أن يغيِّر المؤمن نيَّته وقصده من الاستمتاع إلى ابتغاء ولدٍ يجاهد في سبيل الله أو غير ذلك، وهذا تكلُّفٌ إن كان ممكناً في بعض الأحيان فلا مجال له في غالب الأحيان.

ولنتأمَّل تتمَّة الحوار بين الصحابة ورسول الله ﷺ، قالوا: يا رسول الله! أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجرٌ؟ قال: «أرأيتم لو وضعها في حرامٍ أكان عليه وزرٌ؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجرٌ».

فكما أنَّ النية لا تشترط في المعصية، إذ يكفي أن يقع الإنسان في الحرام وهو يعلم حتى يكون آثماً، فإنَّه يكفي للمؤمن أن يجتنب الحرام حتى يكون طائعاً مأجوراً، ومن الحرام الذي عليه اجتنابه في أيِّ فعل نيَّة العلوِّ في الأرض أو الفساد فيها.

فبالتقوى تغدو حياة المؤمن عبادةً مستمرةً... حتى أكله، وشرابه، ومرةً أخرى دون افتعالِ نيَّةٍ متكلَّفةٍ، إنما يأكل

ويشرب استجابةً لحاجة نفسه ورغبتها.

قال ﷺ: «إنّ الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها أو يشرب الشَّربة فيحمده عليها» (رواه مسلم).

صحيح أن المباح بحد ذاته لا أجر عليه ولا عقوبة، لكن اجتناب الحرام عند إتيانه، أي: إتيان المباح بتقوى، يجعل للمؤمن أجراً عظيماً، وهو أجر التقوى التي تجلّت في هذا المباح، إنه يضعها في الحلال، ولا يضعها في الحرام، فيكون له الأجر، ويكون متعبداً حتى وهو يتمتع بما أباح الله له.

* * *

القسم الرابع

أثر العبادات في النفس المؤمنة

أ - الصلاة

ب - الزكاة

ج - الصوم

د - الحج

(أ) الصلاة

الفصل الأول: حديث النفس وحضور القلب

الفصل الثاني: التسبيح

الفصل الثالث: «وجعلت قرة عيني في الصلاة»

الفصل الرابع: (أ) تنهى عن الفحشاء والمنكر

الفصل الخامس: (ب) تنهى عن الفحشاء والمنكر

الفصل السادس: (ج) تنهى عن الفحشاء والمنكر

الفصل الأول

حديث النفس وحضور القلب

إن واحدة من أهم مزايا الإنسان: قدرته على أن يفكر بما وراء اللحظة الراهنة، وبما وراء المكان الذي هو فيه.

إنه قادرٌ على تذكّر الماضي، وعلى التفكير بالمستقبل، وعلى العيش من خلال خياله في أماكن ومواقف غير التي هو فيها.

إنه قادرٌ على استباق الأحداث، وتصوّرها، والتخطيط لها، وقادر على إعادة النظر في الماضي، ومراجعة النفس، والحكم على ما فعلته ليستحسن ما يراه صواباً، وليلومها على ما أخطأت فيه.

وهذه القدرة على تجاوز الواقع الراهن، واللحظة الراهنة مفيدة جداً للإنسان، ولا بدَّ منها ليتمكّن من الإبداع والتخطيط في أي مجال.

لكن التفكير بما وراء اللحظة الراهنة والواقع القائم يجعل الإنسان حاضراً بجسده، غائباً بعقله، وإذا ما سيطر هذا التفكير على الإنسان صار عقله في حالة مستمرة من «حديث

النفس» حيث يتوقع شيئاً، ويفكر كيف يمكنه أن يتصرف عند حدوثه، ثم يتوقع احتمالاً آخر، ويقلّب الفكر فيما عساه يقول أو يتصرف.

وتتعدد الاحتمالات، ويستمر التفكير، وانشغال البال، وهكذا يستمر غياب الإنسان الجزئي عن واقعه ولحظته الراهنة، فتراه شارد الذهن كلما خلا بنفسه، أي: كلما صمت، ولم يتحدث مع غيره، حتى لو كان بين ألف إنسان، إنه معهم لكن فكره في زمان آخر ومكان آخر... حتى حين يستمع إلى الآخرين وهم يحدثونه فإنه لا يجيد الإصغاء إليهم، فلربما كان أثناء استماعه إليهم مشغولاً في تحضير ما سيقوله عندما يسكتون، ويأتي دوره في الحديث.

إنه يسمع لكن قلبه لا يصغي، وهو ينظر لكنه لا يكاد يرى، وهكذا وبمرور الوقت يتحول ما كان جميلاً في عينيه عندما رآه لأول مرة إلى شيء عادي لا جمال فيه؛ لأن عقله في انشغال دائم عن اللحظة الراهنة، والبقعة الراهنة، ولا يخرجه من انشغاله وشروده هذا إلا الجديد والصارخ.

وهكذا عندما تنشغل النفس في حديثها شبه الدائم يحرم الإنسان من التمتع بالجمال الذي حوله، ويقلّ إحساسه بواقعية ما حوله، ومن حوله، وحقيقتهم، فيقوم بأفعاله بشكل فيه قدر كبير من الآلية، ويصبح التفكير بما يفعله أو

يقوله يتمّ بعيداً عن بؤرة الوعي والشعور، فقد تراجع إلى خلفية الوعي، وهكذا يؤدي هذا الإنسان ما يؤديه وعقله غائب مستغرق في تفكير حالم؛ لأنه في حديث النفس كالذي يسرح في أحلام اليقظة، إنه غافلٌ عن العالم الحاضر الذي تدركه حواسّه، ولم يترك لهذا العالم الحاضر سوى جزءٍ من وعيه؛ لذا فهو يؤدي ما يؤديه بطريقة شبه آلية، إنه يقوم به لكنه «لا يعقله»، أي: لا ينتبه لما يؤديه من قول أو فعل، إنه كالذي يمشي في الأسواق ويرى الأشياء والأشخاص وفكره مشغول بغير ما يرى... إنه يمشي بينهم دون أن يصطدم بهم، لكنه لم يرهم حقّ الرؤية، الرؤية التي يكون فيها القلب حاضراً، أي: منتبهاً لما يقول، أو يفعل، أو يحس به.

صحيح أن قدرة الإنسان على القيام بالكثير بطريقة شبه آلية فيه توفير للطاقة العقلية كي تتفرغ لما هو مهمّ، لكن إن صارت هذه الطريقة شبه الآلية في القول والفعل والإدراك غالبة على الإنسان أغلب وقته، تشغله بحديث النفس عما هو قائم «الآن» و«هنا»، بل هي حالة من التفكير الحالم المقيم في الماضي أو المستقبل.

إن حدث هذا فإن الإنسان يفقد حالة «الانتباه» و«حضور القلب» الممتعة، وتصبح عودته إليها أمراً صعباً، ويفقد هذا الإنسان الكثير من سكينته وطمأنينته، ويكون لا بدَّ له من أن

يدرّب نفسه على الانتباه، وحضور القلب، وعلى التحرر من حديث النفس، والتفكير الحالم؛ حتى يتسنى له أن يعيش لحظته الراهنة، بما فيها من مدركات، ومشاعر، وأفكار، وأفعال؛ ليحسّ بالوجود الحقيقي لكل شيء من حوله، فلا يبقى خارج حدود الزمان والمكان القائمين.

وليس كالإيمان والعبادة معيناً على ذلك التحرر، وعلى تلك العودة إلى الانتباه وحضور القلب بحيث لا تحزنه الذكريات، ولا تقلقه احتمالات المستقبل المجهول.

* * *

الفصل الثاني

التسبيح

إنّ قدرة الإنسان على تجاوز المكان والزمان الراهنين، وعلى استباق الأحداث، أو استرجاعها بأفكاره وخياله نعمة من الله، وقوّة زوّده الله بها، لكن التفكير بما وراء ما تدركه الحواس «الآن» و«هنا»، أي: ما سمّاه النبي ﷺ «حديث النفس» يتم على حساب سكينة النفس، وطمأنينتها في كثير من الأحيان، ويتمّ على حساب استمتاع النفس بالجمال المحيط بها في كل الأحيان.

ومع تعقد الحياة في هذا العصر، وزيادة الضغوط فيها على النفس الإنسانية، زاد شعورُ الإنسان بالحاجة إلى العودة إلى حياة لا يحدّثُ فيها نفسه كثيراً، بل يعيش لحظته الراهنة في نطاق ما تدركه حواسه، دون أن يسرح به الفكر والخيال في ذكريات الماضي، أو هموم المستقبل.

ومع تأكيد الدراسات الحديثة على العلاقة القوية بين الضغوط النفسية والأمراض المختلفة، وعلى العلاقة القوية بين سكينة النفس وخلوها من الهموم، وعافيتها من الأمراض

النفسية والبدنية، ومع زيادة وعي الإنسان إلى أنه أقلّ سعادة بكثير مما يُتوقع له، وهو يملك كل ما أنجزته الحضارة الحديثة من أسباب الراحة، والرفاهية، والتحرر من الشقاء المضني في سبيل لقمة العيش، مع هذا كله كان لابُدَّ للإنسان من أن يبحث عن وسيلة يستعيد بها سكينة نفسه ولو لدقائق معدودات كل يوم.

وولى إنسانُ الحضارة الغربية وجهه شطر المشرق، لكنه ألقىٰ ببصره إلى ما وراء الإسلام، إلى حيث البوذية، والهندوسية، ومن هناك استورد «اليوغا» و«التأمل التجاوزي»، وكلاهما يهدفان إلى أن يُمضي الإنسان فترة من الزمن ولو دقائق معدودات «لا يفكر»، أي: «لا يحدّث نفسه»؛ لأنه لا يمكن للإنسان أن يتوقف عن التفكير، لكنه إن توقف عن حديث النفس فكّر بما أمامه دون أن يشعر أنه يفكر، إنه يفكر بشكل تلقائي مثلما ينظر إلى الأشياء، أو يصغي إلى الأصوات.

وتعلم من اليوغا أن يجلس بلا حراك، مركّزاً بصره في نقطة ثابتة، مردّداً كلمة إمّا أنها لا معنى لها، أو أنها كلمة سنسكريتية ذات معنىً ديني في البوذية، أو قد لا تعني إلا «الكل» أو «واحد» وما شابه.

وهذه الكلمات التي تستخدم أثناء جلسات اليوغا، ويتم

تردادُها باللسان أو بالقلب فقط تسمى «مانترا Mantra».

لكن المؤمن في غنىً عن هذا كله.

إنه لا يحتاجُ إلى أن يستعير «مانترا» أحد من العالمين.

إنه ينظر حوله فيرى بديع صنع الله، وآثار قدرته، وعظمته، فينطلق لسانه وقلبه ليقول: «سبحان الله».. إنه يجمع في كلمة «سبحان الله» المعاني الكثيرة الكثيرة، ولا يهرب إلى «مانترا» لا معنى لها حتى يريح ذهنه المكدود بحديث النفس المتعب المستمر.

إنه عندما يقول سبحان الله فإنه يقول: ما أعظم الله! وما أقدر الله! وما أحكم الله! وما أكرم الله! وما أقوى الله! وما أعلم الله! وما ألطف الله! وما.. وما.. تجتمع كلها في كلمة سبحان الله، كأنه فيلسوف يقول: «ما أكمل الله» يقولها ويدرك بعقله الكبير ما يعنيه الكمال المطلق، وما يحتويه من كمالات متنوعة، إنه ينزّه الله عن أيّ عيب، أو نقص، ويبدي إعجابه البالغ بهذا الخالق صاحب الكمال المطلق.

إنه يسبّحه، ويردّد بقلبه ولسانه «سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم» فيمتلىء قلبه بمشاعر الإعجاب، والحمد، والتنزيه لله سواء كان فيلسوفاً عبقرياً، أو أمياً، لم يفكّ حروف كلمة واحدة في حياته.

ويسحب المؤمن نفسه من شواغل الحياة لفترة من الزمان يسبّح فيها الله بقلبه ولسانه في آن واحد، ويذكره بعبارات متنوّعة تعلّمها من رسوله ﷺ، فيزداد إيماناً، وسكينة، وحضور قلب، وانتباه، ويتحرّر من حديث النفس؛ الذي يغيِّبه عما تراه عيناه، وتسمعه أذناه، وتحسّه حواسه الأخرى من أوجه الجمال في هذا الكون البديع.

إن للتسبيح مكاناً هاماً في الصلاة، إنه في الركوع وفي السجود. والتسبيح في الصلاة. ضمن الخشوع، ومع حضور القلب يكون له أعظم الأثر في النفس المؤمنة، فسبحان الذي أمرنا بعبادات تعمّق الإيمان في نفوسنا، وترسخه، وتمزجه بها مزجاً؛ بحيث يصبح مكوّناً أصيلاً من مكوناتها، فلا يكون فيه تكلّف، ولا إكراه للنفس، بل يتجاوب مع الفطرة السوية التي فطرت عليها.

* * *

الفصل الثالث
«وجعلت قرةُ عيني في الصلاة»

في هذا العصر الذي تعقدتْ فيهِ الحياةُ، وزادتْ فيهِ الضغوط على النفسِ البشريةِ، وفقد فيهِ الإنسانُ الكثيرَ منَ الطمأنينةِ التي كانتْ توفرها لهُ بساطةُ الحياةِ قديماً، وقِلّةُ متطلباتها، وقناعتهُ التي كانتْ كنزهُ الذي لا يفنى.

في هذا العصر الذي قلَّ فيهِ العملُ اليدويُّ الذي يتطلبُ انهماكَ الفكرِ واليدِ والتركيزَ فيما يصنعُ الإنسانُ، وحلَّتِ الآلةُ محلَّهُ إلى حدٍّ كبير، وصارَ يمكنُ للإنسانِ أنْ يديرَ آلةً بقليلٍ منَ التّركيزِ، وكثير من المللِ والسّأمِ.

في هذا العصر الذي تكدستْ فيهِ الملايين في مدنٍ مليئةٍ بالضجيجِ والحركةِ، وحرمَ فيه هؤلاءِ منْ هُدوءِ الحقلِ، والجبلِ، والشُّطآنِ.

في هذا العصر الذي ضعفتْ فيه الروابطُ الأسريةُ والاجتماعيةُ، وشحنَ الإنسانُ فيهِ بالعداءِ للكونِ كيْ يتحمَّسَ لقهره، والسّيطرة عليهِ، فازدادَ الإنسانُ عزلةً حتى وهوَ يعيشُ بين الملايين، وازدادتْ عزلتهُ وغربتهُ بعدَ أنْ صارَ يتصورُ

الكونَ والطبيعةَ عدوينِ يجب أنْ يقهرهما.

في هذا العصر ازدادَ العبءُ على عقل الإنسانِ وركبته الهمومُ، فصارَ يعيشُ في همومهِ أكثرَ مما يعيش في واقعهِ الآنيِّ. صارَ شارداً في حديثِ نفسٍ لا يكادُ ينتهي. فهو دائماً يخططُ للمستقبلِ، ذلكَ الذي صارَ كابوساً مخيفاً، وصارتْ توقعاتُ المصاعبِ فيهِ أكثرَ منْ توقعاتِ النِّعمِ والمسرّاتِ.

في هذا العصر صارتْ لحظاتُ الانتباهِ التّامِّ إلى اللحظةِ الراهنةِ والمكانِ القائمِ؛ الذي يكونُ فيهِ هذا الإنسانُ بلا انشغالٍ للفكرِ بشيءٍ آخرَ، صارتْ هذه اللحظاتُ منَ الانتباهِ رفاهيةً وكماليَّةً لا تُتاحُ للكثيرين.

لقدْ نسي إنسانُ الحضارة الحديثةِ كيفَ يوقفُ حديثَ نفسهِ الدائمِ ليفتحَ عينيهِ على ما حولهُ ومنْ حولهُ، وليصغيَ بأذنيهِ وقلبهِ لمن حولهُ وما حولهُ، وصارَ تعليمُ هذا الإنسانِ كيفَ يعودُ إلى انتباهِهِ، وكيفَ يحضر قلبهُ إلى حيثُ هوَ، صارَ ذلكَ اختصاصاً وتجارةً. فمنْ دروسٍ في اليوغا، إلى دروسٍ في التأملِ التّجاوزيِّ، إلى دروسٍ في الاسترخاءِ العضلي، إلى دروسٍ في التنويمِ المغناطيسيِّ الذاتي، إلى دروسٍ في الإخبارِ الحيويِّ الراجع Biofeed-back منْ أجلِ التّحكمِ بسرعةِ ضرباتِ القلبِ، ومقدارِ توترِ العضلاتِ، بلْ والتحكمِ بموجاتِ الدماغِ الكهربيةِ.

كلُّ ذلكَ منْ أجلِ دقائقَ قليلةٍ أو كثيرةٍ من السّكينةِ النفسيةِ، والتوقّف عنْ حديثِ النّفْسِ وما يحويه منْ همومٍ أوْ ذكرياتٍ.

لكنّ المؤمنَ الذي يصلّي لله تعالى كلَّ يوم خمسَ مراتٍ منذُ أنْ يبلغَ السابعةَ منْ عمرهِ، هذا المؤمنُ يقومُ إلى صلاتهِ ليصليها بإتقانٍ وإحسانٍ، وكأنهُ يرى اللهَ أمامهُ ينظرُ إليه وهو يؤديها.

«.. قالَ: فأخبرني عنِ الإحسانِ، قالَ: أنْ تعبدَ اللهَ كأنكَ تراهُ، فإنْ لم تكنْ تراهُ فإنّهُ يراكَ» (رواه مسلم).

إنّهُ يصلي وهوَ يستشعرُ حضورَ اللهِ. قالَ ﷺ:

«إنّ أحدكمْ إذا قامَ في صلاتهِ فإنّهُ يناجي ربّهُ، أوْ إنَّ ربَّهُ بينهُ وبينَ القبلةِ» (البخاري حديث رقم ٣٩٧).

إنّهُ دائماً يُصلي وهوَ يحاولُ أنْ يكونَ حاضر القلبِ يعلمُ ما يفعلُ وما يقولُ، أيْ: منتبهاً وليسَ ساهياً شارداً في حديثِ النفسِ، فهوَ يعلمُ أنَّ انتباهَهُ، وحضورَ قلبِهِ لابدَّ منْهما حتى يتحققَ في صلاتِهِ الإتقانُ والإحسانُ، حتى إنّ عمارَ بنَ ياسر - رضي الله عنهُ - كانَ يقولُ: لا يُكْتبُ للرجل منْ صلاتِهِ ما سها عنهُ.

وقدْ حثَّ الرسولُ ﷺ المؤمنينَ على التركيزِ في صلاتِهمْ والانتباهِ لما يقولونَ ويفعلونَ فيها، وعلى عدم السّهوِ

والاستغراقِ في حديثِ النفسِ أثناءها، فجعلَ لمنْ ينجحُ في أداءِ ركعتين لا يحدِّثُ فيهما نفسهُ جائزةً عظيمةً جداً، وهي أن يغفرَ اللهُ لهُ ما تقدمَ منْ ذنبهِ.

روى عثمان بن عفان - رضي الله عنهُ - أنَّ النبيَّ ﷺ توضّأ ذاتَ مرةٍ ثمَّ قالَ: «منْ توضأ مثلَ وضوئي هذا، ثمَّ قامَ فصلى ركعتين لا يحدِّثُ فيهما نفسهُ بشيءٍ غفرَ الله لهُ ما تقدمَ منْ ذنبهِ» (رواه النسائي في سننه في كتاب الطهارة).

إنّ حضورَ القلبِ في الصلاة، وإيقاف الفكرِ خلالها عن انشغالهِ المزعج بحديثِ النفس، والتفكير بما مضى أو ما قد يأتي. . إنَّ هذا الحضورَ للقلبِ، والسكينةَ التي يجلبُها للنفسِ منْ أهمِّ الأسبابِ التي جعلت الصلاة قرةَ عينِ النبيِّ ﷺ وراحتَهُ: «أرحنا بها يا بلالُ. .» وقرَّةَ عينٍ وَراحةٍ لكل المؤمنينَ منْ بعدهِ.

* * *

الفصل الرابع

(أ) تنهى عن الفحشاء والمنكر

إنَّ الصلاةَ وتلاوةَ القرآنِ تولدانِ في النفسِ ناهياً عنِ الفحشاءِ وَ المنكرِ، ولكنْ كيفَ يتمُّ ذلكَ؟

الآليَّةُ الأولى التي يمكنُ أنْ يتولَّدَ بها هذا النَّاهي في النَّفسِ منَ الصَّلاةِ وتلاوةِ القرآنِ هوَ الحالةُ الَّتي يسمِّيها علماءُ النَّفسِ «التّنافرَ المعرفيَّ» «cognitive-dissonance».

إذْ يرى المؤمنُ الذي يصلي للهِ خاشعاً، والذي خشعَ قلبهُ لذكرِ اللهِ فيتلوهُ ويلين لهُ، هذا المؤمنُ يكونُ مفهومهُ لذاتهِ، وتصورُهُ لنفسهِ أنَّهُ «إنسانٌ مؤمنٌ، طائعٌ للهِ».

وهذهِ الفكرةُ الصَّحيحةُ عنْ نفسهِ تتعارضُ معَ الفكرةِ والتصوُّرِ الذي ينتجُ عنْ وقوعهِ في الفحشاءِ والمنكرِ، وهوَ أنَّهُ: «إنسانٌ عاصٍ للهِ متَّبعٌ لهواهُ».

وقدْ وجدَ علماءُ النَّفسِ أنَّ اجتماعَ تصوُّرينِ ومفهومين متنافرين، متعارضين لدى الإنسانِ عن ذاتهِ يسبِّبُ له انزعاجاً، وضيقاً، ويدفعهُ إلى التَّخلُّصِ من هذا التَّنافرِ بينَ ما يعرفهُ عنْ نفسهِ، وذلك إما بالامتناعِ عنْ سببِ هذا التّنافرِ وهوَ هنا الوقوعُ في الفحشاءِ والمنْكرِ، وهذا ما ذكرهُ اللهُ عن

المتَّقينَ الذينَ إذا فعلوا فاحشةً ذكروا اللهَ فاستغفروا لذنوبهم، ولم يصرُّوا على ما فعلوا وهمْ يعلمونَ، وإمّا أنْ يحلَّ الإنسانُ التّنافرَ بتغيير ما يؤمنُ به بخصوصِ السُّلوكِ المسبِّبِ للتَّنافرِ المعرفيِّ لديهِ، وهذا مستحيلٌ ـ هنا ـ إذْ لا يمكنُ للمؤمن أنْ يرى في الفحشاء والمنكر إلا عصياناً لله واتباعاً للهوى.

أما إن استمرّ في الجمعِ بينَ الحالين المتنافرينِ فإنَّهُ سيبقى يعاني منَ التَّوتُّر والانزعاجِ الذي يدفعه، ويحثُّه على إزالةِ هذا التَّنافرِ، وبذلكَ يكونُ لديهِ في نفسهِ من الدَّوافعِ ما ينْهاهُ عن الفحْشاءِ والمنْكَرِ.

أما الآليَّةُ النَّفسيَّةُ الثانيةُ التي يمكن للصَّلاة وتلاوةِ القرآنِ أنْ تشكِّلا بوساطتها ناهياً نفسياً للمؤمن عن الفحشاءِ والمنكرِ فهي آليةُ «الذِّكرِ واليقظةِ» حيثُ لا يمكنُ للمؤمنِ أنْ يقع في الفحشاءِ والمنكرِ دونَ إكراهٍ إلا وهوَ في حالةٍ منَ «الغفلةِ» أوْ ما يسمِّيهِ علماءُ النفسِ «الإنكار denial» حيثُ يتصرَّفُ الإنسانُ وكأنَّ الأمر الذي يعلمُ بوجودهِ لا وجودَ لهُ، فالمؤمنُ يقعُ في الفحشاءِ والمنكرِ حين يمارسُ هذا الإنكارَ النفسيَّ، والتغافل عما توعَّدَ الله بهِ منَ العقوبةِ على هذهِ الفحشاءِ أوْ ذلكَ المنكرِ، وهذا ـ والله أعلم ـ معنَى ما جاءَ في الحديثِ الشريفِ منْ أنَّ المؤمنَ لا يزني وهوَ مؤمنٌ، ولا يسرقُ وهوَ مؤمنٌ. . الخ.

فهذا لا يعني أنَّهُ ساعةَ ارتكابهِ للزِّنى أو السَّرقةِ كان كافراً

مرتداً، إنّما كانَ لا يعيشُ حالةَ الإيمانِ المتيقِّظِ الواعي الذّاكر، إنَّهُ أبداً لم يغيِّر عقيدتَهُ لحظةَ الزِّنى أو السَّرقةِ، إنَّما تغافل عنْها، وأبعدها عن شعورهِ، تماماً كما يفعلُ المصابُ بالجلطةِ القلبيّةِ وهوَ يصرُّ على الاستمرارِ في بذلِ الجهدِ الَّذي ينهاه عنه الأطباءُ؛ لما فيه منْ خطورةٍ على حياتهِ.

إنَّهُ لا يريدُ أنْ يعيشَ بمشاعرهِ ما يعرفُهُ بعقلهِ، منْ أنَّ قلبهُ مريضٌ، وأنَّهُ لم يبقَ ذلكَ القويَّ المعافى، وهكذا المؤمن عندما يستجيب لشهواتهِ، يبقى عقلهُ مدركاً لحقائقِ الإيمانِ كلِّها، ولخطورةِ ما يرتكبهُ، لكنَّهُ يزيحُ هذا الإدراكَ عنْ شعورهِ ووعيهِ، ينكرهُ نفسيّاً، أو بالمصطلح الإسلاميّ: يتغافلُ عنهُ.

وهنا تأتي الصلاة خمسَ مراتٍ كلَّ يوم بوضوئها، وقيامها، وركوعها، وسجودها، وتأتي تلاوة القرآن في الصلاةِ وخارجها لتجعلَ منَ الصَّعبِ على المؤمنِ أن يتغافلَ، أوْ ينكرَ نفسيّاً ما يعلمُهُ منْ أنَّ الفحشاءَ والمنكرَ يضعانهِ في خطرِ الوقوعِ في عذابِ اللهِ، وبذلك تكون الصلاةُ والقرآنُ مصدّا نهيٍ نفسيٍّ عنِ الفحشاءِ والمنكرِ.

أمّا إن وقعَ هذا المؤمنُ التقيُّ في المحظور، فإنَّهُ سرعانَ ما يعودُ، فيذكرُ اللهَ، ويستغفرُ لذنبهِ ﴿ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

* * *

الفصل الخامس

(ب) تنهى عن الفحشاء والمنكر

قال تعالى: ﴿ ٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَصۡنَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

إنَّ الصلاةَ منَ المؤمنِ الخاشع بما فيها منْ قراءةٍ، وقيامٍ، وركوعٍ، وسجودٍ، تجعلُ المؤمنَ يعيشُ لحظاتٍ منْ ذكرِ اللهِ ﴿ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ [طه: ١٤].

وتلاوةُ ما أوحىٰ اللهُ منْ ذكرهِ، أي: القرآنِ الكريمِ تزيدُ منْ يقظةِ المؤمنِ، وتقلِّلُ منْ غفلتهِ.

وبالصَّلاةِ، وتلاوةِ القرآنِ، وغير ذلكَ من طرقِ ذكرِ اللهِ تتولَّدُ في نفسِ المؤمنِ دوافعُ نفسيةٌ معاكسةٌ لميلهِ البشريِّ إلى الوقوعِ في الفاحشةِ والمنكرِ؛ الَّذي يزيِّنهُ لهُ شياطينُ الإنسِ والجنِّ.

فالصلاةُ تنهى عن الفحشاءِ (أي: الزِّنى) والمنكرِ بأشكالهِ كافة، وكذلكَ ذكرُ اللهِ (أي: القرآنُ) الَّذي بدأت الآيةُ الكريمةُ بالأمرِ بتلاوتهِ قبلَ الأمرِ بإقامة الصَّلاةِ، ينهى أيضاً

عن الفحشاءِ والمنكرِ، بلْ هوَ كما تقولُ الآية الكريمةُ ﴿أكبرُ﴾ أيْ: أكبرُ نهياً للمؤمنِ عنْ معصيةِ اللهِ.

وقبلَ البحث في الآليّةِ النفسيةِ التي يمكنُ أنْ يكونَ هذا النَّهيُ متولِّداً بها، يجبُ الانتباهُ إلى أنَّ اللهَ قال: ﴿تنهى﴾ ولم يقلْ: «تحولُ وتمنعُ»، إنَّهُ النَّهيُ، ويبقى المؤمنُ المصلِّي التّالي لما أوحيَ منَ الكتابِ والذِّكرِ، يبقى على خطرٍ، إذْ قدْ تكونُ الدَّواعي النفسية لديهِ والتَّزيينات التي يتعرَّضُ لها، والتي تحثُّهُ، وتجذبهُ، وتدعوهُ إلى الفحشاء والمنكرِ، قدْ تكونُ قويَّةً، فيستجيبُ لندائها، ويتغافلُ عن نهيِ الصَّلاةِ، وذكرِ اللهِ لهُ، فيقعُ في فحشاء أو منكرٍ منَ المنكراتِ.

وقدْ تحدَّثَ القرآنُ عنِ المتقينَ فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

فالمؤمنُ الَّذي يضعفُ أحياناً، فيقعُ في فاحشةٍ، أوْ يظلمُ نفسهُ بارتكابِ منكرٍ منَ المنكراتِ، لا يعني ذلك أنَّ صلاتهُ لم تنفعهُ، وأنَّ تلاوتهُ لذكرِ اللهِ لم تؤثِّر فيهِ، إنَّما هيَ الطَّبيعةُ البشريَّةُ، حيثُ قدْ يقعُ الإنسانُ في كثير من الأحيانِ في حيرةٍ وتردُّدٍ بينَ اختياراتٍ متعدِّدةٍ، ويكونُ لديه من الدوافع النفسية المتعارضة ما يدعوه لفعلِ أمرٍ مَّا، وما ينهاهُ عنْ فعلهِ،

فالطَّبيبُ الَّذي يعلمُ حقَّ العلمِ أنَّ التَّدخينَ ضارٌّ بصحَّتِهِ، ولكنَّهُ مدمنٌ على التَّدخين لا يتمتَّعُ بسيجارتهِ إلا إنْ نسيَ أوْ تناسى ما يعرفُ عنْ أضرارِها، أمَّا إنْ بقيَ ذاكراً لتلكَ الأضرارِ فإنَّها ستنهاهُ عنِ التَّدخين، أيْ: ستأمرهُ ألا يدخِّنَ، لكنَّها بالطَّبع لنْ تمنعهُ، فقدْ تشتدُّ شهوتهُ، ويقرِّرُ الاستجابةَ لها، والتغافلَ عنْ صوتِ النَّهيِ والتَّحذير، وهذا أبداً لا يعنيْ أنَّ معرفةَ النَّاس لأضرارِ التَّدخين لا تفيدُ؛ لأنَّ الإنسانَ الَّذي يعتقدُ أنَّ التَّدخينَ لا يضرُّ سيدخِّنُ أكثرَ، إذْ ستبقى لديهِ الدَّواعي النَّفسيَّةُ لأن يدخِّنَ، وستغيبُ النَّواهي النَّفسيَّةُ عن أن يدخِّنَ، ولن يتعرَّضَ لأيِّ نوعٍ منَ الصِّراعِ النَّفسيِّ قبلَ إقدامهِ على التَّدخين.

وكذلك المؤمنُ، تنفعهُ الصَّلاةُ، وتلاوةُ القرآنِ إذْ تولِّدانِ في نفسهِ «ناهياً نفسياً» يعينهُ في وجهِ أيِّ «داع نفسي» إلى الفحشاءِ والمنكرِ، وحتّى معَ وجودِ النّاهي تبقى لهُ الحرِّيَّةُ في أن يستجيبَ إلى النَّاهي، فلا يقعُ في الفحشاءِ والمنكرِ، أوْ أنْ يستجيبَ إلى الدَّاعي فيقعَ فيهما.

إنَّ الصلاةَ والقرآنَ عاملانِ معينانِ للمؤمن كيْ يبقى في حالةٍ منَ التَّقوى، لكنَّهما لا يسلبانهِ الإرادةَ، ولا يلغيانِ كلَّ النَّوازعِ البشريةِ لديهِ منْ شهوةٍ، أو غير ذلك.

* * *

الفصل السادس

(ج) تنهى عن الفحشاء والمنكر

تنهى الصلاة، والقرآن الكريم، وذِكْر الله عموماً عن الفحشاء والمنكر عن طريق السكينة؛ التي تبثها إقامة الصلاة، وتلاوة القرآن في النفس المؤمنة.

فالقلق النفسي ـ وبخاصة الخوف من الفقر، والحرمان ـ قد يولّد في النفس حالة من السخط والإحباط، تبحث عن هدفٍ لها، تنفّس من خلاله عن غيظها وسخطها، والمؤمن لا ترضى نفسه أن يتوجّه سخطه إلى الله تعالى، وهو الرزاق، فتزيح نفسه هذا السخط، وما يرافقه من عداء باتجاه البشر الآخرين، ومشاعر العداء تدفع إلى الفاحشة سواء كانت بين رجل وامرأة، أوكانت شاذة بين رجل ورجل، أو بين امرأة وامرأة.

وكون العداوة دافعاً للجنس أحياناً، وبالتالي كون الممارسة الجنسية الطبيعية (المحرمة) أو الشاذة فعلاً عدوانياً هو من المكتشفات الحديثة في علم النفس، لكن القرآن الكريم

أشار إليها في قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾ [المؤمنون: ٧].

وكذلك في قول لوط ـ عليه السلام ـ لقومه: ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ [الشعراء: ١٦٦].

ولعلَّ هذا يفسّر لنا ورودَ تخويف الشيطان لنا من الفقر، وبثّه للقلق في نفوسنا قبل أمره لنا بالفحشاء، ثم ترافق المغفرة من الله مع الفضل والرزق في قوله تعالى: ﴿ٱلشَّيْطَـٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٨].

والشيطان يمهّد لوساوسه الطريق بإثارة القلق والخوف في نفس المؤمن؛ لذا كان التوكل على الله حصناً يحمي المؤمن من الشيطان، وتأمل قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَـٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَـٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ٩٨ ـ ١٠٠].

وعلى ما يبدو فقد قام الشيطان بإثارة القلق والخوف من المستقبل لدى سيدنا آدم؛ ليجعله قابلاً لتأثيره وغوايته، فإنه عندما زيّن له الأكل من الشجرة التي نهاه الله عن الأكل منها قال له ولزوجه: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَـٰلِدِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠].

﴿قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ وَمُلۡكٖ لَّا يَبۡلَىٰ﴾ [طه: ١٢٠].

وطلب المتعة، والإفراط فيه، والشهوة في الامتلاك المادي، أو الرمزي (كما في المعاشرة الجنسية) قد يكون نتيجة لمشاعر الإحباط والحرمان، فيكون هذا الامتلاك بمثابة تعويض عما يتصوّر الإنسان أنه قد حرم منه، وبهذه الطريقة يمكن للفقر، والحرمان، والخشية منهما في المستقبل أن تولد داعياً نفسياً ينضاف إلى العداوة والعدوان الناتجين من مشاعر السخط وعدم الرضا؛ بسبب الحرمان الواقع أو المتوقع، فيعملُ الشيطان من خلال هذه المشاعر النفسية التي تفقد النفس سكينتها، ويمارسُ تزيينه للإنسان ليقع في الفاحشة، ومعصية الله.

والصلاة، وتلاوة القرآن تعيدان للنفس المؤمنة اطمئنانها، وسكينتها، وتوكلها على الله، فالصلاة حمد، وثناء، وإعلان للرضا عن الله تعالى يعارض أية مشاعر إحباط، وسخط.

كما أن القرآن الذي يتلوه المؤمن في الصلاة وخارجها يعالج كل أنواع القلق الإنساني، فتطمئن نفسه، وتسكن: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

والصلاة بما فيها من أفعال، وأقوال تعطي المؤمنَ الشعورَ بالإنجاز، وأنه قد فعل شيئاً ذا معنى، وذا بقاء، وهي بذلك تعالج واحداً من أهم أسباب القلق الإنساني، وهو: الإحساس باللامعنى، وبخلوّ حياته من الإنجاز.

وكلما أَوْصَدْنا في أنفسنا باباً للقلق أوصدنا باباً في وجه الشيطان الذي ليس له سلطان على النفس المؤمنة المتوكلة على الله.

ومن جهة أخرى فإن الصلاة، وتلاوة القرآن، الأولى مناجاة لله تعالى، والثانية قراءة، واستماع لكلماته، وخطابه، ورسالته لنا.. إنه حوار مع خالق الكون، مع الودود، القوي، الحاضر معنا يسمع ويرى، مع الذي يبادلنا حبّنا له بحب أكبر منه.. مع الذي يراعي مشاعرنا ويرحمنا رغم ضآلتنا وعظمته.

إنه مع هذا الحوار المتجدد كل يوم، وفي معية هذا الرب الرحيم لا يبقى لدى الإنسان إحساس بالعزلة والوحشة في هذا الوجود، ويوصد بابٌ كبيرٌ من أبواب القلق النفسي الذي تنبّه إليه الوجوديون، فأصرّ الملحدُ منهم على أنه لا حل له إلا بالحب بين البشر، أما المؤمن منهم فإنه رأى في الإيمان والحب حلَّيْن ينعم بهما المؤمن، فلا يدخل القلق إلى نفسه من هذا الباب أبداً.

وبهذا يكون في الصلاة، وتلاوة القرآن، وذكر الله عموماً حماية للمؤمن من تزيينات الشيطان، ونهياً له عن الفحشاء والمنكر، ومصدراً للسعادة في الدنيا قبل الآخرة.

* * *

(ب) الزكاة

الفصل الأول: تطهرهم وتزكيهم بها.

الفصل الأول

تطهّرهم وتزكّيهم بها

﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴾ [المؤمنون: ١ ـ ٤].

لقد بُني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصيام رمضان، وحج البيت من استطاع إليه سبيلاً.

لكنْ للصلاة والزكاة أهمية بالغة، إذ لا يكاد الإيمان يُذكر في القرآن إلا وتذكر معه الصلاة والزكاة. وقد قاتل الصديق ـ رضي الله عنه ـ أقواماً من المسلمين منعوا الزكاة.

وعندما أَذِنَ الله للمؤمنين بقتال الكفار، وبشّرهم بتمكينهم في الأرض، ذكّرهم بما يريده منهم عندما يمكنهم فيها، فكان ما يريده منهم بالدرجة الأولى أن يقيموا الصلاة، وأن يؤتوا الزكاة، وأن يأمروا بالمعروف، وأن ينهوا عن المنكر.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١].

إن الصلاة والزكاة مقدمتان على ما سواهما من العبادات في الإسلام؛ لما للصلاة من أثر في النهي عن الفحشاء والمنكر؛ إذ تُقام لذكر الله، ولما للزكاة من أثر عظيم في النفس والمجتمع، فهي طهر للنفس، ونماء للمجتمع.

قال تعالى عن الزكاة وغيرها من الصدقات: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٣].

إذاً الصدقات عموماً، والزكاة خاصة فيها تطهير للنفوس المؤمنة، وفيها النماء، والزيادة، والبركة للمجتمع المسلم.

وكلمة زكاة تحمل المعنيين معاً، فالزكاة: الطهارة، والزكاة: البركة والنماء، وزكاالشيء زُكُوّاً وزكاءً وزكاةً: نما، وزاد، وزكّى الشيءَ، وأزكاه: نَمّاهُ (انظر ـ إن شئت ـ المعجم الوسيط).

لكن السؤال هنا هو: مم تطهِّر الزكاة؟ وكيف يكون فيها النماء والزيادة؟

تطهّرهم:

تطهّر الزكاة والصدقات الأخرى: نفوس المؤمنين من مشاعر سلبية عديدة، كالشعور بالذنب، والحسد، والحقد، والعداوة، والبغضاء، والقلق، والعزلة، والعجز، والنبذ، والهجران.

فقد اقتضت حكمةُ الخالق سبحانه وتعالى أن يتفاوت فضله على عباده، فيكون منهم الغني ومنهم الفقير، ومنهم الصحيح المعافى، ومنهم المريض السقيم، ومنهم القوي، ومنهم الضعيف.

ونفوس المؤمنين نفوس تتربّى على التقوى، وتمتلىء بالضمائر الحية الحيية الرحيمة.

والمؤمن الذي آتاه الله من فضله ما حرم منه غيره، هذا المؤمن ذو الضمير الحي لن ينعم بفضل الله ونفسه مرتاحة، وهو يرى غيره محروماً مما يتمتع هو به، حتى لو كان ما فضل به هو من قبيل الكماليات، وسيجد غصّة كلما تنعّم بعطاء الله.

ومع أنه ليس هو المسؤول عن حرمان المحرومين، فإنه سيبقى يحسُّ بالذنب، إذ هو ينعمُ بالفضل والزيادة وغيره محروم.

وقد لوحظ الشعور الشديد بالذنب عند من نجا من المذابح

ومعتقلات الاعتقال في الحروب الشرسة، بينما قُتِل مَن كان معه من الأسرى، وهذا الناجي يشعر بالذنب لمجرد أنه نجا، بينما هلك الآخرون، مع أنه لا ذنبَ له في هلاكهم، ولم ينجُ على حسابهم إنما هو قدره وأجله، فكيف سيكون حال المؤمن صاحب الضمير الحي إذا تمتع والآخرون محرومون؟

إنه لا بد سيعاني من إحساس بالذنب، مشابه لإحساس الناجين من الكوارث والمذابح؛ التي مات فيها غيرهم.

ونفس المؤمن لن ترتاح حتى يُشْرِكَ المحرومين فيما هو فيه من نعمة، ولكن هل يوزّع كلّ ما لديه من فضل الله على المحرومين لينضم إليهم، ويكونوا في الفقر والحرمان سواءً؟

إنّ هذا ليس هو الحلّ، فهو يعاكس الفطرة، كما يتعارض مع الحكمة التي من أجلها جعل الله فضله بين الناس متفاوتاً.

وهنا تبرز الحكمة من فرض الزكاة على المؤمن يخرجها مما زاد عن حاجته مدة سنة كاملة، وتبرز الحكمة من تحديد الزكاة تحديداً لا غموض فيه، إنها اثنان ونصف بالمئة، يخرجها المؤمن من ماله الزائد عن حاجته؛ الذي بقي لديه سنة كاملة زائداً عن حاجته، ويهنأ بالسبعة والتسعين والنصف بالمئة الباقية لديه، يتنعّم بها بما أباحه الله له من الطيبات، دون أن يشعر بالإثم أو الذنب، وإن هو تصدق بأي شيءٍ فوقها أحس بالرضا

والارتياح الذي يشعر به المؤمن، كلما قام بعمل صالح تطوّعي يؤديه من تلقاء نفسه.

ولو أن الزكاة ـ وهي الحد الأدنى للصدقات ـ لو أنها لم تحدّد برقم، وقام المؤمن بالتصدق بجزء من فضل الله عليه، ولنقل: إنه تصدّق بخمسة بالمئة فإنه قد يبقى لديه إحساس أنه مُقصِّر في حقِّ المحرومين، وأنه لاحقَّ له في أن يتنعَّم بالخمسة والتسعين بالمئة الباقية، وحتى لو زاد صدقته إلى عشرة بالمئة، فإنه سيبقى لديه القابلية للإحساس بالذنب والتقصير، وحتى لو زاد على العشرة بالمئة، أو العشرين بالمئة أو أكثر من ذلك، فإنه سيبقى من المؤمنين أناس ضمائرهم حيَّة تحاسبهم، وتمنعهم من أن ينعموا بما بقي لديهم من فضل الله.

أما وقد حدَّد الله مقدار الزكاة، فإن النفس ترتاح بعد أدائها، إذ يعلم المؤمن علم اليقين أن الله الحكيم الخبير قد فرض في أموال الأغنياء ما يسدُّ حاجة الفقراء، فلا يستقلّ المؤمن مقدار الزكاة، وهو يعلم أن الله قد فتح باب القبول للصدقات التطوعية، وحثّ عليها، ووعد عليها الأضعاف المضاعفة إلى سبعمئة ضعف.

فالزكاة هي الحدّ الأدنى، وباب التطوّع مفتوح، لكن الرسول ﷺ لم يأذنْ للصحابي بأن يتصدق بأكثر من ثلث ماله للفقراء حرصاً على حق الورثة.

هذا بعد موت المؤمن، أمّا في حياته فإن عليه أن يحرصَ على من كلّفه الله أن يعولهم، وينفق عليهم، فالأقربون أولى بالمعروف، وكل نفقة ينفقها على زوجه أو أولاده، إنّما هي صدقة عظيمة الأجر، وأفضل الصدقة ما كان عن ظهر غنىً كما قال النبي ﷺ، أي: الصدقة التي تُبقي المتصدق غنياً، لا التي تستهلك ماله، وتتركه فقيراً.

والصدقات بما فيها الزكاة، إنما هي عطاء مجسّد، يتجلّىٰ فيه قمة النضج النفسي عند الإنسان(١)؛ لأن الإنسان الناضج نفسياً هو الإنسان المعطاء.

ولما كان عمر أربعين سنة يُمثّل ذروة النضج عند الإنسان كان أيضاً كما بينت الدراسات النفسية عمر الانتقال إلى مرحلة العطاء، إذ فيه يبدأ الإنسان بتوجيه أكبر قدر من قدراته للعطاء للآخرين، بدءاً بأولاده وانتهاء بجميع أفراد البشرية.

والعطاء إنما هو حُبٌّ تَجسَّد، والحب الناضج إنما هو حب العطاء لا حبّ الأخذ والانتفاع.

ومن يراقب الأطفال وحبّهم يلاحظ أنه حب أخذ وانتفاع، فالطفل يحب أمه وأباه ليأخذ منهما، أما البالغ

---

(١) أدين بهذه الفكرة للأخت الكريمة والزميلة الدكتورة إيمان محمود القماح، فجزاها الله خيراً، ونفع بها المسلمين.

فيحب ليعطي ويضحي من أجل محبوبه، وإن كانت الرومانسية تجعل للحب عند المراهقين والشباب شكلاً مميزاً.

إن الصدقات بما تمثّله من معاني الود، وبما تجسده من الحب؛ الذي تفيض به نفسُ الغني الشاكر على إخوته المحرومين، إنَّ هذه الصدقات تُطهِّر نفوسَ المحرومين من أية مشاعر حسد، وحقد طبقي، أو غير طبقي تجاه الأغنياء، كما تطهِّر نفوسَ الأغنياء في الوقت نفسه من الشح، والبخل، والإمســاك، والتقتير ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

ثم إن الصدقات تُطهِّر نفوس المحرومين من أية مشاعر سخط تجاه الخالق، يمكن للحرمان أن يولّدها في نفوسهم، وتطهرهم من أية مشاعر عداوة موجهة إلى باقي أفراد المجتمع، ناتجة عن الإحباط الذي يمكن للحرمان الزائد عن الحد أن يثيره في نفوسهم، وتطهرهم من أي شعور بالنبذ، والهجران، والقطيعة بينهم وبين المجتمع، ذلك أن الحرمان والفقر مع كثرة المسؤوليات قد تجعل الإنسان يحس بأن الله قد كرهه وهجره، وأن المجتمع لم يرحمه ولم يشعر به فتمتلىء نفسه قلقاً، وغيظاً، ويضعف شعوره بالانتماء إلى مجتمع لا يهتمّ به، ولا يقف معه في محنته.

وهذه المشاعر السلبية يمكن أن تؤدي إلى الكثير من الرذائل، ابتداءً بالفاحشة والمخدرات، وانتهاءً بالجريمة أو

الثورات الهوجاء المدمرة المدفوعة بالحقد، والحسد، وحب الانتقام.

وعودة إلى نفس المؤمن المتصدق، فإن للزكاة وغيرها من الصدقات أثراً كبيراً في ملء النفس المؤمنة بالرضا والسعادة؛ إذ هي تحقيقٌ للذات، وهي تحقيقٌ للخلافة في الأرض، عندما يتمثّل المؤمنُ من خلال الصدقات الكثير من صفات المولى، وأهمها: العطاء، فالله هو المعطي، وهو المقيت.

وعندما ينجح المؤمن في أن يعطي الآخرين، ويُدْخِل السرور إلى قلوبهم، فإنه يتمتع بالسعادة، ويستشعر الرضا عن نفسه، لا العجب بها، والتكبر، والتعالي، إنما هو يرى أنه بعمله الصالح قد اقترب من الصورة المثالية للمؤمن التقي المستخلف في الأرض؛ التي يحلم دائماً في أن يصل إليها.

وكلما اقترب واقع النفس البشرية من الصورة المثلى التي تسعى إلى تحقيقها، ازدادت النفس طمأنينة، وخفّ قلقها وحَزَنُها، ونعمت بالسعادة.

وتزكّيهم:

الصدقات ـ وعلى رأسها الزكاة ـ تطهر نفوس المؤمنين، وهي في الوقت نفسه فيها النماء، والزيادة، والبركة، وهذه مكاسب اقتصادية تعمّ المجتمع المسلم أغنياءه وفقراءه.

ولدور الزكاة وباقي الصّدقات في النمو الاقتصادي في المجتمع جوانب اقتصادية بحتة، وجوانب نفسية، والجوانب الاقتصادية البحتة أترك بحثها لأصحاب الاختصاص في الاقتصاد، وإن كنتُ أُشير هنا إشارة عابرة إلى أن الصدقات والزكاة بالذات تزيد من القوة الشرائية في المجتمع، إذ الزكاة توزّع حيث المال (إلا في أحوال خاصة)، وعندما توزع على فقراء المجتمع؛ الذي أنفقها أغنياؤه، فإنّ الازدهار والرواج في أسواق المجتمع الناتجة عن هذه الأموال من زكاة وصدقات أخرى يعود نفعها على الأغنياء أنفسهم؛ لأنهم هم أصحاب التجارات والصناعات وغير ذلك.

والزكاة مع تحريم الربا تُوجِدُ في المجتمع تفاعلات اقتصادية مختلفة كثيراً عما هو الحال في المجتمعات الغربية ذات الاقتصاد الحر، مع أنَّ الاقتصاد في الإسلام حرّ إلى حدّ كبير.

وأعود إلى الجانب النفسي المؤثّر في الاقتصاد؛ الذي من خلالها تكون الصدقات عموماً، والزكاة خاصة، نماءً، وزيادةً، وبركة للمجتمع.

ولفهم هذا الجانب نعود لنتذكر الحكمة التي من أجلها فاوت الخالق سبحانه وتعالى في عطائه بين الناس، فكان منهم الفقير ومنهم الغني.

وهذه الحكمة الهامة هي في إيجاد الدافع لدى أفراد المجتمع ليقبلوا العمل في المهن المختلفة الشاقة أو اليسيرة، كل بحسب احتياجه، وبحسب الفرصة المتاحة له، وهذه الفرص هي من فضل الله الذي يتفاوت من فرد إلى آخر.

وعندما توجد الحاجة المالية يوجد الدافع إلى العمل، فالنفس البشرية فيها شهوة الراحة، والكسل، والتفرغ للهو والتمتع، ولولا الحاجة فلربما لم يعملْ من الناس إلا القلائل الذين سيكون عملهم مدفوعاً بدوافع نفسية أخرى.

وكلّما استغنى الإنسانُ مال إلى رفض العمل الشاق، أو العمل ذي الأجر الرخيص، وسعى إلى عمل أقل مشقة، وأعلى أجراً.

وقد بيّن المولى هذه الحكمة من تفاوت الناس في عطاء الله عندما قال: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٣٢].

ومن خلال الزكاة والصدقات الأخرى يتحقق التكافل الاجتماعي في المجتمع، حيث تتأمن حاجة الفقير؛ الذي عجز عن العمل، أو الذي عمل لكن دخله لا يكفيه.

وفي القرن العشرين وجدت صيغ أخرى للتكافل

الاجتماعي في المجتمعات الصناعية وبخاصة الغربية، لكنها لا تقوم على الصدقات، بل على الضرائب المفروضة على الجميع، وفرض على أصحاب العمل أن يدفعوا إلى الهيئات المسؤولة عن الضمان الاجتماعي مبلغاً يكاد يعادل المرتب المدفوع للعامل أو الموظف لديهم، وذلك عن كل عامل أو موظف لديهم، وهذا يعني أن العامل الذي يتقاضى سبعة آلاف شهرياً يكلف صاحب العمل حوالي الأربعة عشر ألفاً، ومن هذا المال الإضافي الذي يدفعه صاحب العمل تقوم الحكومة بصرف رواتب لمن خسر عمله ريثما يحصل على عمل جديد.

وهذا يؤدي إلى شعور العامل بقدر من الأمان؛ إذ لصاحب العمل الحرية في فصله من عمله متى شاء، وفيه قدر من الأمان للمجتمع حيث يستغني العاطل عن العمل عن الجريمة لتأمين احتياجاته الأساسية، لكن هذا النوع من الضمان الاجتماعي، وهذا الشكل من التكافل لا يخلو من مساوىء، وأهم هذه المساوىء أن العاطل عن العمل يزهد فيما يعرض عليه من أعمال، مالم يكن المرتب المعروض أكبر بكثير مما يحصل عليه شهرياً من الضمان الاجتماعي، فإن كان يتقاضى من الضمان الاجتماعي خمسة آلاف مثلاً وأتته فرصة عمل مرتبها سبعة آلاف، فإنه سيرى أنه سيعمل من أجل

ألفين، ولا يرى الألفين كافيين مقابل جهده وعمله، فيرفض هذا العمل، وينتظر عملاً بأجر أعلى، والبعض قد يُؤْثِرُ الحياة البسيطة بمرتب الضمان الاجتماعي، ويزهد في العمل كله.

وكل هذا يؤدي إلى ارتفاع الأجور في المجتمع، وغلاء السلع المنتجة فيها، وغلاء الخدمات، وهذا ناتج إلى حدّ كبير عن عدم تحرج العاطل عن العمل من البقاء معتمداً على المعونة الاجتماعية؛ لأنها تأتيه من الحكومة، والحكومة بالنسبة للمواطنين كالأب بالنسبة لأولاده لا يخجلون من الانتفاع من عطاياها، أما الزكاة وباقي الصدقات، فإنها تشكل مصدر أمان للفقير؛ الذي يمكن أن يفقد عمله أو صحته، وأماناً للمجتمع من أية جريمة ناتجة عن الاحتياج، أو عن الحقد، والحسد.

لكن الزكاة وباقي الصدقات، وإن كان الأصل أن تجمعها الحكومات وتوزعها على مستحقيها، فإن المؤمن يتحرّج من الاعتماد عليها، والتكاسل عن العمل، طالما أنه يأتيه من الزكاة ما يكفيه، فالمؤمن الذي يحتاج إلى خمسة آلاف في الشهر لنفقته ونفقة عياله، سيعمل ولو بثلاثة آلاف، كي يقلّل من اعتماده على الصدقة ما أمكن، فكيف لو أتته فرصة عمل تؤمن له الخمسة آلاف كلها؟ أتراه يتردد، أو يترفّع عنها؟ إنه يعلم أن الصدقة بما فيها الزكاة لا تحلّ لقويٍّ، ولا لذي مِرَّةٍ

سويٍّ إلا ريثما يعمل، وإلا للضرورة الحقيقية.

عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تحل الصدقة لغني ولا لذي مِرَّةٍ سوي» قال أبو محمد: يعني قويّ (رواه الدارمي في سننه).

وقد كرّه النبيُّ ﷺ المؤمنين من السؤال، فقال: «ما يزال الرجل يسألُ الناسَ حتى يأتي يومَ القيامةِ وليسَ في وجهه مُزْعَةُ لَحمٍ» (رواه مسلم).

وقال ﷺ: «من سألَ الناسَ أموالهم تكَثُّراً فإنما يسألُ جَمْراً، فليستقلَّ أو ليستكثر» (رواه مسلم).

وهذا الحديث يبيّن حرمة أكل الصدقة لمن ليس في حاجة إليها، كما حثَّ النبي ﷺ على العمل مهما كان شاقاً، وقليل الأجر، ليستغني المؤمنُ عن الصدقات بأنواعها بما فيها الزكاة.

قال ﷺ: «لأنْ يغدو أحدكم فيَحْطِبَ على ظهره فيتصدقَ به ويستغني به من الناس، خير له من أن يسألَ رجلاً أعطاهُ أو مَنَعَهُ ذلك، فإن اليد العليا أفضل من اليد السفلى، وابدأ بمن تعولُ» (رواه مسلم).

وقد تحمَّلَ أحد الصحابة حَمالَةً، أي: مبلغاً من المال تكفل بدفعه ليفضّ خصومة بين متنازعين، وذلك بهدف الإصلاح

فيما بينهم، فلجأ إلى النبي ﷺ طالباً المعونة في هذه الحمالة التي تحملها، يقول قَبيصةُ بن مخارقٍ الهلالي: تحمّلتُ حمالةً، فأتيتُ رسول الله ﷺ أسألُهُ فيها، فقال: «أَقِمْ حتى تأتيَنا الصدقةُ فنأمُرَ لك بها» قال: ثم قال: «يا قبيصةُ! إن المسألة لا تحلُّ إلا لأحدِ ثلاثةٍ: رجلٌ تحمل حمالة فحلت له المسألةُ حتى يصيبها ثم يمسكُ، ورجل أصابته جائحةٌ اجتاحتْ ماله فحلت له المسألةُ حتى يصيبَ قِواماً من عيشٍ (أو قال: سِداداً من عيشٍ)، ورجلٌ أصابته فاقةٌ حتى يقول ثلاثةٌ من ذوي الحِجا من قومه: لقد أصابت فلاناً فاقةٌ، فحلت له المسألة حتى يصيب قِواماً من عيش (أو قال: سِداداً من عيشٍ) فما سواهن من المسألةِ يا قبيصة سُحْت يأكلها صاحبُها سحتاً» (رواه مسلم).

وعن أبي سعيد الخُدري أنّ ناساً من الأنصار سألوا رسول الله ﷺ فأعطاهم، ثم سألوه فأعطاهم، حتى إذا نَفِدَ ما عنده قال: «ما يكنْ عندي من خير فلن أدَّخِرَهُ عنكم، ومن يستعفف يُعِفّهُ الله، ومن يستغنِ يُغنِهِ الله، ومن يصبر يُصَبِّرْهُ الله، وما أُعْطِيَ أحدٌ من عطاءٍ خيراً وأوسعَ من الصبر» (رواه مسلم).

إنها دعوة إلى العفة، وغنى النفس. قال رسول الله ﷺ:

«ليسَ الغِنى عن كَثْرَةِ العَرَضِ، ولكنّ الغنى غنى النفس» (رواه مسلم).

وعن مالكٍ الأشجعي قالَ: كنا عند رسولِ الله ﷺ تسعةً أو ثمانيةً أو سبعةً، فقال: «ألا تبايعونَ رسولَ اللهِ؟» فقلنا: قد بايعناك يا رسول الله! فعلامَ نبايِعُكَ؟ قال: «على أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، والصلوات الخمس، وتطيعوا (وَأَسَرَّ كلمةً خفيةً) ولا تسألوا الناس شيئاً» فلقد رأيتُ بعضَ أولئك النَّفَرِ يسقطُ سَوْطُ أحدهم فما يسألُ أحداً يناوله إياهُ. (رواه مسلم).

ولحكمة عظيمة حَرَّمَ الله على محمد ﷺ وعلى آله أن يأكلوا الصدقة.

قال أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ: أخذ الحسنُ بن علي تمرةً من تمر الصدقةِ فجعلها في فيه، فقال رسول الله ﷺ: «كِخْ كِخْ، ارْم بها، أما علمتَ أنّا لا نأكلُ الصدقةَ؟!» (رواه مسلم).

وذات مرة قصد شابان من آل محمد إلى رسول الله ﷺ يريدان منه أن يوظّفهما على الصدقات؛ كي يستعينا بما يناله العاملون على الصدقات منها، وذلك ليتزوجا، فقال لهما النبي ﷺ: «إنّ الصدقةَ لا تنبغي لآل محمدٍ، إنما هيَ أوساخُ الناسِ» (رواه مسلم).

وفي رواية ثانية لمسلم: أن رسول الله ﷺ قال لهما: «إنّ هذه الصدقاتُ إنما هي أوساخُ الناسِ وإنّها لا تحلُّ لمحمدٍ ولا لآلِ محمدٍ».

والذي يتأمل هذه النصوص يستطيع أن يتصور كيف تقوم الزكاة وغيرها من الصدقات بكفاية المحتاجين في المجتمع، دون أن تُضعِف الدافع لديهم للعمل، ودون أن ترفع الأجور في المجتمع، ودون أن ترتفع من جرّاء ذلك الأسعار، وتضعف قدرة الصناعة في ذلك المجتمع على منافسة صناعات تنتجها مجتمعات فيها يد عاملة رخيصة.

وهذا لا يعني أن الإسلام يحرص على بقاء فئة معدمة شديدة الفقر في المجتمع، إذ كلما ارتفع مستوى الحياة في المجتمع، كلما ارتفع الحد الأدنى للدخل؛ الذي يحل للمسلم أن يأخذ من الزكاة والصدقات الأخرى إن قلّ دخله عن هذا الحد، فليست القضية مجرد لقمة طعام تمنع من الموت جوعاً، أو قطعة ثياب تستر العورة.

لكن التفاوت في المجتمع مفيد للمجتمع، ولا تستقيم الحياة إلا به، فلو انعدم الفقراء من مجتمع استورد الفقراء من المجتمعات الأخرى، وهذا ما نراه في جميع المجتمعات الغنية التي تستورد اليد العاملة؛ التي ترضى بالعمل فيما يترفع عنه

أهل ذلك البلد الأغنياء، أو لا يقومون به إلا بأجر مرتفع جداً.

إن الزكاة وباقي الصدقات تحل مشكلة الفقر دون أن تضعف الدافعية للعمل، ودون أن تتسبّب في الغلاء كما ذكرنا.

وإن الإسلام شجع المسلم على العمل والكسب الحلال ليكون للزكاة فاعلاً لا آخذاً، ولم يرض النبي ﷺ من المسلم أن يتصدق بكل ماله لينضم بعدها إلى الفقراء المحتاجين.

روى أبو داود في سننه (الحديث رقم ١٦٧٣) عن جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنه ـ قال: كنا عند رسول الله ﷺ إذ جاء رجل بمثل بيضة من ذهب، فقال: يا رسول الله، أصبتُ هذه من معدنٍ فخذها فهي صدقةٌ ما أَمْلِكُ غَيْرها، فأعرضَ عنه رسول الله ﷺ، ثم أتاه من قِبَلِ ركنه الأيمن فقال مثل ذلك، فأعرض عنه، ثم أتاه من قبل ركنه الأيسر، فأعرضَ عنه رسول الله ﷺ، ثم أتاه من خلفه، فأخذها رسول الله ﷺ فَحَذَفَهُ بها، فلو أصابته لأوجعته أو لعقرته، فقال رسول الله ﷺ: «يأتي أحدكم بما يملك فيقول: هذه صدقة، ثم يقعد يستكف الناس، خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى» (رواه الدارمي أيضاً).

كما روى الدارمي أن رسول الله ﷺ قال: «خير الصدقة عن ظهر غنى، واليد العليا خير من اليد السفلى، وابدأ بمن تعول».

وروى الدارمي أيضاً عن أبي لبابة أنه لما رضي عنه رسول الله ﷺ قال: يا رسول الله! إن من توبتي أن أهجر دار قومي، وأساكنك، وأنخلع من مالي صدقة لله ولرسوله، فقال رسول الله ﷺ: «يجزي عنك الثلث».

فالثلث بمثابة حدّ أعلى.

وقد روى البخاري ومسلم عن سعد بن أبي وقاص ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: جاءني رسول الله ﷺ يعودني عام حجة الوداع من وجع اشتد بي، فقلت: يا رسول الله إني بلغ بي من الوجع ما ترى وأنا ذو مال، ولا يرثني إلا ابنة لي، أفأتصدق بثلثي مالي؟ قال: «لا» قلت: فالشطرُ يا رسول الله؟ فقال «لا»، قلت: فالثلث يا رسول الله؟ قال: «الثلثُ والثلثُ كثير ـ أو كبير ـ إنك أن تَذَرَ ورثتكَ أغنياء خير من أن تَذَرَهُمْ عالةً يتكفّفون الناسَ، وإنّكَ لن تنفقَ نفقةً تبتغي بها وجه الله إلا أُجِرْتَ عليها، حتى ما تجعلُ في في امرأتِكَ».

وقد روى أبو داود والدارمي حادثة قد تتناقض مع ما سبق، إذ رويا عن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ أنه

قال: أمرنا رسول الله ﷺ يوماً أن نتصدَّق، فوافق ذلك مالاً عندي، فقلتُ: اليوم أسبق أبا بكرٍ، إن سبقته يوماً. فجئت بنصف مالي، فقال رسول الله ﷺ: «ما أبقيت لأهلك؟» قلت: مثله. قال: وأتى أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ بكل ما عنده، فقال له رسول الله ﷺ: «ما أبقيت لأهلك؟» قال: أبقيت لهم الله ورسوله. قلت: لا أسابقك إلى شيء أبداً.

لكن هذه الحادثة التي تفيد الرخصة في أن ينفق المؤمن نصف ماله، أو كُلَّ ماله، إنما كانت في ظروف طوارىء وجهاد، إذ(١) بلغ رسول الله ﷺ أن الروم جمعت الجموع تريد غزوه في بلاده، وكان ذلك في زمن عسرة الناس، وجدب البلاد، وشدة الحر، فأخذ النبي ﷺ يحثّ المسلمين الموسرين على تجهيز المعسرين الذين ليس لديهم مؤونة، وسلاح، وراحلة؛ ليتمكنوا من الخروج مع الرسول ﷺ للقاء الروم في تبوك، وقد سمي الجيش الذي تكون في تلك الغزوة: جيش العسرة، ولتجهيز جيش العسرة أتى أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ

---

(١) انظر إن شئت كتاب نور اليقين في سيرة سيد المرسلين للشيخ محمد الخضري بك رحمه الله، وانظر ـ إن شئت ـ كتاب حياة الصحابة للكاندهلوي، حيث إن الحديث المروي عند أبي داود والدارمي لم يذكر أن الأمر كان لتجهيز جيش العسرة، وإنما ورد ذلك في السيرة النبوية.

بكل ماله، وأتى عمر - رضي الله عنه - بنصف ماله، وأتى عثمان - رضي الله عنه - بعشرة آلاف دينار وثلاثمئة بعير بأحلاسها وأقتابها، وخمسين فرساً، حتى قال رسول الله ﷺ: «اللهم ارض عن عثمان فإني راضٍ عنه».

هذه هي الظروف التي قبل فيها النبي ﷺ نصف مال عمر، وكل مال أبي بكر، وهذه ظروف استثنائية، المجتمع كله فيها مهدد، إنّها ظروف حياة أو موت لدولة الإسلام الناشئة، والاستثناء لا يلغي القاعدة، بل يؤكدها، والقاعدة أن الصدقة تكون عن ظهر غنى.

ولنتأمل هذه الآيات الكريمة التي يخاطب فيها رب العالمين رسوله ﷺ وهو يأمره بالصدقة، أو الكلمة الطيبة والقول الميسور إن لم يكن لديه ما يعطي السائلين، وذلك ريثما تأتيه رحمة من ربه، أي: خير من ربه يُمَكِّنُه من إعطاء أولئك السائلين.

إنه في هذا السياق بالذات ينهىٰ رب العالمين رسوله ﷺ، وينهى معه كل مؤمن عن أن يبسط يده كل البسط، فيقعد ملوماً محسوراً، إنما هي الصدقة التي تترك المؤمن غنياً، لا التي تأكل ماله وتتركه في زمرة الفقراء المحتاجين، يقول تعالى: ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَـٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لِرَبِّهِۦ

كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٦ ـ ٣٠].

إن المؤمن قد يحسُّ بالتقصير والذنب إن أمسك خيراً لديه، ولم يعطه للسائلين والفقراء، لكن الله يطمئن المؤمن أن الله هو الذي يبسط الرزق لمن يشاء وَيَقْدِرُهُ، أي: يضيّقه على من يشاء لحكمة يراها، إنما على المؤمن الاعتدال بحيث تكون صدقته عن ظهر غنىً، وبحيث يبقى من المؤمنين الذين قال عنهم المولى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ﴾ [المؤمنون: ١ ـ ٤].

وإنني لا أدعو المؤمنين إلى الإقلال من صدقاتهم، إنما أدعوهم لئلا يشعروا بالذنب عندما يقرؤون عن بعض الزهاد الصالحين أنهم كانوا ينفقون كل ما يأتيهم، فلو أن كل مسلم أخرج زكاة ماله فلربما لا يحتاج الأمر فوق الزكاة شيئاً، أو ربما لزم بعض الصدقات مع الزكاة.

والمؤمن الذي يقتصر في إنفاقه على جزء من ماله، ويبقى لنفسه أغلب ماله ليس مذنباً، ولا مقصّراً، فبقاؤه غنياً يعني

أنه سيتصدق مرات ومرات، والقليل الدائم خير من الكثير المنقطع.

قال تعالى: ﴿... وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ...﴾ [البقرة: ٢١٩].

قال القرطبي في تفسيره لهذه الآية الكريمة: «والعفو: ما سَهُلَ، وَتَيَسَّر، وَفَضَلَ، وَلَمْ يشقَّ على القلب إخراجه.. فالمعنى: أنفقوا ما فضلَ عن حوائجكم، ولم تؤذوا فيه أنفسكم فتكونوا عالة».

* * *

(ج) الصيام والاعتكاف

الفصل الأول : نظرات نفسية في الصيام
الفصل الثاني : رمضان شهر القرآن
الفصل الثالث : الاعتكاف ذكر وحرية

الفصل الأول

نظرات نفسيّة في الصيام

إذا أردنا أن نبحث في الفوائد النفسية للصيام، فلا بد لنا من بحث موضوع الإشباع الفوري، وتأجيل الإشباع للحاجات والرغبات عند الإنسان، فالصيام امتناع عن إشباع بعض رغبات النفس وبعض حاجات البدن، وذلك من الفجر إلى غروب الشمس؛ ففي الصيام امتناع عن الأكل إذا جعنا، وعن الشرب إذا عطشنا، وعن الاستجابة الفورية لبعض شهواتنا، وفي هذا الامتناع: تدريب للنفس على ما سماه علماء النفس: «تأجيل الإشباع».

والقدرة على تأجيل إشباع الرغبات، تميز ما بين الطفل الصغير، والبالغ الراشد، وتميز ما بين ناضج الشخصية، وقليل النضج فيها.

فالطفل إذا رغب في شيء، أَلَحَّ عليك لتعطيه إياه، وتراه قد استحوذ عليه التفكير في هذا الشيء الذي رغب فيه، ولم يبق لديه صبر على الحرمان منه، وكثيراً ما يبكي الطفل، إن لم يحصل على ما رغب فيه على الفور، ومع التقدم في العمر،

ينضج هذا الطفل من الناحية النفسية، ويصبح أكثر صبراً على عدم حصوله على ما يلبي رغباته حصولاً فورياً، لكن ذلك يتفاوت من طفل إلى آخر، وكذلك الكبار يتفاوتون في صبرهم على عدم إشباع رغباتهم إشباعاً فورياً لا تأجيل فيه، فحتى بعد بلوغ الإنسان رشده، يبقى هنالك مكان لمزيد من النضج في الشخصية، ولاكتساب المزيد من القدرة على «تأجيل الإشباع».

إنَّ الصبر على عدم حصول النفس على مشتهاها على الفور، جانب هام من جوانب نضج الشخصية الإنسانية؛ ويأتي الصيام في رمضان بمثابة دورة تدريبية سنوية على هذا الصبر، وبمثابة دفعة جديدة نحو المزيد من نضج الشخصية لدى المؤمن، والاستعجال في الحصول على شهوات النفس، صفة إنسانية تكون على أشدها، عند من لم يهذبه الإيمان، قال تعالى: ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾ [الإسراء: ١١].

وقال: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ ۚ سَأُو۟رِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ [الأنبياء: ٣٧].

وقال أيضاً: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ۝٢٠ وَتَذَرُونَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ [القيامة: ٢٠ ـ ٢١].

الصيام والشهوة الجنسية:

لقد أوصى النبي ﷺ معشر الشباب، أن يتزوجوا إذا وجد أحدهم الباءة، ومن لم يستطع أوصاه بالصوم، فالصوم جُنَّة وَوِجاء، ولكن لا من حيث أن الجوع والعطش يرهقان الجسد، فتقل الرغبة الجنسية عند الصائم، فالصائم يفطر عند الغروب، وعندها يذهب الظمأ، وتبتل العروق، وتعود للجسم حيويته، وتعود له الرغبة الجنسية، حتى إن بعض الصحابة كانوا يختانون أنفسهم في ليالي رمضان ـ أي: يباشرون زوجاتهم ـ ذلك عندما كان الرفث إلى نسائهم محرماً عليهم في رمضان، حتى في الليل، وهذا يرينا أن الصوم لم يضعف الرغبة الجنسية لديهم، لكن النبي ﷺ نصح الأعزب الذي عجز عن الزواج بالصوم؛ لأن للصوم على ما يبدو، فائدة في هذه الحالة بآلية أخرى غير إضعاف الجسد بالجوع والعطش.

فالشاب العف والشابة العفة، اللذان لا يقعان في الفاحشة، وما يزالان عزبين يمكن أن يعانيا من انشغال البال بالأفكار والخيالات الجنسية، أو الرومانسية انشغالاً يسمى في العلوم النفسية ـ «انشغالاً وسواسياً» ـ فيه تسيطر الخيالات الجنسية والرومانسية على فكر الشاب أو الشابة، وتعطله عن

أن يوجه ذهنه في دراسته أو عمله، وهذا الانشغال يقوم في النفس حتى حين لا يكون هنالك مثيرات أمام الشاب أو الشابة، وهو أمر متعب للنفس، ويستحوذ عليها، ويجد الإنسان صعوبة في التخلص منه، وهنا تظهر إحدى فوائد الصيام، فقد لاحظ بعض من حدثني عن تجربته الشخصية في هذا المجال، أن الصوم يقضي على هذا الانشغال الوسواسي بالجنس والعشق، دون أن يقضي على الرغبة الجنسية نفسها، حيث تبقى لدى الصائم القدرة على الاستجابة إلى المثيرات الجنسية، والقابلية للتأثر بها إذا ما تعرض لها.

والعامة عادة لا يحبذون الزواج في رمضان أو قبله مباشرة، لأن العروسين الجديدين، يجدان صعوبة بالغة في الامتناع عن أي فعل جنسي أثناء النهار رغم أنهما صائمان، لا يأكلان ولا يشربان، أما العزب الصائم، الذي يغضّ بصره، ويبتعد عما يثيره، يبقى ذهنه حراً، وغير منشغل بالأمور الجنسية الرومانسية، وبهذا يكون الصوم وِجاءً له إذا ما اقترن بغض البصر والابتعاد عن دواعي الزنى، كما للصوم أثره في العزب، من حيث هو عبادة مستمرة ـ من الفجر إلى المغرب ـ.

والصائم إن نَسِيَ للحظات أنه صائم، فإنه لا يلبث أن يعود إلى جو العبادة التي يعيشها، وهذا بدوره يجعله أقل

رغبة، في نظرة لا تحل له، أو غير ذلك مما ينبه الرغبة الجنسية لديه.

الصيام وسوء الخلق:

لقد فرض الله علينا الصيام في رمضان، ليقربنا إلى التقوى وليدخلنا فيها، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٣].

وكظم الغيظ والعفو عن الناس، من أساسيات التقوى التي يهدف إليها الصيام، قال تعالى معدداً بعض صفات المتقين: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

وقد عَلَّمنا النبي ﷺ أن نقول إن تعرضنا لجهل جاهل علينا، أو سابَّنا أو شادَّنا أحد: «إني صائم، إني صائم»؛ وذلك كي نصبر، ونملك أنفسنا، فلا نرد على المسبّة بمثلها، ولا ندخل في شجار، أو مشادة، فالصائم في عبادة، والعابد وقت العبادة، يترفع عن أن يرد على من يشتمه، أو يشاده.

وفي رمضان تتحسن أخلاق المتقين، لكن بعضنا يصبح نكد المزاج، ويغضب لأتفه الأسباب، ولا يبدي أي استعداد

لتحمل الناس، ولا يقوم على خدمتهم ـ حتى لو كان ذلك مهنته ووظيفته ـ فهو صائم ولا صبر لديه، ثم إنه يقلّ إنتاجه في عمله إلى حد كبير، لأنه كما يقول: صائم! فهل يا ترى يتسبب الصيام بكل هذا؟ وكيف يتسبب بذلك، وكظم الغيظ والعفو عن الناس، من أخلاق التقوى، وأين الخلل إذاً؟

صحيح أن الجوع والعطش قد يجعلان الإنسان عصبي المزاج قليلاً، وذلك إذا اشتدا كثيراً، وهذا لا ينطبق على الموظف الحكومي الصائم، الذي تبدأ عصبيته وكسله منذ الساعة الثامنة صباحاً، ولا يمكن للصائم أن يحتج بالجوع والعطش منذ الصباح، ليبرر سوء خلقه مع الناس.

إن السبب الحقيقي لسوء أخلاق بعض الصائمين في رمضان، هو أنهم يجدون العذر والمبرر بأنهم صائمون، كي يظهروا أخلاقهم السيئة، ويُعَبِّروا عنها، ويمارسوها وهم مطمئنون إلى أن المجتمع سيتحمل سوء أخلاقهم، ويغفر لهم ذلك، فهم صائمون، وعلى الناس تحمل طباعهم السيئة، مقابل أنهم تكرموا علينا فصاموا، وكأنما هم صاموا لنا ولم يصوموا لله؛ الذي وعد على الصيام مالم يعد على سواه. . . إنهم يتبعون أنفسهم هواها، ويتصرفون وفق الأخلاق السيئة، التي لو أتيح لهم، لكانت هي أخلاقهم في الصيام وبعد الصيام.

أسبـــاب العصبيـة والغضب:

لكن هنالك أسبابٌ أخرى لعصبية بعض الصائمين، وسرعة غضبهم، لعل أهمها أن بعضهم مدمن على التبغ، فهم مدخنون، والمدخن الذي يواظب على التدخين يومياً ولمدة طويلة، يكون في الحقيقة مدمناً على التبغ، وعندما ينقطع لبضع ساعات، يبدأ يعاني من أعراض الحرمان من التبغ، الذي اعتادت عليه خلايا دماغه، فيشعر بالعصبية، وسرعة الغضب، والتململ، والصداع، وضعف التركيز، وانخفاض المزاج، والقلق، وضعف الذاكرة، واضطراب النوم (وهي أعراض تختفي خلال أسبوع إن بقي ممتنعاً عن التدخين)، وهذه الأعراض ناجمة عن الإدمان على التبغ، وليست ناتجة عن الصيام بحد ذاته، فالشخص الطبيعي الذي لم يدمن شيئاً، لا يمر بها إن صام.

كما أن هناك إدماناً آخر، شائعاً بين الناس، يتسبب في عصبية بعض الصائمين، وهو الإدمان على الكافئين، وهي المادة المنبهة في القهوة، والشاي، والكاكاو، والكولا، والانقطاع المفاجىء عن الكافئين، يتسبب ـ إن طالت ساعاته ـ بشعور المدمن بالكسل والنعاس، وفقد الرغبة في العمل، وبالعصبية، وانخفاض المزاج.

وإذا بلغ الانقطاع عن الكافئين عند المدمن عليه، ثماني عشرة ساعة أو أكثر، فقد يصيبه صداع يشمل رأسه كله، ويتميز بأن الألم فيه نابض يشتد مع كل ضربة من ضربات القلب، وقلما تبلغ ساعات الصيام ثماني عشرة ساعة في هذه البلاد، لذا كان من المفيد لمن أدمن على الكافئين، أن يخفف تناوله للقهوة، والشاي، والكاكاو، والكولا، تخفيفاً تدريجياً قبل رمضان، وذلك استعداداً للصيام، وعليه أن يتناول شيئاً منها عند السحور، حتى لا يعاني من أعراض الحرمان منها أثناء الصيام.

الصيام وانخفاض المزاج:

إن من أسباب تعكر مزاج بعض الصائمين، وانخفاض معنوياتهم عند الصيام: وجود قدر من القلق النفسي لديهم، والخوف الغامض من أن يعانوا من امتناعهم عن الطعام والشراب، وأن عليهم الانتظار إلى المغرب، وهذا القلق لا داعي له، طالما أن الصائم يستطيع أن يفطر متى بلغ به الجهد حداً لا يطيقه، وله أن يفطر إن أصابه من الألم أوالمرض ما يستلزم تناوله للأدوية ـ سواء منها المسكنة للألم، أو المعالجة للداء ـ والرخصة قائمة، والصائم حرٌّ في الأخذ بها، طالما أن مرضه لا يشكل فيه الصيام ضرراً على صحته، فالله لم يجعل علينا في ديننا أي نوع من أنواع الحرج، أما إن كان الصيام

يؤدي إلى الضرر بسبب المرض الموجود، صار الإفطار واجباً وليس مجرد رخصة، فعلينا أن نستعين بالله، ونصوم ونحن مرتاحو البال، إلى أننا لو بلغت معاناتنا من صيامنا حداً مؤلماً، فإن الله بنا رحيم، ولنا في رخصته راحة ومخرج.

وعادة لا يبلغ الجهد بالصائم حداً يضطره إلى الإفطار، إلا في حالات خاصة، كالذي تعرض للحر، فيعطش عطشاً شديداً، وكان ضعيفاً وفاته السحور، وآذته عضات الجوع في معدته، وما شابه ذلك من حالات.

وحدّ المشقة والحرج صعب التحديد، إنما هي تقوى المؤمن، فالله عليم بخفايا النفوس، أما أطفالنا فعلينا ألا نشدد عليهم، إن لاحظنا أن الجوع أو العطش قد آذاهم، فإن أصرارنا عليهم كي يتموا صومهم، قد يولد في نفوسهم الكراهية لهذه العبادة الرائعة، وقد يدفعهم إلى الفطر خلسة، ويتعلمون بذلك الكذب والغش.

ومن أسباب انخفاض المزاج والتكاسل عن العمل في رمضان، أن بعض الصائمين ينفقون الليل في السمر، والأكل، والشرب، حتى إذا اقترب الفجر تسحروا وناموا، لكن الساعات الباقية لهم حتى موعد العمل لا تكفيهم، كي يستعيدوا نشاطهم، فيذهبون إلى أعمالهم مرهقين، وتكون ساعات العمل بالنسبة لهم شاقة، ومزعجة، وذلك نتيجة

نقص النوم، وليس نتيجة للصِّيام.

عضـــات الجوع وبركـــة السحور:

الصيام مدخل إلى التقوى، وحُسْن الخلق، والصبر على الناس، والصيام كما أمرنا الله به ـ من الفجر إلى غروب الشمس ـ يجب ألا يوصلنا إلى حالة من الجوع الشديد، الذي يترافق مع عضات الجوع في المعدة، ويصاحبه التوتر النفسي والعصبية، ذلك أن المعدة بعد أن تفرغ من الطعام الذي كان فيها، ويمضي على فراغها عدة ساعات، تبدأ فيها تقلصات شديدة ـ تسمى «انقباضات الجوع» ـ وتترافق مع الإحساس النفسي بالجوع، وتكون هذه التقلصات في المعدة على أشدها في الشباب والشابات، ذوي الصحة الجيدة، حيث تكون المعدة لديهم نشيطة، وانخفاض سكر الدم يزيد من انقباضات الجوع هذه كثيراً، فإذا طال جوع الإنسان صارت انقباضات الجوع مؤلمة، وسميت «عضات الجوع»، وهي تظهر عادة بعد (١٢) إلى (٢٤) ساعة من آخر وجبة، وهذا يختلف من شخص إلى آخر؛ أما إن كان الجائع في مجاعة، واستمر جوعه، فإن عضات الجوع تشتد، حتى تبلغ أقصى مدى لها خلال (٣) إلى (٤) أيام، ثم تضعف بالتدريج في الأيام التالية، حتى لو استمرت المجاعة، ويتلاشى معها الإحساس بالجوع.

إن الجوع هو: الإحساس الذي يدعو الكائن إلى تناول

الطعام، وقد وجد العلماء في الدماغ مركزاً صغيراً جداً، إذا ما تنبه، أحس الكائن بالجوع وأقبل على الطعام، وإذا ما خربه المرض أو استأصله الجراح، فإن الحيوان أو الإنسان يفقد الرغبة في الطعام نهائياً ويموت جوعاً على الرغم من أن الطعام أمامه.

وحتى لا يبلغ الأمر بنا مبلغ عضات الجوع، نهى النبي ﷺ عن تأخير الفطر من جهة، فقال: «لا يزال الناس بخير ما عجلوا الفطر». (رواه البخاري ومسلم). وحثنا على السحور من جهة أخرى فقال: «تسحروا فإن في السحور بركة» (رواه البخاري ومسلم).

فليست المبالغة في الجوع والعطش هي الغاية من الصوم، إنما المطلوب مجرد الامتناع عن الطعام والشراب، وغيرهما من المفطرات من الفجر إلى الغروب، ولو سبق هذا الامتناع وجبة جيدة، تعين عليه، وتخفف مشقته، لما قلل ذلك من ثواب الصائم، بل على العكس، فإن السحور يجلب المزيد من الثواب، لأنه سنة النبي ﷺ.

قيام الليل يُحسِّنُ المزاج:

رمضان شهر القيام، قال ﷺ: «من قام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه» (متفق عليه).

وقد خلق الله النهار لننشط فيه، ونبتغي من فضل الله، وخلق الليل لنسكن فيه، ونهجع، والنوم نعمة من نعم الله علينا، إذ في النوم راحة لجهازنا العصبي، فلو حرم الإنسان من النوم لبضعة أيام، فإن عمل الدماغ لديه يضطرب.

وفي النوم ترميم لما اهترأ من جسم الإنسان، كما يتم النمو خلاله أيضاً، وخاصة نوم الليل، حيث تزداد الهرمونات التي تُنشِّطُ النمو والترميم أثناء الليل، ويزداد في النهار بدلاً عنها هرمونات منشطة من أجل العمل والحركة، وفي النهار يغلب معدلُ الاهتراء في الجسم معدلَ الترميم والبناء، قال تعالى: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [القصص: ٧٣].

لكن الله أثنى على المتقين، بأنهم كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٥ ـ ١٨].

وهنا يثور في الذهن تساؤل: لقد اختار الله الليل ليكون وقت الاستغراق في العبادة، لكن هل يكون ذلك على حساب صحة الإنسان العقلية، ونحن نعلم كم هو مفيد نوم الإنسان في الليل؟

والجواب أنه لن يكون ذلك أبداً، فقد كشفت دراسات الأطباء النفسيين ـ في السنين الأخيرة ـ أن حرمان المريض المصاب بالاكتئاب النفسي من النوم ليلة كاملة، وعدم السماح له بالنوم حتى مساء اليوم التالي، هذا الحرمان من النوم له فعل عجيب في تخفيف اكتئابه النفسي، وتحسين مزاجه، حتى لو كان من الحالات التي لم تنفع فيها الأدوية المضادة للاكتئاب، ثم أجريت دراسات أخرى، فوجدوا أنه لا داعي لحرمان المريض من النوم ليلة كاملة كي يتحسن مزاجه، إنما يكفي حرمانه من النوم النصف الثاني من الليل، لنحصل على القدر نفسه من التحسن في حالته: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٧ـ١٨].

إذاً لقيام الليل والتهجد في الأسحار جائزة فورية، وهي اعتدال وتحسن في مزاج القائمين والمتهجدين، وفي صحتهم النفسية.

الصيـــام صبر والتـزام:

الصيام تدريب على الصبر، فالصوم كما قال النبي ﷺ شطر الصبر، والصبر شطر الإيمان، والصبر في جوهره: رضا، فعندما يصبر الإنسان على الصوم، فإنه يصوم وهو راضٍ بهذا الصوم، غير متذمر منه ولا حتى في سره، فهو

يمتنع عن الطعام والشراب وغيرهما من المفطرات، من تلقاء نفسه، يلتزم بذلك من الفجر وحتى الغروب، ولا يحتاج إلى رقيب عليه، وهذا الالتزام بالامتناع عن الطعام والشراب دون مقابل، إلا ابتغاء رضوان الله، يجعل البقاء دون طعام وشراب هذه الساعات الطويلة، أهون بكثير مما لو كان البقاء دون أكل وشرب ناتجاً عن مانع من خارج النفس، كأن يمنعك شخص من الوصول إلى الطعام والشراب؛ ففي هذه الحالة يكون الجوع والعطش أشد، وهذا ما بينته الاختبارات النفسية، حيث وجدت أن «الالتزام يغير الدافع»، ففي إحدى التجارب، حضر الأشخاص الذين ستتم عليهم التجربة دون أن يأكلوا أو يشربوا لعدة ساعات قبل مجيئهم، ثم طلب من بعضهم أن يبقى دون طعام أو شراب فترة أخرى ـ دون أي مقابل مالي، أو غير مالي ـ وذلك بأن يلزموا أنفسهم بذلك، فيكون صومهم التزاماً منهم، وقراراً اتخذوه بحرية وإن كان بناءً على طلب من الباحثين، أما باقي الأشخاص المجرب عليهم، فلم يطلب منهم الالتزام بالبقاء دون طعام أو شراب، إنما تُركوا دون طعام أو شراب، وجعل الأمر يبدو لهم وكأنه غير مقصود، وفي النهاية: أُجريت على الجميع اختبارات نفسية لمعرفة شدة الجوع والعطش لديهم، فوجد أن الذين التزموا بالامتناع عن الطعام والشراب التزاماً، كانوا أقل جوعاً

وعطشاً، من الذين تمت مماطلتهم بحيث صاموا الساعات نفسها، ولكن دون التزام منهم بذلك، كما تمت معايرة «الحموض الدسمة الحرة» في دمائهم، وهي مواد تزداد في الدم كلما اشتد جوع الإنسان، فوجد أنها كانت أقل ازدياداً عند الذين التزموا بالصيام التزاماً، فالالتزام بالصوم أثّر ـ حتى على رد فعل أجسامهم الفيزيولوجي ـ على بقائهم دون طعام أو شراب الساعات الطويلة.

وفي دراسة أخرى: درس العلماء أثر الالتزام على العطش، فوجدوا أن العطش عند من التزم من نفسه بالامتناع عن الماء، كان أقل حتى في الاختبارات التي تكشف مدى انشغال النفس لا شعورياً بالعطش، وبالرغبة في الماء.

إن الصبر في الحقيقة، التزام ورضا بالحال التي يضعنا الله فيها، وبالصبر تهون المعاناة، وتقل؛ لأن الرضا حتى بالمصيبة يشبه الالتزام بها، كالذي منع نفسه من الطعام والشراب من نفسه، لأنه يريد الصيام لله تعالى، والذي ابتلاه الله بالفقر والمرض، أو فَقْد عزيزٍ فصبر، فإنه امتنع عن الشيء الذي حرم منه، امتناعاً عن رضا وقناعة، امتناعاً يشبه امتناع الصائم، وإن كان رفضه لهذا الحرمان، لا يغير شيئاً من الواقع، بخلاف رفض الصائم للصيام، إذ يمكنه الأكل والشرب. وهذا الامتناع الراضي، يكون أقلَّ إيلاماً للنفس، مما لو تلقّى

المصيبة بتذمر وسخط وغضب.

الصيام تهذيب نفسي:

يتفاوت الناس في فضل الله عليهم، ففيهم القوي وفيهم الضعيف، وفيهم الغني وفيهم الفقير، وفيهم صاحب الجاه والسلطان، وفيهم الشخص العادي الذي لا سلطان له؛ وعندما يعطي الله من فضله أحداً أكثر من غيره، فإنه قد ينسى أن قدرته وقوته، أو غناه أو سلطانه، إنما هو فضل من الله وامتحان واختبار له، أيشكر أم يكفر هذا الفضل، فإذا ما نسي ذلك غرته قدرته، وغره ماله، ودعاه ذلك إلى أن يتكبّر ويتجبّر على الآخرين، ناسياً قدرة الله عليه، وأن الله هو الجبار، وهو القاهر فوق عباده.

وفي رمضان، يصوم المؤمن، ويمضي الساعات الطويلة بلا طعام ولا شراب، فيشعر بشيء من الضعف في قوته، ويشعر بالحاجة إلى الطعام والشراب، ويسره أن تغيب الشمس، حتى يتمكن من أن يأكل ويشرب من جديد، إن الصائم يستشعر بهذا ضعفه البشري، فيقل اغتراره بقوّته، وتتطهر نفسه من نزعة التجبر والعلو في الأرض، إذ كيف يتجبر وهو لم يصبر دون طعام وشراب أكثر من ساعات؟ ولعل هذا من الفوائد النفسية الهامة للصيام، لأنه يُرجع المغرور إلى الواقع، ويخلصه من عقدة التفوق والعلو التي أفسدت عليه نفسه.

كما أنَّ الصوم، بما يترك في نفس الصائم من إحساس بالضعف، والحاجة إلى لقمة طعام، وإلى جرعة ماء، هذا الصوم يجعل للآيات الكريمة، التي وعدت المؤمنين في الجنة: الطعام والشراب، ضمن ما وعدتهم به من نعيم، يجعل لها أثراً كبيراً في النفس، أكبر مما يكون لو أن الإنسان الذي أنعم الله عليه، قد أمضى عمره كله دون أن يجوع أو يعطش، فكما أن الصحة تاج على رؤوس الأصحاء، لا يراه إلا المرضى، فإن الطعام والشراب نعمة من الله، لا يعرف قدرها إلا من جاع وعطش.

* * *

الفصل الثاني
رمضان شهر القرآن

في رمضان أُنزل القرآن. . ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ . . ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وفي رمضان موسم للقيام، والقيام: ترتيل للقرآن ضمن أركان صلاة خاشعة. . ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴾ [المزمل: ١ ـ ٤].

يتلو المؤمن القرآن فتطمئن نفسه. . ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ [الرعد: ٢٨].

ويتلو المؤمن القرآن فتنجلي عن نفسه غمتها، ويذهب عنها همها، ويزول انقباضها فَيُشْفَى صدره مما فيه من حَزَنٍ وكرب ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: ٥٧].

أجل في القرآن الشفاء لما في الصدور، وفي القرآن الطمأنينة للنفس المؤمنة؛ لأن فيه التكريم للإنسان، والاستخلاف في الأرض عن خالق الأرض والسماء، وفيه تسخير لما في السموات والأرض لهذا الإنسان المكرم المستخلف. وهو رسالة من المولى تعالى لنا جميعاً، ولكل منا على حدة، رسالة حملها جبريل عليه السلام إلى محمد ﷺ، ثم بلّغنا إياها نبيّنا ﷺ البلاغ المبين.

القرآن خطاب ورسالة تخاطب كل واحد منا بذاته وشخصه، فما كان جبريل إلا رسول، وما كان محمد ﷺ إلا رسول، أما الرسالة فهي هذا القرآن.. هذا الكتاب الذي يخاطبني فيه الله ويخاطبكم أنتم.. وهل بعد هذا من كرامة؟

وقد أرسل الخالق العظيم إلينا رسالة في حجم كتاب، فيها كلماته لنا، وإرشاده، وهداه، فهل يحق لأحد منا أن يشعر بالتفاهة، وبأنه ذرة ضائعة في كون لا يتخيل حدوده، وقد أرسل إليه خالق هذا الكون الكبير تلك الرسالة المطولة الهادية؟!

كان إقبال ـ الفيلسوف المسلم ـ يقرأ القرآن كما يقرؤه الكثير من المسلمين، فقال له أبوه ذات مرة: اقرأه يا بني! وكأنما يتنزل عليك.. ما كان أبوه يدعوه إلى أن يظن نفسه نبياً، إنما كان يذكره بأن هذه الكلمات التي كان يتلوها إنما هي رسالة له نفسه، لإقبال بالذات، من رب العالمين خاطبه

بها، وإن كان قد خاطب معه بها كل مؤمن، وكل إنس وجن.. ومنذ ذلك اليوم صار للقرآن الكريم وقع آخر في نفس إقبال.

إذا أتتني رسالة من حبيب، كم تراني أقرؤها، ثم أعيد قراءتها المرة تلو الأخرى دون أن أَمَلَّ؟ فهل أَمَلُّ قراءة رسالة رب العالمين، ربي وخالقي وحبيبي؟

بعد وفاة النبي ﷺ، ووفاء له أراد أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ أن يزور أم أيمن حاضنة النبي ﷺ، فقال لعمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ: انطلق بنا إلى أم أيمن ـ رضي الله عنها ـ نزورها! فلما انتهيا إليها بكت، فقالا لها: ما يبكيك؟ ما عند الله خير لرسوله.. لقد ظنا أنها إنما بكت لوفاة النبي ﷺ، لكنها قالت لهما: والله ما أبكي ألا أكون أعلم أن ما عند الله خير لرسوله، ولكن أبكي أن الوحي انقطع من السماء، فهيجتهما على البكاء فجعلا يبكيان. (مسلم وأحمد والبيهقي).

اللهم إنّا نسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك: أن تجعل القرآن ربيع قلوبنا، ونور صدورنا، وجلاء حزننا، وذهاب همّنا. اللهم آمين.

* * *

الفصل الثالث
الاعتكاف ذكر وحرية

كان رسول الله ﷺ يعتكف في كلِّ رمضان عَشرةَ أيام، فلما كان العام الذي قُبضَ فيه اعتكف عشرين يوماً، وكان يعتكف العشر الأواخر من هذا الشهر الكريم.

والاعتكاف هو: المكث في المسجد للصلاة، أو الذكر، أو العلم، أو لمجرد المكث والنوم فيه، ولا يخرج من المسجد إلا لحاجة، ولا يباشر أهله طيلة مدة الاعتكاف.

والاعتكاف عبادة تطوعية، واظب عليها النبي ﷺ في كلِّ رمضان، لكنه لم يصح عنه أمر للمؤمنين بها، ولعلَّ لذلك حكمة، وهي: رفع الحرج نهائياً عمن لم يقم بها.

وللاعتكاف آثار طيبة في نفس المعتكف؛ إذ عندما يعتكف المؤمن في المسجد، ويمضي فيه ليله ونهاره يتعمق إحساسه بوجود الله، ويملأ نفسه على المستويين الشعوري واللاشعوري، وذلك طيلة أيام الاعتكاف.

ولفهم الطريقة التي يعمق فيها الاعتكاف من ذكر الله، تخيل أخي القارىء أنك دخلت قصر ملك من الملوك، فإن

معرفتك أن هذا القصر الذي أنت بين جوانبه هو قصر الملك يجعل للملك حضوراً في نفسك، وإن أنت انشغلت في التفكير في أي شيء آخر، فإن الملك يبقى في ذهنك، ولو في الخلفية من مسرح تفكيرك ما دمت في قصره؛ ذلك أن كل شيء يقع عليه بصرك يذكرك به ولو بشكل لا شعوري.

والمسجد بيت الله، والاعتكاف فيه يجعل إحساس المرء بوجود الخالق سبحانه وبحضوره أشد وأقوى، فتخفّ غفلته، ويتحقق له نوع من الذكر في القلب، إضافة إلى ذكر اللسان، حيث لا تنسى نفسه رب العالمين لحظة واحدة.

إنه يذكر الله إما بشعوره أو بلا شعوره ما دام موجوداً في بيته، وهكذا يكون الاعتكاف ذكراً، فكيف يكون حريةً؟

يعيش الناس في مجتمعات، وكل مجتمع يصوغ شخصيات أفراده، وقيمهم، وأخلاقهم، وعاداتهم، وفق نمط ثابت ومتكرر إلى حدّ كبير، وأي خروج عن عادات المجتمع، وتقاليده، وقيمه يضع الفرد تحت وطأة ضغوط متعددة يمارسها المجتمع عليه ليضبط سلوكه، وليعيده إلى الطريقة التي يرسمها له المجتمع.

فالذي يريد أن يخالف عادات الناس في سلوكه، أو أفكاره، أو زيّه، أو غير ذلك يأخذ مَنْ حوله بمحاولة إقناعه

ليعدل عن السلوك الجديد، أو الدين، أو الزيّ؛ الذي خالف به عادات مجتمعه، وتقاليده.

والإقناع يمارسه الأقربون والمحبون، أما الناس فيجعلون من الذي خالف عاداتهم، وتقاليدهم مادة لحديثهم، يغتابونه، ويهزؤون من فعله أو قوله، وقد يتجرأ عليه بعضهم فيسخر منه، ويعيب عليه في وجهه، ويلقّبه الألقاب القبيحة المهينة، وإن كان في الأصل موضع إجلال واحترام، وأصرّ على مخالفة التقاليد سقط من أعين الناس، وصار موضع احتقارهم وازدرائهم، وصار يلمس استهانتهم به وبكلامه.

وفي بعض المجتمعات وبخاصة إن كان السلوك الذي خرج فيه على تقاليد الناس وعاداتهم يعدّ كبيرة هجره الناس، وامتنعوا عن الكلام معه امتناعاً تاماً، وتركوه يعيش بينهم منبوذاً.

هذه هي أهم وسائل الضبط والتحكم الاجتماعي التي يمكن أن تقع على الفرد، وهي وسائل تتحكم بسلوك الفرد لتضبطه وفق العادات والتقاليد، إضافة إلى القوانين المكتوبة التي تضمن السلطات تقيد الفرد بها.

وإذا تأملنا في الأمر وجدنا أن المجتمع يسلب الإنسان القسط الأوفى والأكبر من حريته الشخصية، ولا يشجع فيه أي ميل للإبداع؛ لأن أيّ إبداع هو خروج على المألوف والمعتاد؛

لذا يجد الفرد صعوبة بالغة في اتباع دين، أو فكر جديد آمن به، ويحتاج الأمر إلى صلابة وقوة في الشخصية تمكنه من أن يسير عكس التيار.

وهذا ما واجهه النبي ﷺ عندما بدأ دعوته في المجتمع المكي؛ الذي كان مجتمعاً يقدس التقاليد، ويدين لها، ويرفض أي تجديد، أو تغيير يخالفها.

وكان لابد لمحمد ﷺ من إعدادٍ لهذه المواجهة مع المجتمع؛ الذي وُلِد فيه، وترعرع بين ناسه، وانتمى إليه.
ولعل تحنثه في غار حراء، الذي كان بإلهام من الله تعالى، إذ لم يكن عادة يتّبعها أهلُ مكة، لعل تحنثه وعزلته في الغار، هنالك في الأعلى، بعيداً عن صخب مكة، وعن نظرات أهلها، لعله كان استشفاءً لنفس النبي ﷺ من الخشية من الناس، تلك التي يغرسها مجتمع التقاليد في نفوس أبنائهم منذ السنين الأولى من العمر، ومنذ أن ينهرهم على الفعل القبيح، ويقول لهم «عيب».

ولعل التريث في إظهار الدعوة كان لتربية الرسول ﷺ والمسلمين الأوائل حتى يثبتوا في وجه الضغوط الاجتماعية؛ التي كان من المتوقع أن يتعرضوا لها عندما يجاهرون بخروجهم على قيم مجتمعهم، وعاداته، ودينه.

ورغم كل ذلك يبقى لدى النبي ﷺ أثر من الخشية من

كلام الناس ينكشف عندما يخبره الوحي أن الله سيزوجه من زينب مطلقة ابنه بالتبني، وقد كان هذا عند عرب الجاهلية عاراً كبيراً، إذ كانوا يساوون بين الولد بالتبني والولد الحقيقي في كل شيء.

لقد تحرج النبي ﷺ من الحديث إلى الناس بما أخبره الوحي، فنزلت الآيات الكريمة تكشف ذلك كله، وتنسف كل أثر لخشية الناس في نفس النبي ﷺ.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾ [الأحزاب: ٣٧ ـ ٣٩].

وهنا يأتي دور الاعتكاف، فالاعتكاف من حيث هو مكث في المسجد ليل نهار يحمي الإنسان من المؤثرات الاجتماعية المقيدة لحريته في أن يعيش كما يؤمن؛ إذ في العادة لا يكاد

المجتمع يغيب عن بال الفرد في كل قرار يتخذه، أو تصرفٍ يتصرفه.

ولا يستطيع الإنسان أن يتحرر من ضغط المجتمع على حريته إلا إن هو خرج بنفسه خارج نطاق هذا المجتمع خروجاً كاملاً، كما فعل النبي ﷺ عندما كان يتحنث في غار حراء.

ولما كان هذا غير عملي للغالبية العظمىٰ من الناس كان الاعتكاف بديلاً رائعاً له، إذ تخرج من قبضة المجتمع لتلجأ إلى بيت الله حيث تخشى الله، ولا تخشى أحداً إلا الله، وحيث تستمد قوة تعينك في مقاومة ضغوط المجتمع عليك، تلك الضغوط التي تكبلك، وتعيق نموك النفسي وتحقيقك لذاتك، وبالتأكيد يخرج الإنسان من اعتكافه وشخصيته أقوى وأنضج مما كانت عليه عندما دخل.

* * *

(د) الحـج

الفصل الأول : من الآثار النفسية للحج

الفصل الثاني : الحكمة في مناسك الحج

الفصل الثالث: المزيد من الآثار النفسية للحج

الفصل الأول
من الآثار النفسية للحج

خلق الله الإنسان، وجعله سميعاً بصيراً، وبث فيه الشوق لمعرفة كل شيء، فترى الإنسان يبحث عن تصور لكل حادث، أو مكان، أو إنسان، أو أمر سمع عنه، فإن لم يتيسر له التصور الصحيح ربما أبدع خياله التصورات، حتى لو كانت سخيفة وغير منطقية، لكن يظن أنها تسد جوعة عقله، فعندما جهل الناس كيف تحدث الزلازل قالوا: إن الأرض محمولة على قرن ثور عظيم، فإذا تعب من حملها نقلها إلى قرنه الثاني فتهتز وهو ينقلها.

أما الذي يتنزه عن التخيلات والظنون، فإنه لا يبتدع الأساطير ليريح عقله الباحث عن التصورات، بل يفضل أن يتحمل عبء الغموض، وأن يصبر عليه حتى يجعل الله له نوراً.

لكن ماذا إن سنحت لي الفرصة أن أرى ما آمنت به بالغيب رأي العين، فتطمئن نفسي عندما تتصور ما سمعت عنه؟ هل أفوّت الفرصة؟ بالطبع لا. ومن قبل قال سيدنا إبراهيم عليه

الصلاة والسلام: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠].

لقد آمن إبراهيم وصدَّق أن الله يحيي الموتى، لكن عقله كان يبحث عن تصوّر لكيفية إحياء الله للموتى، وكيفية الإحياء لا يشترط في الإيمان الإحاطة بصورتها كما ذكر المفسر الألوسي، لقد كان يسعى إلى الاطمئنان القلبي الذي ينجم عن المعاينة لما آمن به بالغيب، فالرؤية ما كانت ستزيده إيماناً إنما كانت ستبث الطمأنينة في قلبه؛ الذي سيستريح من عناء البحث عن تصور لعملية إحياء الله للموتى، فما كان قلب إبراهيم في شك في قدرة الله تعالى على إحياء الموتى، إنما كان في شك في صحة ما يخطر بباله من تصورات لكيف يحيي الله الموتى، وقد كان محقاً في شكّه هذا، طالما أن عقله كان يفترض الكيفيات التي يتوقع أن يتم الإحياء بها افتراضاً، فكانت الرؤية مصدر «الاطمئنان الناجم عن التصور الصحيح».

وعموماً فإن ارتباط أمر من الأمور بصورة يراها المرء ويتذكرها، يرسخه في النفس رسوخاً شديداً، ويضفي عليه مسحة واقعية مريحة للنفس؛ لهذا كانت وسائل الإيضاح المختلفة من مجسمات، ورسوم، ونماذج، كانت ذات أهمية بالغة للعلوم كلها، ولعل هذا يعود إلى أن التفكير في أي شيء من خلال صورة له، أو أية وسيلة إيضاح أخرى أهون على

عقولنا، وبخاصة أن كلّاً منا قد مر بمرحلة عقلية، طوال سنوات حياته ما قبل الثانية عشرة، ما كان يدرك فيها الأفكار المجردة إلا قبيل نهاية تلك المرحلة، إنما كان لا يدرك من الأفكار إلا ما كان مجسداً في شيء من الأشياء يراه أمامه، أو يتخيله في عقله، أو مجسداً في فعل من الأفعال القابلة للإدراك بالحواس.

وبعد تلك المرحة تتكون وبالتدريج القدرة على إدراك الأفكار المجردة، دون ضرورة لحصرها بمثال، أو تجسيدها في شيء من الأشياء، أو فعل من الأفعال.

والإنسان الذي خلقه الله أطواراً، ينتقل من الأهون إلى الأصعب؛ لذا يبقى الأهون مرغوباً ومريحاً ومطمئناً للنفس، فالمثال يجعلك تفهم الفكرة أكثر، وصورة الشيء تجعلك تشعر أنك تعرفه أكثر، فقد دخل إلى عقلك من خلال حواسك.

والتاريخ واحد من تلك العلوم التي ترسخ في العقول بوسائل الإيضاح، فرؤيتك لصورة مدينة من المدائن، أو قصر من القصور للذين عاشوا قبل مئات السنين أو آلافها، تجعل هذه الشخصية تنطبع في ذاكرتك انطباعاً قوياً لا يعادله تكرار اسمها المرات الكثيرة؛ لأنه صار لهذا الملك أو ذاك القائد في ذهنك اسم وصورة مرتبطة بآثاره، وليس الاسم فحسب.

وكذلك لو سمعت عن ملك أو شعب عاش في عصر من

العصور، وكنت واثقاً بصدق من أخبرك لآمنت أن هذا الشعب أو ذلك الملك قد وجد ذات يوم حقاً، لكن إن كانت لهم آثار، وقدر لك أن تراها فسيتعمق إحساسك بواقعية هذا التاريخ الذي آمنت به وصدقت بالغيب، وستبعث رؤيتك للآثار قدراً من الحياة في صورة هذا التاريخ في ذهنك؛ لأنك صرت أقدر على تخيلهم، فهذه قصورهم، ودورهم، وأسواقهم، وتلك مرابضهم، ومقابرهم، إن رؤيتك لذلك كله تعمق ذاكرتك لهم وتقويها؛ لأنك قد أضفت إلى ذاكرتك مع أسمائهم أشياءهم التي رأيتها رأي العين، والإنسان يتذكر مما يرى، ويلمس، ويختبر بحواسه أكثر بكثير مما يقرأ عنه أو يسمع عنه.

إن القوة والحيوية التي اكتسبتها ذاكرتك لهم تجعلك تشعر أن أولئك الذين قرأت تاريخهم قد وُجِدوا على هذه الأرض وجوداً كوجودنا، فتطمئن النفس برؤية آثارهم، لا لأننا ازددنا إيماناً بأنهم وجدوا، بل لأننا ازددنا معرفة، وإدراكاً، وتصوراً لما آمنا به من قبل، أي: أننا تعلمنا ما آمنا به تعلماً أكمل من خلال اشتراك حواسنا في هذا التعلم، ومن خلال ما أضفناه إلى عقولنا من صور وأحاسيس ارتبطت بالمعلومات التي آمنا بها بالغيب، فالذي تعمق هو التعلم والتصور، وليس الإيمان والتصديق.

وهكذا شأن الحاج الذي يقطع المسافات كي يصل إلى مكة المكرمة، فإنه عندما يقع بصره على الكعبة المشرفة لأول مرة، ثم يتأملها المرة بعد المرة وكأنه يريد أن يختزنها في عقله فلا ينساها أبداً، يمتلىء قلبه بذلك الاطمئنان الإبراهيمي الناجم عن التصور لما آمن به من قبل، وتساءل كثيراً كيف هو، فكم من مرة صلى واستقبل القبلة متوجهاً إلى الكعبة المشرفة، أتراه شك في وجودها لحظة واحدة؟ أبداً. لكن ما أحلاها طمأنينة تغمر القلب لمرآها!.

وعندما يطوف المؤمن بالكعبة يتذكر أنه هنا طاف رسول الله ﷺ، وهذه الأرض المباركة التي تطؤها قدماه قد وطئتها قدما رسول الله ﷺ، وعندما يذهب الحاج للسعي فإنه يرى الصفا والمروة، ويسعى بينهما حيث سعت هاجر، ويقف فوقهما حيث وقفت تنظر إلى البعيد تبحث عن الماء من أجل إسماعيل ـ عليه السلام ـ وهو طفل صغير ظامىء.

إن محمداً ﷺ وإبراهيم وإسماعيل وهاجر، وكل ذلك التاريخ المجيد يكتسب بُعْداً واقعياً جديداً في قلب المؤمن الذي طاف بالكعبة، تلك التي بناها إبراهيم وإسماعيل ـ عليهما السلام ـ وسعى بين الصفا والمروة، وشرب من زمزم ذلك الماء الذي شربت منه هاجر، وشرب منه إسماعيل وإبراهيم ومحمد ﷺ.

إن نفس المؤمن تزداد اطمئناناً، وإن ذلك التاريخ المجيد يزداد رسوخاً في نفسه، فيشعر أنه يعرفه ويدركه، معرفة أعمق، وإدراكاً أوضح من ذي قبل، وإن كان إيمانه وتصديقه به لم يتغير، فالجاحد الذي لم يؤمن بشيء لأنه لم يره، إن رآه قال: سُحرتْ أبصارنا، فليس الإيمان هو الذي يتولد عن الرؤية، لكن العيان بعد الإيمان إنما هو شيء آخر، وبُعْد جديد لما عرفناه وآمنا به من قبل، ذلك الذي يأتينا من الرؤية.

وكذلك يكون عندما يقف المؤمن في عرفة، وعندما يرجم بحصياته الصغيرة تلك المواقع التي ظهر فيها الشيطان لسيدنا إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ يريد أن يثنيه عن طاعة الله، وكذلك أيضاً يكون عندما يدخل المؤمن مسجد رسول الله ﷺ زائراً للمسجد الذي فيه كان يجلس النبي ﷺ مع أصحابه، مصلياً فيه حيث صلى النبي ﷺ وصلى أصحابه، ثم يقف أمام قبره الشريف مسلِّماً، وأمام قبري اللذين كانا من بعده أبي بكر وعمر ـ رضي الله عنهما ـ ويرى الحجرة الشريفة حيث كان يسكن ﷺ مع أم المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ وعندما يزور البقيع، وأُحُداً، وقباء وغيرها من الأماكن التي شهدت أحداث السيرة العظيمة، سيرة رسول الله ﷺ وسيرة صحابته الكرام.

إن أحداث هذه السيرة وتفصيلاتها تأخذ بُعْداً واقعياً آخر

في قلب المؤمن عندما يشهد مواقعها، ويزداد حضورها في هذا القلب؛ إذ أصبح بعضها (ولو كان الأماكن) جزءاً مما خبرته حواسه، فرآها المؤمن بعينيه ولمسها بيديه، أي: صار بعضها بالنسبة له من عالم الشهادة بعد أن كان غيباً.

ولئن كانت رؤية هذه الآثار الطيبة تضفي المزيد من الحيوية والوضوح على صورة هذه السيرة العظيمة في أذهاننا، فإنها أيضاً تنشىء رابطة عاطفية إضافية بيننا وبين الرسول ﷺ وبيننا وبين صحابته الكرام ـ رضوان الله عليهم ـ فنحن قد مشينا حيث مشوا، وقد وقعت أبصارنا على الأرض والجبال التي وقعت أبصارهم عليها، وقد شربنا من الماء الذي شربوا منه.. أما كان الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ يتخاطفون شعر رسول الله ﷺ إذا حلق أو قصر؟ أما حرصوا على أن يفوزوا بشيء من أشيائه في حياته وبعد أن لحق بالرفيق الأعلى ﷺ تبركاً، ولأنها أثر من الحبيب؟ وإن فاتنا أن نفوز بما فازوا به من آثار من الحبيب ﷺ فها نحن نطوف حيث طاف، ونسعى حيث سعى، ونشرب من حيث شرب.

وإذا تعذر على المسلم أن يزور تلك البقاع الطاهرة، وأن يؤدي فريضة الحج بنفسه، فلن يتعذر ذلك على أهل بلده كلهم، فإنه لا بد من أن يذهب من كل بلد وفد الرحمن، ويعودوا من حجهم بما فازوا به، يتحدثون إلى الأهل

والأصحاب عما رؤوا وعايشوا، فينتقل بعض تلك الطمأنينة إلى نفوس السامعين.

فكما أن رؤية شيء مما ترك الأقدمون تضفي على الشعور بتاريخهم بعداً جديداً من الواقعية، فإن رؤية من رأى تلك الآثار يضفي على شعورنا بوجود تلك الآثار بعداً جديداً مماثلاً يخفف من غيبتها بالنسبة إلينا قليلاً، فكأنهم قد رأوها نيابة عنا، فتحقق بعض المراد وإن لم يتحقق كله، إذ ليس الخبر كالمعاينة.

وهذه الطمأنينة التي تأتي من أن بعضنا قد رأى تلك الأشياء التي آمنا بها بالغيب دون أن نراها، نشعر بها عندما نقرأ في القرآن الكريم أن سيدنا إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ قد رأى كيف يحيي الله الموتى؛ لأننا عندما نعلم علم اليقين أن واحداً منا نحن البشر هو إبراهيم قد رأى ذلك، يسري في قلوبنا شيء من تلك الطمأنينة التي نعم بها قلبه، إذ بهذا يكتسب الغيب مسحة من الشهادة. ولعل هذا ما أحس به الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ وما نحسّ به نحن عندما يحدثنا الرسول ﷺ عمّا رأى في إسرائه ومعراجه، فقد رأى السموات، ورأى الأنبياء السابقين، ورأى الجنة، واطلع على المعذَّبين وهم يعذبون، ورأى الكثير الكثير مما آمنا به بالغيب.

ولن ندرك الأثر الذي تركته رؤيته ﷺ لكل هذا في نفوسنا

نحن، إلا لو تأملنا أنفسنا، وتخيلنا أنه ﷺ لم يُعرج به إلى السماء ولم ير ما رأى؛ إن تلك المسحة الملطفة من الشهادة التي تأتينا عن طريقه ﷺ ستختفي، وسيعود لتلك المغيبات طابعها الغيبي المطلق في أذهاننا.

إنه لم يكن في الإسراء والمعراج تطمين لقلب محمد ﷺ دون قلوبنا؛ ولم تكن رؤية إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ للطيور الأربعة تُبعث حية أمام ناظريه، تطميناً لقلبه دون قلوبنا؛ وليس الحج تطميناً لقلب الحاج دون قلوب أهله وأصحابه إذا رجع إليهم. ولكن شتان ما بين الاطمئنان يفوز به من رأى، والاطمئنان يناله الذي يرى من رأى!

* * *

الفصل الثاني
الحكمة في مناسك الحج

في كل عام، ومع اقتراب ذي الحجة، تهفو أفئدة مؤمنة كثيرة إلى بيت الله الحرام، وتتوق للحج إليه. . إنها تحلم برؤية البيت العتيق، والطواف حوله، والصلاة عنده، وتشتاق إلى الصفا والمروة لتسعى بينهما كما سعت هاجر.

إنها تتوق إلى عرفة، وإلى مزدلفة، وتتمنى أن تمسك بالحصى، وترجم تلك المواقف التي ظهر فيها الشيطان لسيدنا إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ محاولاً إخراجه من إسلامه، وانقياده لله تعالى.

ويبقى السؤال الذي يخطر في البال: ما الحكمة من تلك الفريضة التي تحتاج إلى المشقة البالغة، والمال الكثير لأدائها؟

فالمؤمن يعرف أنه لا بد هنالك من حكمة وراء أي تكليف يكلفنا الله به، وبالتأكيد هنالك حكمة من أن الحج محدد بمكان واحد معين يقصده الحجيج من كل مكان، وليست الحكمة محصورة في المناسك نفسها من طواف، وسعي، ووقوف في عرفة، أو رمي للجمرات، أو حلاقة للشعر، أو ذبح للهدي.

ذلك أن كل هذه المناسك يمكن القيام بها في مكان إقامة المؤمن، مثلما تقام الصلاة في كل حي أو بلدة. وكنت قد فصلت القول حول الأثر النفسي لكون الحج محدداً في مكة المكرمة وعند أول بيت وضع للناس، وبين الصفا والمروة وعند زمزم والجمرات.

غياب الحكمة حكمة:

سؤال متكرر: ما الحكمة، وما السر في الطواف حول الكعبة بعكس عقارب الساعة سبعة أشواط؟ وما الأثر النفسي لهذا الطواف؟

وسؤال مثله عن السعي بين الصفا والمروة وعن تكبد المشقة للوقوف بعرفة في وقت محدد من العام، ثم الوقوف بمزدلفة وبعدها منى، ورمي الجمرات، وحلق الشعر، أو تقصيره.

وقد يقول قائل: إن الطواف حول الكعبة بعكس عقارب الساعة يشبه دوران الكواكب في أفلاكها، وإن السعي بين الصفا والمروة إعادة لما قامت به هاجر وهي تبحث عن الماء لرضيعها.. وإن رمي الجمرات تكرار لما فعله سيدنا إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

وهذا كله صحيح، ولكن أين الحكمة في ذلك؟ الحكمة

التي تقتضي الرحلة الطويلة، والمشقة العظيمة؛ التي يزيدها أن هذه المناسك يجب أن تؤدى في موسم معين من السنة مما يؤدي إلى التزاحم عليها؟ أليس من الواضح أن التشبه بدوران الكواكب في أفلاكها، وإعادة ما فعله إبراهيم وهاجر لا يستدعي تلك المشقة البالغة؟ أو لم يقل النبي ﷺ عن الحج: إنه جهاد المرأة والضعيف لما فيه من مشقة وجهد؟

يبدو أن الحكمة المقنعة غائبة هنا، ولكن قد يكون غيابها هو الحكمة بعينها.

عندما يتلقى الإنسان أمراً بفعل شيء ما صادر عن شخص آخر، سواء كان صاحب سلطة عليه أو لم يكن، فإنه ينفذ هذا الأمر الذي تلقاه مدفوعاً في أغلب الأحيان بأحد ثلاثة دوافع، أو بمزيج اثنين منها، أو أكثر.

والدافع الأول هو الخوف من عاقبة فورية للعصيان، ويكون التنفيذ هنا خضوعاً للإكراه، والتهديد، والابتزاز، فإنك قد تنفذ أمر لصٍّ مسلح بأن تخرج محفظة نقودك، وتضعها في يده، وقد يتخلى طفل صغير عن لعبة تشبث بها، ويتركها لأخيه عندما يستشعر من نبرة صوت أمه أو أبيه قرب العقوبة.. وقد يغادر الإنسان أرضه وداره حفاظاً على حياته، أو عرضه، أو دينه.. والخضوع للإكراه يختلف عن الطاعة.

أما الدافع الثاني الذي قد يقود المرء إلى تنفيذ ما صدر إليه

من أوامر، فهو الاقتناع العقلي بهذا الأمر، ورؤية مصلحة له في القيام به، أو أن يكون القيام به يشبع رغبة نفسية لديه، ويرضي هواه.

ويكون التنفيذ هنا ناتجاً عن موافقة الأمر لهوى الإنسان وقناعته، فهو طاعة للهوى القلبي، والقناعة العقلية، وليس طاعة لصاحب الأمر.

أما الدافع الثالث فهو الطاعة لصاحب الأمر، إذ ينفذ الإنسان الأمر الصادر إليه طاعة للذي أمره، وإرضاء له دون خوف من سيف مسلّط على رقبته، أو إيذاء متوقع عند الرفض، وينفذه بغضّ النظر عن قناعته بالأمر الذي صدر إليه، وبغضّ النظر عن موافقته لهواه أو معارضته له.. إنه يطيع مسلماً قياده للذي أمره، لا يقاوم الأمر، ولا يتذمر، ولا يجادل، ولا يتردد. وهذا ما فعله إبراهيم ـ عليه السلام ـ عندما تلقى أمر ربه أن يحمل زوجته الضعيفة هاجر مع ابنها الرضيع إسماعيل ـ عليه السلام ـ تلك الزوجة الشابة الحبيبة، وذلك الابن الغالي الذي أتى بعد طول انتظار، يحملهما ليتركهما في وادٍ غير ذي زرعٍ حيث لا مؤنس ولا معين.

لقد أطاع إبراهيم ـ عليه السلام ـ وهو المسلم المثالي في طاعته لله تعالى، ولم ينتظر أن تتبين له الحكمة كي ينفذ أمر الله، على الرغم من أن الأمر كان مخالفاً لهوى قلبه المحب لزوجته

وابنه، ومخالفاً لعقله الكبير الذي على الرغم من كبره لا يعلم الغيب.

والطاعة والإسلام لله تعالى كان خلق هاجر عندما تركها إبراهيم مع رضيعها في ذلك الوادي القاحل، واستدار قافلاً فسألته: لمن تتركنا؟ آلله أمرك بهذا؟ فلما قال: نعم، قالت: إذاً لن يضيعنا الله.

إنها الطاعة لله تعالى والتوكل عليه.. وتمر السنون، ويكبر الرضيع، ويصير شاباً وقرة عين لأبيه العجوز الكبير.. فيأتيه أمر جديد: أن يذبح ولده الحبيب بيده دون ذنب اقترفه.. إنه أمر يخالف هوى إبراهيم، ذلك الأب المحب الرحيم، ويخالف عقله وقناعته، إذ ما الحكمة التي يمكن لإبراهيم أن يراها في أن يذبح ابنه بيده؟

ولم يكن لدى إبراهيم قناعة أو هوىً يوافق هذا الأمر، ولم يكن واقعاً تحت الإكراه والتهديد، لكن إبراهيم المسلم المثالي الذي ينقاد لله ويطيع، ذلك العبد الحقيقي الذي لا يتمرد على خالقه، ولا يتذمر من أوامره، ولا يتردد في تنفيذها، لم يضع إبراهيم وقتاً، بل نقل الأمر إلى ولده الحبيب ليشاركه طاعة الرب العظيم فقال: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ [الصافات: ١٠٢]. لم يكن إبراهيم متردداً ينتظر التشجيع، أو التثبيط من إسماعيل، إنما أراد أن يخيّر

إسماعيل في أن ينصاع لأمر الله طاعة واستسلاماً، أو يقوم إبراهيم بتنفيذ أمر الله، سواء تعاون إسماعيل أو قاوم، ولكن إسماعيل سليل الأب المسلم المثالي والأم المسلمة المثالية كان مسلماً حق الإسلام مثلهما، فقال: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢].

وفي الطريق إلى مكان الذبح يظهر الشيطان لإبراهيم محاولاً بعث روح التمرد والعصيان فيه، فيرميه إبراهيم، ويرجمه بالحجارة عند تلك المواضع التي يرجمها الحجاج.

ويجتاز إبراهيم وإسماعيل اختبار الطاعة لله تعالى، فيفدي الله إسماعيل بذبح عظيم، فالله أرحم من أن يفجع والد محب مطيع لله مثل إبراهيم بولده وبيده، لكنه البلاء والاختبار.

أما نحن فإننا عندما نقطع المسافات الشاسعة، وننفق الأموال الطائلة، كي نذهب إلى هناك، ونعيد تمثيل أفعال إبراهيم، وهاجر، وإسماعيل التي تجسدت فيها طاعتهم المطلقة لله، طاعة مجردة عن القناعة العقلية، أو الهوى القلبي.

إننا عندما نقوم بذلك نقوم بطاعة مماثلة لطاعة إبراهيم، وهاجر، وإسماعيل؛ إذ نتكبد المشاق، ونضحي بالمال من أجل أن نقوم بمناسك لا يرى فيها عقل الإنسان ما يبرر تلك المشقة، والنفقات، والتزاحم، نؤديها بحماسة واندفاع على

الرغم من خفاء الحكمة فيها، وغيابها عنا.

فبغياب الحكمة المقنعة من تلك المناسك تتخلص طاعتنا لله في أدائها من أي شائبة تشوبها من طاعتنا لعقولنا أو قلوبنا، فليس فيها ما يشبع الفكر إقناعاً، أو يحرك الأهواء ويستفزها.

هناك حيث يتدافع الأمي مع العالم العبقري ليرمي كل منهما حصياته، وهناك حيث يسعى الرجال والنساء بين كتلتين صغيرتين من الصخر إحداهما الصفا والثانية المروة، ويكررون السعي سبع مرات.

إنها مناسك تتجسد فيها طاعة أسرة نموذجية في إسلامها القياد لله تعالى إسلاماً كاملاً جعلها قدوة وأسوة، نسافر إلى هناك من أجل أن نقلد ونحيي بعض أفعالها تقليداً ظاهره البساطة والبدائية، وجوهره الطاعة الحقيقية، على الرغم من الذكاء، والثقافة، والعلم الراسخ؛ لذا فإن المؤمن الذي يحج الحج المبرور يعود من حجه ونفسه أكثر انقياداً لله تعالى؛ وأكثر إسلاماً واستسلاماً له، فقد مارست الطاعة الحقيقية المطلقة الخالصة لله تعالى، مارستها مع الألوف المؤلفة من المسلمين، ورددت معهم: «لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك». إنه إعلان للاستعداد الدائم للاستجابة الفورية لله تعالى دون تردّد، ولا تذمّر، ولا جدال «لبيك اللهم لبيك».

أليست الحكمة العظيمة كامنة في غياب الحكمة المقنعة من تلك المناسك المعظمة؟! ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢].

ترسيخ الهوية الإسلامية:

عندما يصل الإنسان مرحلة البلوغ العقلي؛ الذي يتزامن في الحالة الطبيعية مع البلوغ الجنسي، يشتدّ ميله إلى الفردية والاستقلالية، ويأنف من تبعيته السابقة للكبار، فيأخذ في المحاولة كي يشق طريقه في الحياة بشكل مستقل وبطريقته الخاصة.

في هذه المرحلة تتحدد ملامح الهوية التي يرتضيها لنفسه، وذلك إما نتيجة بحث شخصي ومحاولات يقوم بها المراهق يتشبّه فيها كل مرة بشخص قد أُعْجِب به، فيقلده في لباسه، أو طريقة كلامه، أو نشاطاته، حتى يتوصل إلى الصفات، والأهداف الحيوية، والمهنة، والآراء، والاتجاهات التي يرضاها لنفسه، ويعتبرها خاصة به يعيش بها ولها.

والذي يعنيه علماء النفس بالهوية هو: جواب الإنسان على سؤاله لنفسه: «من أنا؟ وماذا أريد أن أكون؟ وأن أحقق؟».

إن هوية الإنسان تشتمل على مشروع حياته بكل جوانبه

كما يحدده هو، أو كما يحدده له المجتمع متمثلاً بوالديه، ومدرّسيه، وباقي مصادر السلطة في المجتمع، ويقبل هو بهذا المشروع، ويحدِّد هويته على أساسه.

وبعد أن تتشكل الهوية في أواخر المراهقة تبقى قابلة للتعديل طيلة الحياة، لكنها قلما يطرأ عليها تعديل جذري أو سريع بعد المراهقة، اللهم إلا في حالات خاصة كمن يؤمن بدين جديد مثلاً.

والهوية كما ذكرت تتضمن جواب الإنسان على سؤاله: «من أنا»، وعلى سؤاله: «إلى أين أنا ذاهب في هذه الحياة؟»، وهنالك في الحج تتأكد صفة الإسلام كوصف أساسي للمسلم، فلو سأل: من أنا؟ لأسرع الجواب إلى ذهنه مبتدئاً بـ: «أنا مسلم»، فالحاج يعيش أياماً عدة مع الآلاف الكثيرة من المسلمين الذين أتوا من كل بلاد العالم، لا يجمعهم هنالك رابط أقوى من إسلامهم، وإيمانهم برب واحد، وكتاب واحد، ونبي واحد.

ومع أن إحساس الإنسان بتميزه القومي، أو الوطني، أو العرقي، أواللوني كمقوم هام من مقومات هويته يشتد إن وُجِد في بيئة غريبة، في بلد غير بلده، وبين أناس من غير جنسه، فإنه في الحج الذي يأتي فيه المسلمون من كل قطر ولون وعرق ولغة توحدهم ملابس الإحرام، وهتافات: «لبيك

اللهم لبيك»، هنالك يضعف إحساس المسلم بكل جوانب هويته؛ التي تميزه عن باقي المسلمين من الشعوب الأخرى أو الأعراق والألوان المختلفة، ويبرز جانب الإسلامية والعبودية الموحدة لله تعالى الطائعة لأوامره، الملبية لندائه، وبذلك ترسخ الصبغة الإسلامية لهوية الحاج، ويتعمق شعوره بالإسلام لله تعالى كمميز له عن البشر الذين تمنعوا عن الانقياد لمولاهم، أو تمردوا عليه وحاربوه.

ولعل هذا أهم أثر نفسي لكون الحج مؤتمراً عاماً سنوياً للمسلمين، إنه مؤتمر، ومخيم، ودورة، وأكثر من ذلك(١).

مغفرة شاملة، وعافية نفسية:

قال ﷺ: «من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه». (متفق عليه).

«العمرة إلى العمرة كفارةٌ لما بينهما، والحج المبرور ليس له جزاءٌ إلا الجنة». (متفق عليه).

لقد جعل الله في النفس الإنسانية القدرة على إدراك

---

(١) يرجع الفضل في بحثي لأثر الحج في الهوية الإسلامية للحاج إلى أخي الدكتور عبد الرحيم حسين هويدي المعالج النفسي بمستشفى أبو ظبي المركزي، إذ لفت نظري إلى هذا الأثر، وشجعني على الكتابة عنه، فجزاه الله خيراً، ونفع المسلمين بعلمه الغزير.

أخطائها، ومحاسبة ذاتها، فيكون شعورها بذنبها، ولومها لنفسها حافزاً لها؛ لتتوب، وتصلح ما أفسدت، وتعوّض الآخرين عن إساءتها إليهم.

ولوم النفس يدل على الخير في هذه النفس التي تحاسب ذاتها، وتعترف بخطيئتها.

أما النفس الظالمة المكابرة المتبعة لهواها، فقلما تلوم نفسها، إنما هي دائماً تتعامى عن أخطائها وعيوبها، وتضع اللوم على الآخرين، وتحمّلهم مسؤولية ما أصابها، وما أصابهم على يدها.

فعندما عصى آدم ربه قال: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي﴾ [القصص: ١٦]، وعندما عصى إبليس ربه اتهم الله أنه أغواه، ورفض أن يرى خطيئته، وأنكر مسؤوليته عما فعل، فقال: ﴿رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٣٩ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر: ٣٩ ـ ٤٠] وقال: ﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝١٦ ثُمَّ لَـَٔاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٦ ـ ١٧].

ولأن النفس اللوامة تصدر عن موقف إيماني لا يبطر الحق، ولا يغمط الناس، ولا يستعلي على رب العالمين، موقف من طبعه الإقرار بالحق لا الكذب على النفس وعلى

الغير؛ لأن النفس اللوامة تصدر عن مثل هذا الموقف، فقد أظهر المولى تقديره لها عندما أقسم بها فقال: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة: ١ ـ ٢].

لكن لوم النفس إن زاد عن حده تحول إلى مرض نفسي يشلّ الإنسان، ويثبطه، ويصبغ حياته بالكآبة، والحزن، والقلق، وعدم الطمأنينة، فالذي يغلبه الشعور بالذنب يعيش خائفاً من أن يعاقبه الله في الدنيا والآخرة، ويزداد خوفه من أن يداهمه الموت قبل أن يتحرر من خطاياه، وبذلك يصبح قلقاً، ويكره نفسه لما تسبّبت به من معاصٍ بحق الخالق وإساءات بحق الناس فيكتئب.

وعلى الرغم من أن باب التوبة مفتوح دائماً، وعلى الرغم من أن الله قال في الحديث القدسي: «فاستغفروني أغفر لكم» فإن الكثير من النفوس المؤمنة ذات الضمائر الحية يبقى فيها قدر من الشعور بالذنب، ولوم النفس بانتظار طاعة كبرى كالحج، طاعة مجسدة فيها المشقة والبذل؛ كي تحس تلك النفوس المتحرجة بأنها قد عوضت عما أخطأت بحق مولاها، فتطمئن إلى أنها رجعت من حجها كيوم ولدت نقية من الخطايا، قد غفر لها، وفتحت لها صفحة جديدة، فيكون في إحساسها ذاك راحة لها، وتحرر من الشعور بالذنب، ولوم النفس، وبالتالي شفاء من القلق والاكتئاب الناتجين عنهما،

وهكذا يعود المؤمن من حجه المبرور أكثر عافية نفسية، تملؤه السكينة والطمأنينة، مندفعاً بحماسة ليخطّ في صفحته الجديدة كل فعل خير يرضي الله تعالى.

فالحمد لله الذي شرع لنا الحج، وجعل لنا عليه الأجر العظيم.

* * *

الفصل الثالث
المزيد من الآثار النفسية للحج

إنَّ للحجّ من الآثار النفسية الرائعة في نفس المؤمن ما يبرر ما ينفقه فيه من مال كثير، وما يبذله في أدائه من جهد كبير.

ولعلّ في المشقة والنفقة الكبيرة التي يتطلبها الحج حكمة، إذ أن عدم تيسّر الحج لكل من شاء متى شاء، بالإضافة إلى كونه الركن الخامس من أركان الإسلام، كل ذلك يجعل أداء الحج إنجازاً هاماً في حياة المؤمن.

والإنجاز مطلب نفسي هام في حياة الإنسان، إذ عندما يتساءل أي إنسان عن معنى حياته، فإن أول مرتبة في مراتب المعنى في الحياة أن تكون حياة مليئة بالإنجازات؛ لأن ما يحققه الإنسان من إنجازات يجعل حياته حياةً ذات معنى، لا حياة ضائعة فارغة، فالإنجاز في الحياة يحمي النفس الإنسانية من القلق العميق؛ الذي يمكن أن يثيره فيها الظن أن الحياة كانت بلا معنى، واللامعنى في حياة الإنسان يسلبه السعادة، وقد يدفعه إلى البحث عن معنىً في مجرد اللهو والمتعة، أو في غير ذلك من إنجازات قد لا تكون بريئة، بل قد تكون فاسدة مدمرة.

فلئن كان للإنجازات البشرية الدنيوية الأثر الكبير في إضفاء المعنى على الوجود الإنساني، وفي ملء النفس البشرية بالطمأنينة والسكينة والرضا، وهي تستعرض إنجازاتها فيما مضى من عمرها، فإنَّ الحج يحقق للمؤمن سكينة أعظم؛ إذ هو إنجاز باقٍ، ثوابه الجنة، والمغفرة، وارتفاع المنزلة.

ومن ناحية أخرى، فإن المؤمن الذي يحقق إنجازاً كبيراً في حياته كالحج يحسّ بالرضا عن نفسه، فيحبها أكثر، على عكس ما يحس به من سخْط عليها وكراهية لها إن وقعت في معصية كبيرة، تجعله يحس بالخزي أمام نفسه، وأمام الناس، ويستحي من الله، ويندم على ما فعل.

وإن هذا الرضا عن النفس يزيدها عافية وتوازناً، ويحميها من الأمراض النفسية وعيوب الشخصية، بينما السخط عليها وكراهيتها أو ازدراؤها يوقعها في الاكتئاب والقلق، وربما الإدمان وغيرها من العيوب النفسية والسلوكية.

والحج كإنجاز في حياة المؤمن، وما يرافقه، ويتلوه من الرضا لدى المؤمن عن نفسه، يجعله ينظر إلى نفسه نظرة تقدير واحترام، فيراها نفساً صالحة، وتكون في نظره جديرة بالتقدير والتوقير لصلاحها وتقواها، وهذا يُحسِّنُ لدى المؤمن ما يسميه علماء النفس «قَدْر الذاتِ» Self Esteem.

وقَـدْرُ الـذاتِ، أو احتـرام الـذات يترافـق مـع التـوازن والاستقرار النفسي، ويقلل من القلق لديه، فالإنسان عموماً يزداد قلقه كلما نظر إلى نفسه فوجدها بعيدة عن الصورة المثالية التي يتمناها لها.

والحج وكل عمل صالح يجعل واقع النفس المؤمنة أقرب إلى الصورة المثالية التي يحلم المؤمن في وصوله إليها؛ وبذلك يقلل العمل الصالح ـ عموماً والحج خاصةً ـ من القلق عند المؤمن؛ إذ يملأ نفسه بالرضا عن نفسه، والتوقير، والاحترام لها.

وللحج أثر كبير في ترسيخ التقوى في النفس المؤمنة، فالحج التزام Commitment والمؤمن الذي يحج، ويتكلف المشقة والمال والوقت يقطع على نفسه خط الرجعة؛ الذي ربما كان يحتفظ به قبل الحج، حيث ربما كان يحتفظ بمساحة يعطي نفسه فيها بعض أهوائها المحرمة، فتراه ملتزماً بدينه، إنما قد يتراجع بين الحين والآخر استجابة لشهوة، أو لضغط اجتماعي يقع عليه، لكن عندما يحج فإنه يكون قد قرر أنه سيلتزم بدينه التزاماً جيداً، وأنه سيتقي الله ما استطاع، والحج يأتي بمثابة تجسيد لهذا الالتزام، فيكون بمثابة ميثاق وعهد يقطعه المؤمن على نفسه أنه لن يعصي الله بعده.

ومما يزيد دافعية المؤمن للتقوى والالتزام الكامل بعد الحج أن الحج يبيّض صفحة المؤمن، فالذي يحج فلا يرفث،

ولا يفسق يعود كما ولدته أمه نقياً من ذنوبه، وبياض الصفحة يدعو المؤمن إلى الحفاظ عليها بيضاء نقية، أما امتلاؤها بالمعاصي فيشجّع على المزيد من المعاصي؛ لأن من يلبس ثوباً متّسخاً لن يجد مانعاً من الجلوس على أرض وسخة، أو من أن يمسح بقايا طعام أكله بثوبه، فثوبه متّسخ، ولا يبدو له في إضافة المزيد من الأوساخ مشكلة، أما صاحب الثوب الأبيض النقي فإنه يحرص على بياضه ونقائه من أن يتلوّث بشيء، فتراه يتجنب كل ما يمكن أن يدنّس هذا الثوب، أو أن يلطخه، وكذلك المؤمن العائد من حجه بالمغفرة الشاملة، تزداد الدافعية النفسية لديه للحفاظ على صحيفته بيضاء تزينها الطاعات، وتغيب منها المعاصي والخطايا.

وإنّ من طبيعة الإنسان أن نجاحه يقوده إلى المزيد من النجاح، إذ يشجّعه نجاحه الأول على المزيد، وقد لمس حلاوة النجاح، كما يكسبه نجاحه الأول ثقة بإمكاناته وقدرته على المزيد من النجاح، فتزداد همّته للسعي إلى نجاحات أخرى.

ونجاح المؤمن في أداء هذه الطاعة الكبيرة المتمثلة في فريضة الحج، يشجعه على المزيد من الطاعات، ويهوّن عليه الطاعة، إذ قد تمرّس فيها، وجرّبها في أشد أشكالها وضوحاً، وتجسداً.

* * *

خاتمة

لعلّ هذه التأملات استطاعت أن تبين إلى أي حدّ يمكن للإسلام أن يلتقي مع ما هو ثابت في علم النفس، بل أن يكون مُلْهِماً لعالم النفس المسلم يعينه على وضع الفرضيات، وصياغة النظريات التي ستكون بالتأكيد أكثر قرباً من الحقيقة من نظريات نبتت بعيداً عن هداية الله، ونبعت من أهواء تصرّ على إنكار وجود الخالق كي تبرر كفرها واستنكافها عن شكره على نعمه؛ التي أهمها نعمة الوجود ذاته.

والمسلمون ما يزالون محرومين من الكثير من المنافع التي يمكن لعلم النفس أن يقدمها لهم، وعلم النفس ما يزال محروماً من الكثير من البصائر التي يمكن للمسلمين أن يُثْروا بها هذا العلم الناشىء، إذ ينهلون من معين القرآن الكريم والحديث الشريف الذي لا ينضب.

وما يزال الأمل معقوداً على الشباب المسلم الموهوب؛ الذي يتمتع بالقدرات الذكائية العالية، وبالميل لدراسة النفس البشرية، وذلك كي يُقْبِل على العلوم النفسية ومثلها العلوم الاجتماعية؛ ليستنبط لنا النظريات النفسية والاجتماعية؛ التي

تعيننا في حياتنا، وفي حلّ مشكلاتنا، وتبليغ ديننا إلى العالمين البلاغ المبين، وبالحكمة والموعظة الحسنة كما أمرنا رب العالمين.

وكذلك التي تعيننا في تربية أولادنا على الإسلام على الرغم مّما يتعرّض له عالمنا الإسلامي من غزو ثقافي يمتلك إمكانات هائلة.

وتعيننا أيضاً في علاج الاضطرابات النفسية؛ التي قد تصيب بعضنا وهو يواجه ضغوط الحياة المعاصرة وتحدياتها.

إنها دعوة أوجّهها لأصحاب الموهبة من شبابنا ليسدّوا هذه الثغرة القائمة في بنياننا الثقافي المعاصر، وليشبعوا هذه الحاجة في أمتنا إلى علوم نفسية على مستوى العصر، تنبع من عقيدتنا، أو لا تتعارض معها على الأقل.

والحمد لله رب العالمين.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

تقديم بقلم الدكتور عبد الرحيم حسين هويدي ٥
مقدمة المؤلف ١١
القسم الأول: أثر العقيدة في المشاعر ١٥
(أ) القلق ١٦
الفصل الأول: حكمة الخالق في القلق النفسي ١٧
الفصل الثاني: شفاء لما في الصدور ٢١
الفصل الثالث: حسبي الله ونعم الوكيل ٢٥
الفصل الرابع: آجال مكتوبة ٢٩
الفصل الخامس: نعمة الوجود ٣٣
الفصل السادس: قلق الموت ٣٧
الفصل السابع: فلنحيينه حياة طيبة ٤١
الفصل الثامن: قدر لا مصادفة ٤٥
الفصل التاسع: مكانة عند الله لا عند الناس ٥٠
الفصل العاشر: لا إحباط مع الإخلاص ٥٤
الفصل الحادي عشر: لا قلق مع التوحيد الخالص . . . ٦٠

الموضوع	الصفحة
الفصل الثاني عشر: لا قلق مع الاستغفار والتوبة . . .	٦٤
الفصل الثالث عشر: لم يبق من النبوة إلا المبشرات . .	٦٨
الفصل الرابع عشر: أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك	٧٢
(ب) الاكتئاب	٧٦
الفصل الأول: فراق لا انتهاء	٧٧
الفصل الثاني: إن الإنسان خُلِق هلوعاً إلا المصلين . .	٨٢
الفصل الثالث: وبشر الصابرين	٨٦
القسم الثاني: أثر العقيدة في الأخلاق	٩١
(أ) الغيظ والغضب	٩٢
الفصل الأول: الغيظ انفعال، والغضب فعل إرادي	٩٣
الفصل الثاني: الغضب ثورة تضر ولا تنفع	٩٧
الفصل الثالث: اغفر وادفع بالتي هي أحسن	١٠١
الفصل الرابع: الذي يملك نفسه عند الغضب . . .	١٠٥
الفصل الخامس: فلنحذر سوء الظن	١٠٨
الفصل السادس: حسن الخلق والتحكم في الانفعالات .	١١٢
الفصل السابع: الرضا بالقدر، والتحذير من «لو» .	١١٦
(ب) الحياء والخجل والرياء	١٢٠
الفصل الأول: لا دونية مع الإيمان	١٢١

الموضوع	الصفحة

الفصل الثاني: حياء لا خشية ١٢٥

الفصل الثالث: حياء مع جرأة في الحق ١٢٩

الفصل الرابع: آداب تقضي على الخجل والخشية . . . ١٣٣

الفصل الخامس: خلق الإسلام: الحياء ١٣٧

الفصل السادس: حياء لا رياء ١٤١

(ج) الموقف من الآخرين ١٤٦

الفصل الأول: الحب تلك العبادة المنسية ١٤٧

الفصل الثاني: الغيبة بلاء على قائلها ١٥١

الفصل الثالث: ولا تحاسدوا ١٥٤

االفصل الرابع: ستر أو حدّ ١٥٩

القسم الثالث: في الدوافع النفسية ١٦٤

(أ) خلفاء أم متألهون ١٦٥

الفصل الأول: معنى الحياة ١٦٦

الفصل الثاني: اختبار الصلاحية للخلافة في الأرض ١٧٠

الفصل الثالث: الفطرة في اللاشعور ١٧٥

الفصل الرابع: الران ١٨٠

الفصل الخامس: حقيقة الكبر ١٨٤

الموضوع	الصفحة

الفصل السادس : (أ) الكبر يدفع إلى الكفر ١٨٨
الفصل السابع : (ب) الكبر يدفع إلى الكفر ١٩٢
الفصل الثامن : المتألهون الجاحدون ١٩٦
الفصل التاسع : اختبار القابلية للهداية ٢٠١
(ب) مشكلة الدافعية عند المسلم المعاصر ٢٠٧
الفصل الأول : النية والدافع النفسي ٢٠٨
الفصل الثاني : فهو في سبيل الله ٢١٢
الفصل الثالث : خلفاء الله في أرضه ٢١٦
الفصل الرابع : بالتقوى يصير المباح عبادة ٢٢١
القسم الرابع: أثر العبادات في النفس المؤمنة ٢٢٦
(أ) الصلاة ٢٢٧
الفصل الأول : حديث النفس وحضور القلب ٢٢٨
الفصل الثاني : التسبيح ٢٣٢
الفصل الثالث : «وجعلت قرة عيني في الصلاة» . . . ٢٣٦
الفصل الرابع : (أ) تنهى عن الفحشاء والمنكر ٢٤٠
الفصل الخامس : (ب) تنهى عن الفحشاء والمنكر . . ٢٤٣
الفصل السادس : (ج) تنهى عن الفحشاء والمنكر . . ٢٤٦

الموضوع	الصفحة
(ب) الزكاة	٢٥١
الفصل الأول: تطهرهم وتزكيهم بها	٢٥٢
(ج) الصيام والاعتكاف	٢٧٤
الفصل الأول: نظرات نفسية في الصيام	٢٧٥
الفصل الثاني: رمضان شهر القرآن	٢٩٢
الفصل الثالث: الاعتكاف ذكر وحرية	٢٩٥
(د) الحج	٣٠١
الفصل الأول: من الآثار النفسية للحج	٣٠٢
الفصل الثاني: الحكمة في مناسك الحج	٣١١
الفصل الثالث: المزيد من الآثار النفسية للحج	٣٢٤
خاتمة	٣٢٨
فهرس الموضوعات	٣٣١

☆ ☆ ☆